عـــزوز

تأليف

أحمد النويري

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: عزوز

تأليف: أحمد النويرى

رقم الايداع / ٢٠١٦/٢١٢٢١

الطبعة الأولى ٢٠١٧



القاهرة: ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل

شارع ٢٦ يوليو - من ميدان الأوبرا

٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الاهداء

إلى السرجان عزوز نفسه..

لعل له ابن يقرأ هذه السيرة..

أما هو فلا شك عندى أنّه فى ذمة التاريخ.

المؤلف

السوريلاّت: والسوريلات: جمع مفرده سوريلاّ: الأخت أو الأخوات في اللغة الإيطالية (اللاتينية) وهنّ الراهبات اللاتي يتطوّعن لخدمة الأديرة والمرافق الخيرية والمستشفيات. يلتحقن بالخدمة الإنسانية وهنّ فتيات صغيرات مضربات عن الزواج – وعندنا : «لا رهبانية في الإسلام».. وهي ضد الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان.

والحكاية هذه أو الرواية على الأصح: حكاها لنا رجل تونسي كان مجندا تجنيدا إجبارياً في الجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كنّا جماعة من المسرح نقيم داخل المعهد الرمدي بباب سعدون، أغلبنا كان قد أجرى عمليات على العيون وكان الرجل من بيننا.

قال حدثّنا: كنت جريحا في إحدى المعارك التي حدثت بين الجيوش النازية والجيش الفرنسي عام أربعين وتسعمائة وألف، على الحدود بين الأراضي الفرنسية والبلجيكية.

قال: نقلت من الجبهة إلى مستشفى عسكري داخل الأراضي الفرنسية، وكانت بي جراح خطيرة شفيت منها بعد مدة طويلة، ولم أخرج من المستشفى إلا بعد سنة تقريبا، كنت في الشهور الأولى تحت الجراحات والعلاج الفعلي، أما المدّة الأخيرة وهي أكثر من ستة شهور فكانت بسبب تمديدات كنت أتحصل عليها بفضل إحدى الوريلات التي اكتشفتني أولا، وكنت أستمرئ هذه الإقامة في بادئ الأمر، لكنني ضقت بها ضرعاً

حين طالت وتعدّدت العلاقة مع أكثر من واحدة من السوريلات.

يقول الرجل: كانت جراحي كما أخبرت فيما بعد وكما هو ظاهرا في جسمي خطيرة، وفي أماكن مختلفة، جرّاء لغم أصابني وثلاثة من سريتي ماتوا جميعا، وأنجاني الله بأعجوبة، ولما وصلت إلى المستشفى كنت في حالة إغماء شديدة كما أخبروني، ثم أجريت لي العمليات الجراحية اللاّزمة، وبقيت في العناية الفايقة عشرة أيام أو تزيد، وكنّ يتناوبن على خدمتي أكثر من واحدة من الأخوات الراهبات. يقول: لا أدري في الأيام الأولى حين كنت فاقد الوعي تقريبا، كيف كنّ يتعاملن مع جسدي الذي لا أستطيع له حراكا، ولا أعتقد أنني بارحت سرير المرض فكل الخدمة تقدم لي وأنا في السرير.

الرجل حين كان معنا في باب سعدون في تقديرنا يتجاوز الخامسة والأربعين من العمر، فنحن وقتئذ كنا في سنة ١٩٦١ وتقديرا أيضا، أنه كان يبلغ من العمر في سنة ١٩٤٠ حين كان في الجبهة وجرح فيها العشرين أو تزيد أي أنه في مقتبل الشباب، والرجل جسيم خشن متجهّم المدبح طويل القامة كث شعر الحاجبين غاير العينين أنفه أفطس، واثنتان من أسنانه الأمامية بارزتين، وفي صوته بحة وغلظة قد وخطّ الشيب عار عضيجه وبدأ الصلع يزحف على جمته، وكنا ننعته بالعباثة، على سبيل المزاح، فكان يرد علينا: ياما رأت هالعباثة من غزلان.

كنا ونحن جماعة أغلبنا شباباً، وكان معنا من في سنّه بضعة أفراد،

نقول له : أفصح فكان يمتنع في بادئ الأمر وأخيرا قال لنا ذات يوم.

اليوم بنغلق الشكاره.. ما عندي لحن داسها.. الخلا والجلا في ليام الباهية.

سكت هنيهة ثم تنهّد تنهيدة طويلة وقال: يا ريت الموت هناك والكبر مهناشي.

- ما زلت في عزب شبابك يا عمي عزوز قال: واحد منا.

- مش كيف ليّام اللي تفكرتها كنت في العشرين.. نضرب الحيط أنهده.. كنت أنطير مع الطوير.. كان زايد السرية لما يقول عزوز نقول نعم سيدي ونضرب تعظيم سلام ليه نتخلخل الوطى تحتي . يا حسرة على أيام (القبّة) : (ريعان الشباب).

- واحد منّا: شن صار أيامها يا عمي عزوز.. مش قلت بنغلق الشكاره؟

- نغلقها على سطاش.. بعد ما فات قريب عشرين عاما.. الدنيا فانية.. أيام ماهيش محسوبّه من العمر.. تو ولت زي الحلم.

وتنبسط أسارير الرجل، ويظهر على شفتيه مشروع ابتسامه لم تكتمل توحي بها إليه ذكريات قديمة، تحرك فيه شجون الماذي الذي ولى، فتراه كأنه ينظر إلى بغيد، فيتصور مشاهد عاشها تمر في شريط أمامه كالخيالات.

إيبه يا أولاد.. ما عليكم جحده.. كنت في عمركم أو أصغر.. زي هذا والا أصغر، ويشير إلى أصغرنا شاب اسمه صحه كانت موضوعة على عينه اليسرى كمامة سوداء بسبب إجراء عملية له على القرنية مذ يومين.

يستطر عمي عزوز فيقول: هي حكايتي طويلة.. خرافه ما هي خرّافه.

واحد منا: أبداها من الأول يا عم عزوز.. قصّر لنا بيها الليل.. احنا من وراءنا وليل الليالي البيض أطول من نهار مارس.. ابدأ من اللي رفعوك للعسكر والآ حتى قبل.

بعدين يطلع الفجر وما تكملش.. أمّا له تحساب صار عليَ شويَ؟

غير احكي يا عم عزوز.. كل حد وغرائبه تكلم واحد منا.

نبدوها من يوم نادو علي في القرعة، لما واحد يوصل عمره ١٨ طول أتجيه تسكره من شيخ التراب ملزوم باش يمشي للعسكر والا يدفع.

وأنا أبوي ما عنده ما يدفع - كان الرجل يلهج لهجة الشمال الغربي من تونس من ولاية جندوبه، تبرسق على وجه التحديد - إيعاد اللي تحدث فيكم ما فادني شيء غير خشيت (القشلة) باش ندرب على العسكرية.

قعدت ثلاثة شهور بعدين عطونا اللباس ورفعتنا فرنسا بلهجة في سنت ٣٩.. جت رميتنا على الحدود الفرنسية من جهة بلجيكا على ما أيقولو العارفين باقي عمك عزوز والله ما هو عارف حاجه.. كان تلج يا أوخي أمغطي السهل والوعره وصقع اسل العقل وخوف.. الموت الجمره فشيجو فيها قدام أعيونا.. والزّبّاط كل ساعه يقولو لنا قريب الألمان يهجمو.

جاب ربك إن ما طولتش فيسمع هجمت علينا جرماني.. طقاطيق ومدافع ودبابات ترحى على لرش وطيارات في السماء ترمي في صواقع زي السخط من فوقنا، ولرضى زاده أملغمة فلما تحركنا بنصدو الهجوم جت طيحتي أنا وجماعتي في لغم نفضنا إلى قلب السماء ورمانا كانو

معاي ثلاث مشو في رمشة عين.. وأنا عمك عزوز فضت من عينها.. شقفة الليز ما تنكسرش.. هاني عشت ونحدث فيكم.

كان الرجل قد دخل المعهد الرمدي في باب سعدون من أجل إجراء عملية لإزالة المياه الزرقاء، وكان الأمل ضعيفاً في نجاح العملية كما أخبره البرفسور الهادي الرائس أشهر أطباء العيون في ذلك الوقت ١٩٦١م فكان عزوز يقول: أنا عمر ما متعلم بنجاح.. نعمل العملية واللي أصير أصير.. اللي مصوّره الله بيصير وبلا الله ما شيء صائر.

يستطرد عزوز في حكايته الطويلة وعندما تنهال ذاكرته الحافزة بمواقف ومشاهد عاشها، كانت بالنسبة له غريبة ومستهجنة وشاذة وعيب كبير في نظره، يحاول أن يمسك عن الكلام قائلا: يا اولاد فيه حاجات خلونا منها ما فيها ما ينقال.

- لا بنوك تقول كل شيء يا عمي عزوز.. أنت بروحك قلت بنغلق الشكارة: تكلم واحد.

- ماهي الشكار يا ما فيها من (خرمولي): أشياء معيبة يستنكف المتحدث عن ذكرها.

- ما هو الخرمولي هو الباهي.. مش يقولو الخاربه من اللسان تضحك القلب.. واحنا يا عمي عزوز في ها لمستشفى نهار وليل محبوسين تقول في السجن.. نفس علينا شوي اقلوبنا بتطبق.. الله يرضى عليك.. تكلم آخر.

- قلت الحق يا ولدي.. ليلنا مخلط مع نهارنا، وحتى أهلنا أنسونا ما

يزورونا كان مرّه بعد خمسطاش أيوم.. فجويه في هالطرابلس اليوم شهرين ما جاه حد.. الدنيا فانيه.. يشير على المؤلف.

- تكلم واحد من الجماعة.. هو نيك قلت الحق.. أفلق يا عم عزوز الدنيا فانيه.

كان عزوز مستندا على متكيًا بينه وبين الحائط مادًا رجليه في وسط السرير.. استوى في جلسته وأرخى طرف اللحاف على ركبتيه ثم مسح شاربه الكث وحك جبهته بأطراف أصابعه وتنحنح بعدها قال:

يا محفوظ الراي والسلامه عمك عزوز: كانت الأيام الأولى كما يروي لا يدري ماذا دار فيها فهو شبه غائب عن الوعي، قضى جزءا منها في الكومة، والأيام الأخيرة في العناية، ثم أصبح يتحسن حاله تدريجيا حتى استفاق تماما، ونقل من حجرة العناية إلى عنابر المرضى الجماعية وكل تحت العلاج حيث ان جروحه كانت بليغة وأجريت له اكثر من عملية تجميل في أجزاء كثيرة من جسمه، كانت الست شهور الأولى كلها وهو في حالة مرض تطلب المراقبة والعلاج، أما الست الشهور الأخيرة فكانت تمديدات يحصل عليها بفضل كبيرة السوريلات كما سبقت الإشارة، لأنها تريد ذلك كما سيحكي عزوز فيما بعد.

كانت السوريلا - محور حكاية عمكم عزوز - في تقديره كما يقول، قد تجاوزت الثلاثين من العمر، وكان هو في العشرين- قال: كنت في الأيام العشرة الأولى وأنا بين الكومة والعناية لا أعلم ماذا كانت تفعل بي، فهي كما عرفت منها فيما بعد كانت تلازمني ليل نهار، فهي تقيم

داخل المستشفى مع بقية السوريلات في سكن خاص، وباعتبارها رئيستهم كلهم كانت قد قسّمت العناية بالمرضى بينهن وكنت أنا من نصيبها.. حينما بدأت أخرج من حالة اللاوعي تدريجيا كنت أشعر بيدها تتحسسني في أماكن هي في عرفنا جميعا: من المحاشم عندما كانت تقوم بتنظيفي، وكنت أحاول التملص منها بافتعال حركات أداري بها ما أعتبره عيبا، لكنّي كنت أسمعها تقول: إزّوز فو.. ثم تكمل كلامها بلغتها الفرنسية، أفهم منه إنها تطلب مني عدم الحركة والكف عمّا في نيتي فعله من عدم تمكينها من أداء مهمتها.. كان هذا عندما كنت في نصف وعيي.. أما وقد أصبحت في كامل الوعي، فقد كنت في البداية أرفض نزع لباسي الداخلي السفلي (الفرعه أو الصليب) بشدّة، لكنها كانت تستميت في سبيل نزع كل شيء يسترني قائلة لي كما أفهم في البداية من لغة الإشارة التي تخاطبني بها، قائلة ما معناه: هذا عملي لا يجب أن تتدخل فيه، تبدئ رغبتها هذه أو بالأحرى إصرارها وهي تتظاهر بالجدية والتصميم على ممارسة عملها بصورة متقنة ليس إلا، وهي في واقع الأمر راغبة في استباحة محارمي، ويتبيّن لي أنها تشبع رغبة ما في نفسها أو إسكان نداء جسدي معين. أما أنا فقد كنت في البداية أكاد أذوب خجلا، كان العرق يتصبّب من ظهري، وكنت أغض البصر حياءً، وأنا أراها تتعمّد أن تلمس مني ما أراه خاصًا بكل إنسان، ولا يجب أن يستبيحه أحد، إلاّ في إطار علاقات خاصة ومسموح بها عرفا وشرعا.. كنت على فطرتي أو قل تربيتي المحافظة، وكان الخجل مسيطرا

عليّ بحكم العيب الذي يحكمنا في مجتمعنا الإسلامي.

قال: كان يحدث هذا عندما كنت ملازما للسرير لا أقدر على مبارحته نتيجة الكسور والجروح التي انتشرت في أغلب أجزاء جسمي، فكان حمّامي اليومي الذي تصر عليه السوريلا الثلاثينية، يتم بواسطة المسح بالقطن داخل حجرة العناية، ولجهلي باللغة كنت أستسلم لما تفعله بي هذه الشبقة التي رمتني بها الأقدار، لذلك كان لا مناص لي من تسليم أمري لما تريد، فهي تمارس عملها الذي يمليه عليها واجبها كما كنت أفهم من إشارتها ولكنها تتعدّاه إلى ما تبغيه حواسها الداخلية التي كنت أقرأها على وجهها وفي اضطرابها الجسدي عندما لا تتحكّم فيه في لحظة ما.

كانت تتفقدّني بين حين وآخر حتى بعد أن تكمل واجبها معي وتذهب إلى آخرين غيري من المرضى، وعندما ينتهي دوامها الرسمي وتذهب إلى محل سكناها سرعان ما تعود بعد تناول الغذاء أو العشاء بحجة مراقبة مرضاها. وتخصّني بأطول وقت من الزيارة، تجلس على كرسي بجانبي وتحاول محادثتي بلغتها قصد تعليمي بعض الكلمات الضرورية في الحياة لنتفاهم معا، فهذا في صالح تمريضي كما قالت، وكنت أنا بليد الفهم لا أستوعب بسرعة ولا تحتفظ ذاكرتي إلا بنسبة قليلة من الكلمات التي كانت تردّدها أكثر من مرة محاولة تثبيتها في ذهني، أفادتني هذه الحصيلة الضئيلة من التعليم في فهم ما تطلب مني أو ما تريد إيصاله إلى كرسالة نصفها بواسطة تلك الكلمات ونصفها

بالإشارة التي صرت أستوعبها بسرعة، وكانت هي تزداد إصرارا على منحي دروسا مجانية تطوّعا منها ورغبة تظهر في ملامحها، حتى أصبحت كأني تلميذ عليه أن يتقبّل منها الدروس في مواضابة وحضورا تاماً، وصارت فرحة بما أحرزته من تقدم يومًا بعد يوم، حتى أخذت تردّد على مسامعي كلمة: برافو.. برافو كلما أتقنت نطق كلمة من الكلمات أما حين أفاجئها بها في اليوم التالي محاولا تركيبها في جملة مفيدة، فإنني أنال جائزة: علبة من الشيكولاتة أو علبة سجائر فاخرة، تأمرني بإخفائها - السجاير - لأنها ممنوعة وتقول دخنّها فقط حين تخرج إلى الحديقة للتريّض - هذا في الأيام التي تماثلت فيها للشفاء.. كانت هذه الأخت كما يسمونها قد أبدت لي اهتماما خاصا منذ أن جئت في سيارة الإسعاف وأنا فاقد الوعي وجسمي ينزف دما وبعض أطرافي بها كسور مركبة، وكانت خلقتي من ربّي (مقلوبة) وزادتها الجراح والدماء التي شوّهت ملابسي بعضها تيبسا وبعضها ما زال طرياً : زادتني سوءا وقبحا، ومنظرا مرعبا، ولعل كان اهتمام هذه المرأة بي مثقفة ورأفة أملتها عليها مشاعرها الإنسانية وإحساسها بمأساة إنسان سبّبها له إنسان آخر، في ميدان الحرب، التي يشعل فتيلها آخرون كبار يتصارعون من أجل التفوق والغلبة، ليتحكموا في الشعوب ويلعبوا بمصائرها، ويقتطعوا الأرض وينهبوا خيراتها، ويتوجوا رؤوسهم بغار الزعامة والنصر.

تحلّقت مجموعة المرضى المتقاربين بالأسرة في عنبر الإيواء رقم ٢ حول عمك عزوز، ودار معه الحوار الأول في أول ليلة ابتدأ فيها بسرد

ذكرياته في المستشفى العسكري، الواقعة في شمال شرق فرنسا قريبا من الأراضي البلجيكية، وقريبا أيضا من ميدان المعركة، قبل أن تكتسح الجيوش الهتلرية الأراضي الفرنسية.

كان صمّه: شابا في العشرين من عمره له دالّة على عمك عزوز حيث كان يسخرّه في شئونه الخفيفة حين تغيب الممرضات ولا يجد من ينذ له لخدمته، كأن يقدم له الماء للشراب أو يسند له مخدته وأحيانا يشعل له سيجارة خفية عن عين الرقيب فالسجائر من الممنوعات داخل العنبر.

- صمّه: قصر لنا الليل يا عمي عزوز بحكايتك مع السوريلا لما كنت في المستشفى العسكري.
- هي غير حكايه؟! هي حكايات.. وسوريلات.. موش وحده بركه
- تبو نسمعوهم أكل؟.. شن وراءنا.. لا حرث لا زرع.. ولا معيز نرعو بيه.
- خطرت على المعزة يا صمّه ودي.. أخزر أش صائر فيهم بعدي؟
- لاي ما عندكش شناته : (اصغار) يسرحو بيهم؟ والا سرا؟
- عندي غشير واحد دخل المكتب : (المدرسة) يقرأ بيوليلى (أبوكا، حاسب روحه.. ما يحسابيش روحه كعلاف زي باباه.
- واحد من الجماعة: برايه يقرأ.. بالك أولى طبيب والا محامي: (ابوكا).
- في الريح يا بن عمي.. والله الا كعلاف ما أجيب أربعه صوردي.
- صمّه: والمرا يا عمي عزوز؟ ما تسرحش بالمعزه؟

- حتى هي وحده درويشه.. مذهوبة شيره.. لا أدبر لا تاخذ دباره .
- صار الحمل أكله عليك أنت يا عم عزوز.. ما تماشي واحد أيعاونك؟ قال واحد من الجماعة.
- أنا وحدي.. كان أنغيب عليهم شهر ايموتو بالشر.. أنا نخدم اللي إجي قدامي.. مرمه أنقي الخضره.. نصطاد الحلوف في شيرة عن دراهم. وساعات أنديرها على الزراع.. حتى نخنب.. لكن ما انباتشي بلاش.
- الخنيبه حرام يا عم عزوز.. حاجه ماهيش امتاعك ما عندكش فيها حق.
- قال: صمّه أماله تبيني أنبات بلاش.. الخنبه للجعان ماهيش حرام.. أنا نخنب باش انتعشى.. مش باش نشري جبه حرير والا نبني دار.
- صمّه معلهش يا عمي عزوز غير ما تخنبش من الزوّاليه.
- والزوالية أش عندهم خلا دار أبيهم ما هم كيفس.. كان باتوبلاش يخنبو.
- صمّه: تو حتى انت يا مولدي ما القيت ما اتقول.. الراجل بيحكيلنا على غرائبه دخلّته في هد رزه أخرى زايده.. أحكي؟ احكي يا عمي عزوز.
- آيه.. بالله أش بنحكي.. خرّاف ليه عشرين سنه، وفيه حتى اللي ما ينقالش.. الواحد يتحشم منه.. هدرزه أتضحك وتبكّي.
- خبرّنا على اللي أضحك.. اللي أبكي ما ناقصنا دموع فينا اللي اليوم شهرين غايب على الشناته والمدام. قال: واحد.
- اي دراس عمي عزوز.. ضحكنا . خلي أنفرهدو أقلوبنا أطبقت في

هالمستشفى اليوم قداش يوم، قال: آخر.

- صمّه: حكايتك مع السوريلا وراس عمي عزوز.. عما ودهالنا.. ربي اخليك المدام.

- مدام قال! أش من مدام يا ولدي.. أنا عندي مدام؟!.. المدامات عند أهلهم.. قاوريات زعر.. روميات شقر.. الوحده أتجلى ميات هم وغمّه.. الوحده تشبح في رقبتها الما.. نخها مع الغزال تربح. قالك مدام . تشبير عندي هي.. دوب ما أتبان من الوطي.. والعيون وحده تصب وحده تلقي في الزيت.. وجه مشوم أحرف.. غير الله غالب.

- صمّه: بالك يا عمي عزوز.. صار لك زي اللي شبح قمح الناس بزّع شعيره.

- شنوه قمح الناس؟.. أش تحب تقول؟

- صمّه: شبحت السوريلا: قادريّ÷ زعره.. تقول بردقانه طمحت في صدامتك.. عمّتي امباركه.

- خلوظ.. يا صمّه خلوظ.. عمتك امباركه ما أتجي حتى نخالة الشعير.. شن جابها للقمح.. أبّبْ.. ريت هالبدرنّه.

- الجميع : يضحك.

- واحد: الله يهديك يا صمّه.. بر بي خلينا نسمو حكاية السوريلاّ.

- واحد: صلو على النبي.. أعطونا نسمع.

- صمّه: أيوه يا عمي عزوز كيف صار لك مع جانيت.

- عزوز: حيّرت عليّ المواجع يا شنتي الشناته.. جانيت هاذيك جنّه الله يكثر منها ويربحها.. وحتوى سوزي الله يخلف عليها.
- صمّه سوزي! حتى هي وحده أخرى؟
- أماله صمه وحده والا عشر.. المستشفى أكل مليان بيهن.. تخزرلهم من الصبح لليل يحومو زي الحمام.. ملائكة الرحمة.. الله يرحمه ولديهم حتى كأنهم أقورة كفر.. هم أيقولو راهبات ما يخطوش الدين لكن اللي طاحو بيدي.. لا دين ولا ملّه.
- واحد: سمّعنا يا عم عزوز.. الظاهر عليك عندك صرّه كبيرة.
- هي غير صرّه ؟.. قال صرّه وسكت.. عندي صرائر وغراير.
- صمّه : أش أش... السمّع يرحم ولديكم.
- عزوز: نغلقوا الشكاره لوله.. يلتفت إلى صمّه - هذا كله من هالشنتي صمّه هو اللي (قوّد) علي: كلمة تقال في الأوساط الشعبية التونسية بمعنى أشار علي، وهي بريئة من العيب في مفهومهم - هد رزت عليه مرّه بشّع بي الموندو.
- صمّه: توّ هنا فاش قام يا عزوزي.. أنت كبيرنا أحكي زهينا يرحملك الولدين.
- ونحكي.. غير ما تضحكوش من عمكم عزوز.. راني في لول كنت غشيم.. رباية هيشو.. عايش مع الهوايش.. لا أنهش لا أنش.. مكوخر.
- واحد: هذا في لوّل.. وبعدين ؟

- أنطلق عمك وهات ما عندك.. أعمى وطاح في دشيشه.
- على ما قال صمّه.. اللي انطلقت فيه ما هوّاش دشيشه.. كسكسي ولحمن مسلان علوش ومعاه داقره رائب.
- هو خبرّكم على اللي ثمه والململّه ؟؟.. أنا عارفه صدره ما أشد سر.
- صمّه: أنا شن شدّيت منك؟ برشه خبر ما أنجمش نعاوده كيف ما اتعاود فيه أنت.. أنت عندك ريق حلو يا عزوزي.

الليبي الطرابلسي يشارك في الحوار لأول مرة: وزي ما أيقولو الكلام إخرّبه علاّله.. يوش كيف كيف اللي عاش، واللي أسمع سمع.. فرق بين السمع والمنظره.

عزوز: صدقت الكلام أخبربه اللي أيحاوره اللي ما هوش عائشه.

صمّه: احنا قلنا نسمعو منك.. وأنت ما هوّاش هاديك ربي.

عزوز: يهدينا ويهديكم جميع.. أسمع يا سيدي ابن سيد منير تبي نبدأ؟ من جانيت والا من سيزي.. هي أسماها سوزان، لكن أعيطولها سيزي.

واحد: خبرّنا عليهم جملة.. من جانيت لسوزان وما بينهم.

عزوز: كان بنقول عليهم جملة نقعد شهر ما انكلمهمش.

واحد آخر: غير خلّو الراجل يحكي يا جماعة.. آش بيكم ما تسكتوش؟!

عزوز: إيعاد اللي أنخبر فيكم.. وما عليكم جحيده وتعيشو وتسمعوا.

زي ما قلت لكم بكري.. لما وعيت.. وخرجوني من العناية تُقَبّطط

بي حشاكم.. تولت أمري - جانيت.. بعد خَطَرْت.. قرابات ساعة والا ساعتي، تروين كانت تُسوف جتني وقالت لي هيا للحمام.. حسب ما فهمت منها تبى تقومني.. بديت يا باب نفهم شوي من لوغتها.. قلت لها : مش قبل تسمي في بالقطن هوني؟!. قالت: نو أنت أزوز ما مريض.. أنت برشه باهي .قلت في خاطري: شني الدعوه هاذي؟.. كيف بتجليني سحتوت والا كيف أندير.. تبي الحق تركك.. بديت أنقيم في أعيوني ونواطي وجاتني غصرة العرق.

- تآله أزوز هيا الهمام.
- يا ودي كيف دوّة الحمام هاذا؟! نضت بالسيف علي زي من أكرفي على وجهي.. جاب الله عندي كلسون: (فرعه، صليب، لباس داخلي)
- هيا فيسح أزوز.
- قضت أنحب فكره.. من بعد قلت في خاطري أنا علاش خائف؟
- هوابي الحق انا متحشم من شكلي اللي زي العباثه من بعد قلت هي اللي اتحشم مرا مش انا الراجل.. خش وان شا الله تتذ.. جابت تقود فيّ زي العلوش اللي بيذبحوه.. أشلب خشينا وسكّرت الحمام من داخل.. وين بيهرب عمك عزوز؟!
- نهي أزوز.. وأخذت تنزع هاكي الهركه اللي مغطيتها من رأسها لقدمها بعدين نحت هاكي القندوره اللي على رأسها.. يا رسول الله شني الدعوه هاذي تلفتت.. القتني قاعد أميم زي الجمل اللي

خارباته سليمه.

- أزوز (بحده).. نهي نهي فيسع.
- صَبَرَ ما نحت الجلبات البراني بانو سيقانها بيض زي الجمار وشعر رأسها أصفر.. ونشبح في وجهها بدي يتغير.. ربي يستر.. جتني وانا واقف وعقلي مش معاي، ونحت مني الكبابيط اللي على ظهري: سروال وفيسته متاع المستشفى.. كيف أدير عمك عزوز.. ظبطط روحي على هاكي الكلسون وبديت نرعش ذيل من الصقع وذيل من الحشم.. وقعدت واقف زي الصنم.
- أزوز نهي كل شيء.. نو كلسون، والتفتت عني نشبح فيها تنحي في كل شي.. يا سيدي محرز أشنو هالدعوه اللي جابها لي ربي.. تبي الحق ماتت روحي.. بَرَمْت وجهها شيرتي وجت تبتسم.. شن بنقولكم؟! أدّز في شي قدامها.. الله لا يروعك وين ما زال تلقى عمك عزوز؟ لا من الدنيا ولا من أهلها.. وقفت دقيقه قدامي.. ربنا كما خلقتنا.. قربتني شدّت الكلسون.. نهى أزوز.. همّام.
- عزوز: في خاطري.. يا أعطني أجدام وسود ليام.. توّ هذا عمل؟! الحاصل بديت نتلاو أنا وإياها على هاكه الكلسون.. هي تجبد وانا أنرد.. أنحب نكره نجاته.. بديت أنلز في أفخاذي على بعضهم زي ما أتقول أندرق.. هو ما أهناك ما اندرّق.. مات كل شي.
- هي : تفتح الدش أمصقع خلعتني.. خلطاته بالسخون.. جابت

زعمنتك الصابون والليفه.. وبدت تدهك في عمك عزوز... تبى الحق أستحسنتها.. بديت نرطاس: يأخذني الهدوء.. وللآني عقلي شوي.

- دويش.. كويس أزوز همام؟
- فين جاني لكويس.. فرقه الكويس.. ما زلت شرّاد.
- دولش.. هلو - وبدت إيدها تزحف نحو المحاشم.. وأنا تنصر ذبت في جرودي.. يستدرك فين جوني الجورد.. زبنطوط زي ما جابتني أمي.. لا حول الله.
- هي: تتمادى في الاقتراب من الخصوصيات.. ترفع عينيها في وجهه.. يراها تضطرب.. ولت ترعش زي جريدة النخلة في الريح.. تحرّك الدمار لزرق.. جاب ما كان غايب.. بدي عزوز عندك يصتفق.. حل عينيه في كل شيء.. صدر يخلع.. رقبة زي رقبة جدي الغزال.. بطن تقول عام ما ذاقت نعمة.. شعر أصفر مالي الحجر (كاثوليكية المتاخذه).. وين أتقابلني اندوخ.. أوين تعطي بالقفا معادش تلقى في عقل.. صار اللي صار من اللي انودك أنت يا صمّه يا حلوف.. أوهابه هابه إن شاء الله زرعنا صابه.
- كنا جميعا نتابعه باهتمام وشغف، وقد حرّك فينا الأحاسيس ونداءات الفطرة.. وتنادى بعضنا يحضر ما في خزينته الصغيرة بجانب سريره من عطايا وهدايا أحضرها لنا الزوار. واحد أحضر شيئا من تمر الدقلة، وآخر علبة شكلاته، وآخرون كل أحضر إلى عمك عزوز

شيئا، سجائر،، وقنينة عطر والفقير منا أحضر أمواس حلاقه وصابون حتى ضاقت خزينة عمك عزوز بما دخل إليها من عطيات.

- أكمل عزوز حكايته الأولى مع جانيت، وكان الليل قد انتصف، توزّعت الجماعة على أسرّتها في عنبر ٢. أستغرق حالا في نوم عميق، أما باقي الجماعة فقد تزوّد كل منهم بحزمة من أحلام اليقظة، أرقته وأطارت النوم من عينيه، فجنحت به الخيالات والأوهام إلى بعيد، ظل كل واحد تقريبا، وخاصة الشباب مثل صمّه من هو قريب منه بالسن، يتخيل مشاهد حيّة عاشها عزوز مع جانيت، ويتمنى أن ترمي به المقادير في يوم من الأيام إلى هذه البلاد وتلك المجتمعات التي كان يصفها عزوز، ويضفي عليها هالة من الحسن والجمال والحرية، حتى لكأنها دنيا أخرى غير الدنيا التي يعرفها كل منهم، وهم غالبيتهم من الجماعات الفقيرة ساكني البوادي والأرياف، جاؤوا للتداوي مجانا في مستشفى عام.
- كان صمّه يجاوره في السرير المولدي، الوافد من ولاية القصري، أما صمّه فكان من مطماطة إحدى بلدات ولاية قابس.
- قال صمة: وقد لاحظ زميله المولدي يتململ في سريره، وقد غطى رأسه باللحاف وفارقه النوم.
- صمّه: ريت عمك عزوز هالعباثه وما يطلع منه.
- صمّه لأمه.. نشهد ونعلم أنه راجل.. جابت المرا.. شبع في جد

أبيها.. الخلا والقلب في الدنيا.

- مش غير هيّ.. أنت في راسك غير هي؟!

- إن شاء الله واكل غيرها !!

- وغيرها وغيرها.. هو غير اللي قر بيهم ثنتين جانيت وسوزي.. هذا قدامك.

- حق والله.. سمعت ذكر سوزان.

- أنا اللي حكالي عليهم أربعة، من غير جانيت.. وشوف من غيرهم.

- صحة للتريس.. قتلك أمّه كابه على أقدامه : قبلت.. قدمه،

- غير غدوه في الليل جبّدله سوزي.. توّ يغلق الشكاره الثانيه.

- هو ياخد بجاهك أنت أكثر مننا أكل.. لكن ما عليك فيه توّ نعرف كيف انحرّك عليه.. عمرك ما أتجي لأيّ شخص طول وتقولّه هيا احكيلي على حاجه هيّ في خاطرك.

- حق.. سائسه أمسايسه، أو كان عندك بعد الغرائب في حياتك أجبدها.. توّ ينبق بروحه.

- صباحا وبعد تناول المرضى إفطارهم ومرور الأطباء المعتاد كل يوم عند الساعة العاشرة تقريبا، وعقب إعطاء الممرضات لكل منهم أدويته الخاصة به ما فيها الحقن في العضل وغيرها، ومنذ تلك السهرة مع عزوز، واضابت جماعته التي ربطها به صمّه على التجمع حول سرير عزوز، بعضهم يضع على عينيه نظارة واقية من الشمس

والضوء، وبعضهم يربط عصابة سوداء على العين التي أجريت عليها عملية، وهناك جزائري مقعدا على كروّسه: (كرسى متحرك) لأن رجله اليمنى مبتوره وعليها رباط وضمادات، وبإحدى عينيه شذية قنبلة أخرجت منها وأجريت له عملية على القرنية، وهناك الليبي الذي في آخر معركة جرت بين القوات الفرنسية والمجاهدين الجزائريين في الشرق الجزائري.

- ينادونه: الطرابلسي أيضا كان قد أجرى عملية على القرنية، كل هذا الجمع بعد فراغ المرضات من واجباتهم بخصوص التنظيف والمداواة، يتحلق حول سرير عزوز العباثه، علّهم يسمعون منه بعض الطرايف والنوادر وفكاهة الحديث، وكل منهم يتودّد إلى عزوز بالتحية الطيبة والتبجيل والاحترام، وكل يجود عليه بما عنده من أشياء وهدايا بسيطة.

- حين لمس عزوز من مجالسيه رغبتهم في مزيد من الحديث عن مغامراته في المستشفى العسكري حين كان جريحا.. تلك المغامرات أو قل الابتزاز الجسدي الذي كان يتعرّض له رغم أنفه، فالرجل كان مجبورا في أول الأمر، لكنّه استمرأ الفعل بعد ذلك وصار أحيانا يطلبه، ويتخيّر ممّن يطلبه، وحتى يرفض بعضهن فأصبح ينتقي التي تروق له، ويعتذر للبعض بحجج يختلقها عن استجابة نداء أجسادهن الغريزي، فيتركهن متحسّرات وأحيانا حانقات حاسدات حين يكتشفن أنها واحدة فضلها عليهن.

- حين عرف في عيون جماعته الجالسين حوله ما يرومونه منّه من حديث المؤانسة والترويح عن النفس قال لهم:
- لقد قرّرنا نحن عزوز العباثة، ألا نتحدث حديثا أنتم ترغبون في سماعه هو: خرّاف عمكم عزوز، أو السرجان عزوز، يستدرك - أنا لم أخبركم بأنني تحصّلت على رتبة (سرجان) في أول معركة دخلتها مع كتيبتي ضد القوات الألمانية على الحدود قبل إصابتي في المعركة الثانية وهذه خرافة أخرى سأقولها لكم بتفاصيلها، لكن ليس في الصباح، وقرّر السرجان عزوز، أن لا يكون الحديث فيما طرأ على العباثه عزوز إلا ليلاً فكما تعلمون: أن الخراف هو حديث ليل، حديث السهر، ويورد مثلا: «وحديث الليل زبده يطلع عليه النهار يذوب».
- استمعت الجماعة إلى اقتراح عزوز الواقعي، فالنهار دايما تتعرض فيه عنابر المرضى لمرور الأطباء، ومراقبة المشرفين وإزعاج الممرضات، وتحرّك المرضى من أسرتهم يحسب عليهم، وغير مسموح به إلاّ في حالات الضرورة، ثم إن عزوّز محقا في كلامه، كون الخرّافة لا تسرد إلا في الليل حين يطول السهر، وإن كان ما حدث لعزوز من غرايب الأمور ليس من الخرافة، فهو واقع عاشه بكل تفاصيله، إنما هو عدّه خرافة على وجه المجاز.
- استحسنت الجماعة رأي عزوز وتفرقت موزعة على أسرتها، وظل فقط صمّه ملازما له، لأنه من جهة هو مندوبه بالاتفاق مع كبيرة

المرضات في خدمته وتقديم ما يحتاج إليه باعتباره ملازما لسريره إذ به كسور مركبة قديمة من أيام الحرب حين جرح في الجبهة على الحدود، خلفت له عرجاً دايماً، ومن جهة أخرى كان صمّه يضبط مواقيت (الحرابش): حبات الأدوية، التي قررها الطبيب لعزوز مقسمة بين الصباح والمساء وفي الظهيرة، فهو لا يغادر سريره - لعزوز - إلا وقت النوم، لذلك كان صمّه يسمع كثيرا من أخبار عزوز ومغامراته وجولاته في المدن الفرنسية حين يحصل على أجازة قصيرة أو في أيام الأعياد الوطنية لفرنسا، فهو قد زار باريس العاصمة، وديجون في الشرق وطولوز في الجنوب، وذهب إلى ليل شمال غرب فرنسا القريبة من بحر المانش، أخذته إليها جانيت في إحدى عطلات رأس السنة حيث قضى أياما وليالي عند أسرتها: أمها وأبوها وأخوها الصغير الذي يدرس الباكوف ي مدرسة البلدة، حفظت ذاكرته ذكرياته جميلة عاشها في جو عائلة جانيت، وتمتع بمناخ ذلك الريف الفرنسي الجميل من ضواحي مدينة ليل، حين أخذه والد جانيت رفقتها وأمها، في عربة (كارو) يجرها حصانان إلى مزرعته الكبيرة القريبة من البلدة، هناك شاهد حصاير الأبقار المحلوب، والعجول المسمنة التي كانت تربى في المزرعة كذلك حضاير الخنازير، وبعض الأغنام وخيول تربى من أجل السباقات، شاهد أيضا مقسمات المساحات المزروعة بأشجار العنب وبقية المزروعات الموسميّة كمزارع الكرنبيط والبنجر وباقي الخضروات.

استمتع عزوز كثيرا بتلك الصحبة العائلية التي صاحبته فيها جانيت وكان إنفرادها به بعيدا عن منافسة الآخريات من راهبات المستشفى له طعمه الخاص أما هي فكانت أكثر منه فرحا ومتعة. فهي الآن تملكه وحدها، وتمارس معه حياتها الطبيعية كأنهما زوجين، فقد انفردت به في جناح منعزل من بيت العائلة الكبير، بحجة أنها تمرّضه وتقدم له كل الخدمات التي تقدمها له في المستشفى، فهو ما زال تحت العلاج، وما خروجه هذا في هذه الزيارة إلا ضمن برنامج بأمر الطبيب المعالج، وما الطبيب إلا جانيت كبيرة الراهبات.. فهي الطبيب المداوي.

- عاد عزوز من تلك السياحة اللطيفة التي قضاها في تلك المدينة الصغيرة نوعا، الخالية من ضجيج المدن الكبرى وجوها الخانق، وكان أجمل ما فيها خروجه كل يوم تقريبا مع عائلة جانيت، وهم يركبون جميعا عربة الكارو، التي تجرها الخيول في مسالك ممهدة بين المزارع والغابات وقضاء اليوم كاملا في المزرعة الكبيرة التي تتنوع فيها المفروسات والحيوانات، وكم هو ممتع ذلك الشواء: (القريل) على نار الحطب، غير أن عزوز تمنّع في بادي الأمر عن مشاركة العائلة في تناول الشواء من (كتلات) الحلوف وشراب النبيذ المعتّق وكلّه من إنتاج المزرعة ليلة عيد ميلاد المسيح، كما هي عادة العائلة بمناسبة العيد، وكل العائلات المسيحية من كاثوليك وبروتستانت خاصة في مثل هذه المناسبات.

- لكن جانيت أقنعته بوجوب مشاركة موظفيه في عيدهم ولو مجاملة على الأقل بمقدار قليل من الشراب والشواء. فهو الآن صار يفهم كثيرا من مفردات اللغة وخاصة ما يتعلق بضرورات الحياة، وتعلّم شيئاً من الإتكيت من خلال ما تفعله جانيت وتشير به عليه.
- قال عزوز يخاطب جانيت: بما عنده من فردات اللغة.. التي تعلمها منها.
- أنا مسلم ولحم الخنزير حرام عليّ وكذلك الخمر.
- صحيح أنك رفضت الخمر حين كنا نقدمه لك في المستشفى لكن لحم الخنزير كنت تأكله.
- أنا أكلت لحم الخنزير؟!
- نعم كنت تأكل في السوب، ومخلوط مع لحم البقر في بعض الوجبات، وكم وجبة من (البفتيك)، كانت هي من لحم الخنزير كنت تأكلها.
- أنا لا أعلم،.. أن ما كنتم تقدمونه لي هو من لحم الخنزير.
- إن مطبخ المستشفى يقدم الوجبات للجميع مسيحيين وغيرهم وليس عنده تعليمات بخصوص أي نوع من اللحم ولا ما هو خاص بواحد دون آخر.
- غشيتوني الله يغشك.. لعنة الله عليك يا ملعونة قالها في سرّه -
- والآن عليك أن تأخذ هذا الجزء من (الكتلات) وهذا الكأس من النبيذ.
- هاتي جاي هو موش نايض، تعبير شعبي يتمثل به حين اليأس من أمر مفروغ منه لابد من وقوعه.

في تلك الليلة.. ليلة عيد المسيح حبّ عزوز كمية من النبيذ الفاخر المعتق الذي يُحتفظ به في أواني خاصة لمثل هذه المناسبة، كمية فاقت ما تناولته العائلة مجتمعة، وكانت جانيت تطلب منه عدم الإفراط في الشراب حتى لا يسبب له صداعا في الصباح، فكان يقول لها: هاتي جاي بلغته : «اللي رقد للستين يرقد للسيّه»

ومن لحم الحلوف كما يسميه يأخذ من المشويات على اختلاف تسمياتها: كتلات.. فيتيل.. كلاء وكبده، ومن الرقبة والفخذ ويعبء من قدح كبير مملوءاً نبيذاً، ويقول: «خلّط الحرام على الحرام يأكل بعضه.. وكمّل بجانيت.. هو أربى في أربى.. حرام زقوم ما فيه شك.

أنتش القوم: العائلة بكاملها جانيت وأخوها وأمها وأبوها وبعض من أقاربهم وأجوارهم كانو جميعا يحتفلون بعيد المسيح في صالة كبيرة في بيت والد جانيت، وكانت أنواع المأكولات والأشربة على اختلافها، والحلويات، وكانت أشرطة الزينة تملأ جوانب الصالة وتتدلى من السقف، والشموع مضاءة، والطاولات فوقها مزهريات الورود. بعد العشاء بساعة قام الحضور يرقصون أزواجا أزواجا، وراقصت جانيت مرة أخاها ومرة أخرى شابا من أجوارهم، أما عزوز فكان مرفوعا عليه القلم بسبب عرجه، وليس على الأعرج حرج، عند منتصف الليل أطفئت الأنوار والرقص مستمر.. توقف الجميع في قبلات طويلة أزواجا، وغير أزواج، قبل إطفاء النور بقليل اقتربت جانيت من عزوز، فلما أظالمت الصالة باغتته بقبلة شرسة وطويلة.

قال يخاطب نفسه سرا: دمّار أزرق ما سادها سداد. لا حشم لا جعره .

قالت : جانيت بون آن أزوز.. مون أمور.

رد: بون أن جانيت مون أمور.

صبّت في قدمه مزيدا من الشراب.. فهو في هذه الليلة يشرب بشراهة وكذلك يفعل مع جميع الميزات وأنواع اللحوم والحلوى وكل ما يقع عليه نظره. وهي تعرف أن لا فايدة منه في هذه الليلة فقد ثقل لسانه وارتخت أعصابه، لكنّه أصبح منتشيا تظهر عليه علامات السرور.

فقررت ولا مناص لها من ذلك أن تمنحه إجازة، وأن تتركه يأخذ من الشراب والطعام ما شاء له، وتعفيه منها تلك الليلة على أن تعوضها في ليالي أخرى، فالفرصة أمامها سانحة، حيث ستبقى حتى تحتفل برأس السنة الجديدة بعد أسبوع عند عائلتها قبل أن تنتهي إجازتها وتعود مع عزوز إلى المستشفى العسكري في شمال شرق فرنسا.

ظلت مهتمة به تلك الليلة، تراقبه عن كثب وتحادثه بمفردات اللغة التي تحصل عليها منها، وما يجمع عنه من أمر، تسعفه بالإشارة كما هو معروفاً، كانت لاهية معظم الوقت عن الحفل والمحتفلين إلا بمقدار ما تستوجبه منها طقوس عيد الميلاد - بعض الأفعال والتراتيل - فحتى الرقص لم تمارسه إلا مرتين مرة مع أخيها، وأخرى مع واحد من جيرانهم. كانت تحادث عزوز وتضحك وإياه بعد أن انحلت عقدة لسانه رغم ثقله من فرط الشراب، لفتت أنظار المحتفلين باهتمامها

بالرجل وملازمته أغلب الوقت، لكنهم علموا انه مريضا جاء في فترة للنقاهة وأن به عرج وهي مكلفة بخدمته وتحت إشرافها، فهو جريح في معارك الدفاع عن الوطن، هو من جنود فرنسا الغيورين من شمال أفريقيا الواقعة تحت الحماية الفرنسية، جندي تونسي الأصل، خاض معركتين ضد جيوش ألمانيا النازية، أظهر بسالة نادرة وهو يشترك في المعركة الأولى على الحدود، رقي على أثرها إلى رتبة (سرجان)، وجرح في المعركة الثانية، وتنتظره رتبة أعلى بعد أن تضع الحرب أوزارها بالنصر المؤزر كما كان يأمل الحلفاء.

معلومات أفادت بها جانيت أهلها ومنهم علم المحتفلون بهذا الأمر، فكانوا يكبرون فيه شجاعته في الدفاع عن الوطن كما يعتقدون فهو في نظرهم فرنسي الجنسية بحكم الحماية، ووطن فرنسا عليه أن يدافع عنها ويدفع دمه وقد فعل، لهذا قدّم له المحتفلون بعد نهاية الحفل كل ما في وسعم من أشياء ولو كانت صغيرة، شاب يقاربه في السن قدم له ساعة يده، وكهل قدّم له سيجارا فاخارا من صنع كوبا، وعجوزا ثريّة وقعت له صكا بمبلغ لا بأس به من المال، وآخر لم يجد شيئا سوى حزام بنطلونه قدّمه له على سبيل الذكرى، وفي نهاية الحفل غنوا له أغنية تشيد بمجد فرنسا. تفرّق المحتفلون في وقت متأخر من الليل، كل إلى داره، فأخذت جانيت عزوز إلى جناحها الخاص وهو يتكئ عليها من فرط الشراب الذي أعجزه عن المشي ولم يكتشف ذلك إلا بعد أن نهض بصعوبة من كرسيه الذي لازمه طيلة السهرة، وما أن وصل إلى الفراش

حتى ارتمى رمية متهالكة واستغرق في نوم ثقيل حتى منتصف النهار، سحبت جانيت سريرا فرديا من حجرة إضافية ونامت هادية بعد أن اطمأنت عليه.

حين نهض وجد أطرافها مرتخية وأعصابه مشدودة وصداع في رأسه، وجفاف في ريقه، وشعر بتعب شديد حتى كاد أن يسحب على رأسه الغطا ويعود إلى النوم، لكن جانيت أسرعت فأحضرت له كوبا من شراب غير كحولي منعش، ثم أتبعته بحبّة: (حربوشة) كانت تحتفظ بها في حقيبة يدها ذات مفعول ناجع في مثل هذه الحالات، بعدها ساعدته على دخول الحمام ثم أخذته إلى دش بارد وجففت جسمه بفوطة كبيرة معطرة وألبسته ملابسه وجلست وإياه في الصالون الصغير بعد أن وضعت على الطاولة طعام الإفطار بما فيه شرائح من لحم الخنزير مع قهوة مرة في إناء كبير. نظر عزوز إلى محتويات سفرة الإفطار، لاحظ تلك الشرائح.. ارتاب في أمرها، قال ما هذا؟! لعلّه لحم...

قالت: نعم.. وما الغريب في ذلك وقد كنت تأكله في المستشفى، وليلة البارحة أكلت منه كثيرا.

غشيتموني البارحة ومن قبل.

أزاح من أمامه شرائح اللحم وأخذ من باقي محتويات السفرة ما كفاه من إفطار الصباح.

وردت عليه فكرة رغم ثقل رأسه من تأثير الشراب، هواجس، تدور

كلها حول ارتكابه تلك المعصيتين بالذات، الخمر وأكل لحم الخنزير.

قال في نفسه أن أكله للحم الخنزير كان خطأه وللخطأ أحكام، كما كان يسمع من بعض الناس في (دوّار) أهله.. لكن الخمر شربه بإرادته صحيح هو شربه تحت إلحاح جانيت مراعاة للأوصول والإتكيت كما قالت لكن تحت كل الظروف عليه أن يمتنع عن ذلك، وحجته معه... دينه يمنعه لأنه حرام، وفيا حرّم الدين ضرر، وعلى كل حال الآن وقعت الفاس في الراس، ويتذكر فعله مع جانيت. وهذا أيضا حراما مغلظًا، لكن ما خطر على باله ولا سعى فيه، هي كانت البادية، بل هي التي أرغمته على ذلك. ألم يحاول التمنّع منها في المرة الأولى؟! ألم تضعه في حجر الزاوية وأرغمته إرغاما بحك سلطتها عليها فهي المسؤولة عن تمريضه وخدمته ونظافته أو ربما كان ذلك جزءا من التمريض.

ظل الرجل يحاسب نفسه ويبرر لها الفعل، فعل مكرها عليه في أغلب الأحيان. كيف يبرر لنفسه أكل لحم الخنزير وهو حرام بالنص كما يقول العارفون بأحكام الدين لأن فيه ضرر بالجسم؟! والخمر أليس ضرره أكثر من نفعه أيضا بحكم النص؟.. وجانيت والحياة معها كحياة الأزواج أليست من المعاصي الكبرى؟.. لقد غرقت يا عزوز غرقا لا نجاة منه إلا إذا رحم ربك.. ويستدرك حين يذكر مرة عندما ذهب رفقة قريب له وقد باع كل منهما نعجة من قطيع يملكه الأهل.. ذهب إلى بلدة قريبة من الدوار إلى محل عام (الكارتي) وفعلا الفاحشة نفسها التي يفعلها مع جانيت؟!.. لماذا يحرّم ويحلل من نفسه دون أن يسأل العارفين؟ ويراجع

نفسه فيقول: الناس كلهم يقولون هذا فعل حرام. يعود فيحاول تبرير هذا الفعل بحاجة الجسد إليه كما هي حاجته إلى الطعام.

يعيش في دوامة من الهواجس والأفكار فلا يقتنع بشيء على وجه اليقين فيحاول الكف عن التفكير فيما ينغّص عليه حياته، في الأثناء كانت جانيت مشغولة بشأنها الخاص، أولا دخلت لتغتسل كعادتها كل صباح، ثم لبست روبها البيتي وأخذت تفتح النوافذ من أجل أن تدخل هواء جديدا وتطلعت تبحث عن أشعة من شمس خاصة والوقت بدأ يقترب من فصل الربيع، فلم تجد إلا سحبا سوداء تنذر بمطر غزير، عادت بعد قليل تقفل النوافذ خوفا من حلول الهواء البارد ورذاذ المطر الذي يسبق هطول الماء فيما بعد فيدخل إلى الجناح ويفسد الفراش والأثاث. جاءت بعد أن أمّنت كل شيء وجلست قبالة عزوز الذي ما زال يصارع بعض هواجسه وأفكاره، الأمر الذي جعل جانيت تنكر سحنته فتسأله:

- ما بك أزوز؟ هل من شيء يقلق راحتك؟
- لا شيء.. أشعر بثقل في رأسي ووجع أيضا.
- بعد ساعة أخرى سأعطيك حبّة أخرى وستكون بعدها أفضل.
- هاته الآن ما دمت تقولين أنها ناجعة.
- نو أزوز.. بعد ساعة.. الدواء لا يعطى إلا بتعليمات مضبوطه.

ظل عزوز يحتمل ألم الصداع والغثيان وينتظر الوقت الذي تسمح

فيه جانيت بإعطاءه دواء قالت أنه يزيل الألم، لكنه عاد إلى هواجسه السابقة بخصوص شربه الخمر وأكله للحم الخنزير فينكر فعله ويخاف عقابه، ولا يذكر ما جرى بينه وبين جانيت وما زال، يعرف أنه أيضا حراما منهي عنه، فالزنا فاحشة وساء سبيلا كما يسمع من بعض الناس من أهل الدين والفضيلة، لا يذكر هذا الفعل لا لأن التحريم فيه غير وارد في النصوص، وإنما كان يقنع نفسه أنّه أكره عليه رغم أنفه أولا، ثم بعد ذلك تعوّده واحتياجه ومارسه رهبة ورغبة وحتى لا يحرج جانيت التي تقوم على خدمته وتهتم به وتقدم له العون، وهو الأعرج المريض، هكذا كان يبرّر ما فعله معها على أنه رد للجميل.

انتهت الأجازة التي قضاها عزوز في مدينة ليل وضواحيها من الريف الفرنسي الجميل، كانت بالنسبة له فترة نقاهة رفّه بها عن نفسه واستعاد كثيرا من عافيته، أما جانيت فكانت إجازتها السنوية تعودّت أن تقضيها مع أسرتها، تبدأها من قبل أعياد الميلاد بعشرة أيام وتنهيها بعد عيد رأس السنة الميلادية بخمسة أيام، فهي أجازة مدتها خمسة وعشرون يوما كل عام تقضيها في مدينتها مسقط رأسها (ليل) وفي مزرعة أبيها القريبة في تلك السهولة الخضراء.

عادت جانيت صحبة عزوز إلى المستشفى العسكري بواسطة القطار من باريس وحتى ديجون في الشرق ومنها إلى المستشفى العسكري الذي ليس ببعيد في الشمال الشرقي، وصلا ليلا فلم تشأ جانيت أن تدخله إلى العنبر مباشرة، فهي تعرف أن كثيرا من معارفه المرضى سيجتمعون

حوله للسلام والسؤال، وهذا يرهقه، فقررت أن تستبقيه ساعة من زمان في حجرة الاستقبال في سكنها الخاص بها وزميلاتها الراهبات. لكنها أخطأت فهؤلاء أكثر سلاما وسؤالا من معارفه المرضى، وحتى غيرة منها وحسدا لها، خاصة سوزي وأخريات لهن علاقة بعزوز وقد انفردت هي به هذه المدة الطويلة وفي حرية تامة بعيداً عن أنظار المستشفى.

تقاطرت عليه المتواجدات في السكن مهنيات بعيد ميلاد المسيح ورأس السنة الجديدة ومسلّمات عليه وعلى جانيت كبيرتهم التي غابت عنهم قرابة الشهر، كانت تقرأ في وجوههن تساؤلات مريبة، فبعضهن عارفات بعلاقتها التي تخفيها عنهم، وكانت بينهن أكثر من واحدة متورطة مع عزوز في غفلة منها، وهن اللاتي غارن منها، وكيف استحوذت عليه كل هذه المدة الطويلة، ولاحظت غمزات من هنا ولمزات من هناك، فلم تطق هذا الجو الذي سبب لها التوتر والضيق، لذلك قررت أن تذهب بعزوز إلى العنبر الذي يأويه مع بقية الجرحى، هناك حيث تباشر خدمته وتمريضه تحت إشرافها، وتراقبه وبالأحرى تراقب بعض اللاتي أصبحن تشك في وجود علاقة لعزوز بهن، كما لاحظت هي شخصيا، وأكدت لها ممرضة بينهما صداقة متبادله، فهذه الممرضة ظبطت مرة إحدى الراهبات اسمها سوزي تحيي بطرف خفي عزوز، وتشير له عن طريق الرموز - شفرة خاصة بينها وبينه - على أن يلحق بها في مكان لم تعرف - الممرضة - أين يكون، وبعد برهة انسل عزوز يتبعها إلى حيث أشارت.. هكذا

أخبرت الممرضة صاحبتها جانيت.

أصبحت جانيت تراجع نفسها بخصوص علاقتها مع عزوز، وظل فكرها شاردا مشتتاً، تتقاذفه هواجس شتى: الغيرة، الغدر، الإخلاص، خيانة الزميلات، سوزي التي ذكرت بالاسم، عزوز هل أغرته وارتكب معها الخطأ، كيف وجدها؟ أكانت أفضل منها؟ هي تقر بينها وبين نفسها أن سوزي أجمل منها وجها وأصغر سنا، لكن هي لا تملك جسدا متناسقا وممتلئاً كجسدها، وهي - جانيت - أطول، وليست كسوزي القصيرة، خفيفة اللحم، جعدة الشعر وفي صوتها خنق، ولابد أنها لا تجيد فن الحب؟ وتجهل مقدماته التي يحبها الرجل، ولا شك أن عزوز لم ترق له فلم يعاود معها التجربة وإلا لما صاحبتها إلى ليل وتركها، فلو كانت أفضل منها أوفي مستواها لتعلل بالمرض وبقى معها وهو يعرف أنني ذاهبة إلى أهلي بالتأكيد.

ظلت المسكينة تخرّص وتعلل، وتذهب بها أفكارها كل مذهب وازدات تفانيا في خدمته وحرصا عليه وشدّدت الرقابة أيضا، عاد عزوز إلى المستشفى بعد قرابة شهر غابه في ضيافة جانيت وعائلتها في مدينة ليل القريبة من بحر المانش، عاد وقد عاش في جو عائلي حميم وكانت معه جانيت التي أغدقت عليه من كرم الضيافة والاهتمام ما فاق كل حد، فهو المبجّل المكرّم، ينام في جناح خاص ويأكل لذايذ الطعام ويستمتع بالهوا النقي، يزور كل يوم تقريبا مزرعة المسيو جان بواسطة القربة التي جرها الخيول في دروب تخترق الحقول والبساتين الغناء.

كانت فسحة رائعة تضل في ذاكرته علامة لا تمحي بفضل رعاية جانيت واحتفاء الأسرة به،لولا تلك الليلة، ليلة عيد الميلاد التي اكتشف فيها أنه كان يأكل لحم الخنزير منذ ستة أشهر تقريبا أي من تاريخ دخوله المستشفى، ثم شربه للخمر الذي عبّ منه مقدارا ما تستهلكه أسرة جانيت في شهر كامل، فهو يطبّق المقولة الشعبية: «إذا كليت البصل كثر واذا ضربت العيل: (الطفل) بلّغ» لذلك كان عزوز ليلة عيد الميلاد يتبع القدح بالقدح حين علم أنه أكل لحم الخنزير سابقا، وأصرت جانيت على أن يأكله من تلك المائدة العامرة بأصناف منتقاة منه، ويشرب من خمر معتق معدا لهذه المناسبة بالذات، لذلك قرّر هو أيضا من جانبه وبعد أن وقع المحظور، أن يأكل من لحم الخنزير ما وسعت بطنه وأن يشرب من الخمر ما استطاع، وكان يردد في نفسه : «حط البلاع البلا ياكلي بعضه»، كان يأكل ويشرب ولا يتحرك من مكانه وحجته العرج الذي في إحدى ساقيه، وقد أعطاه الحضور العذر، وعندما دخلوا حلبة الرقص ظلوا يتطلعون إليه يفرح وهم يرقصون فكان يبادلهم الفرح بابتسامة عريضة ويرفع كأسه في صحتهم جميعا قائلا بين الحين والآخر بو أن بو أن ما معناه عيد سعيد ويباركه الرب كما علمته جانيت قبل أن تبدأ الحفلة. عاد مفعما بالفرح متهللا مسرورا، ينطق ملامحه بما في داخله فقد تورّد وجهه، وزالت من عليه كآبة المرض والحزن لفراق الأهل والأوطان، وظهر كأنه ليس العباثة التي كانوا يصفونه بها أصحابه مزحة وتندّرا.

كالعادة تحلق الجماعة حول سرير عزوز وأخذوا يتوسلون إليه في

أن يقص عليهم من سيرته الذاتية حين كان في فرنسا أيام الحرب العالمية الثانية. بعد أن أمطروه بالقبلات والسلام والاحترام والفرح.

يتنهّد عزوز من أعماقه ويقول: إييه.. ديما المطاري تطرا.. وديما الغراري يحصلوا في الحظرا».

يتنادي الجميع : سكوت.. سكوت.

هو الخبر ياسر منين نبدأ أنا !!.. حياة عزوز ما تعرفها كيفاشي... مرَّه في العالي ومرَّه في الواطي. « لا كان تسال . الدنيا والحال.. راهي عمّال وبطّال صمّه : أيوه يا خال.. بنو تحكيها ما زال.

ريت ما يطلع منه هاكشتبانه - كان صمّه قصير القامه.. قصير الكتف ريت بربي بيولي شاعر.

الجماعة يطلبون من صمَّه السكوت وهم يضحكون من تعليقات عزوز ويحثون عزوز على الاسترسال في الحديث، قائلين هيا يا عم عزوز أتحفنا بما عندك.

عزوز يطلب من صمَّه أن يشعل له سيجارة ويستوى في سريره والجماعة تمد أعناقها نحوه يترقبون سردياته العزبة التي تسرّي عنهم هموم المرض والبعاد عن الأحبة والأهل.

- عزوز : أشنو اللي تبو نحكييه ليكم اليوم.. يا محفوظ الراي والسلام يا محفوظ..

- واحد: اللي تحكيه باهي يا عم عزوز حكاياتك كلها عسل وسكر وعطر زاده

- واحد آخر: احكيلنا حكايتك مع سوزي.

- هاكي حكاية ما هي حكاية تبيلها ليلة كاملة.

- صمّه: قولها لنا على ليلتين.

- أسمع عادها لراي.. الحكاية ماتنقطعش.. لازم تكمل مرة وحدة.

- باهي أحكي اللي إجي قدامك.. اللي تخطر عليك قوله.

- ياسر اللي قدامي واللي وراي.. خلينا انكملو مالسبس.

- سبّس في عقلك.. وكانك تبي نفه عندي.. دخان سوخي وهي رتم.

- قال: واحد

- أَيّ والله.. يرحم ولديك.. كملت مني اليوم إجي عشر أيام وأنا فاقدها زي الشنتي المغطوم.. لاه ما قلت ليش يا ولد خوي أنا حشيشتي نفسه.

- ما نسمابكش أتنف.. غالي وطلب رخيص عندي منها ما يكفينا شهر.

- واحد: بعد تونا بحكاية السبس والنفه على حكاية عمي عزوز قال صمّه

- عزوز: بشويش عليك.. وحده وحده..خلينا انتكيفو في عقلنا.

- صمّه: أنتم كيفكم نفّه أو سبس.. وأحنا كيفنا حكاياتك يا عمي عزوز الله يسترك.

- عزوز: هانا جيناك.. غير حل وزنك.
- واحد :وفمك.. سكوت.
- عزوز: أنا ما حكيتلكمش على الطانقو اللي كنت فيه أمنين أد احمنا مع الجرمان على الحدود.
- واحد: احكيلنا تو.. هاذي المعركة اللي أنجرحت فيها؟
- عزوز: لا هاذي اللي علّقت فيها: (سرجان).. اللي أنجرحت فيها.. قول أدقدقت فيها هاذيك المعركة الثانية اللي منها ما عادش وليت للجبهة.. خشيت للمستشفى.
- صمّه: وتلهيت بمعركة مع جانيت.. أبى احكي وبعدين.
- عزوز: ريت هالفار؟ّ يسجل في كل شيء في هالدميغ اللي زي الحنضله.
- صمّه: حكاياتك أكل حفظتها باتاو والبا.. غير كملهم.. تو نبدأ نحكي فيهم للجماعة.
- واحد: غير خلينا من الهدره بتاعك يا صمّه.. خلّي نسمعو من عمك عزوز.
- عزوز: عاد اللي أنخبر فيكم.. كان الطائفو اللي أنا فيه كبير وقوي يا سر كراهب.. دبابات.. مدافع اتكسر فيها لبغول.. طقطاقات وسلاح من كل نوع.. وكنت عسكري عندي طقطاقة على ظهري.. منين كنا انعلموا : (التدريب).. كانوا.. يوازو في البغل وخوه اللي كيف أنا ويعلمو فيهم على الطقطاقه : (رشاشة أغراض عامة) إيعاد

كنا ١٢ عسكرية في سرية وحده، وكان ريس السرية بتاعنا وأحد سينقالي.. سَلَطْ طوله زوز ميترو مشاك لافيه لا حسن لا رحمه.

- ليش كان هو الرئيس.
- معلق قراضو: الرئيس عرفادم تحت السرجان والا فوق منه، والله ما نعلم.
- بعدين كيف صار؟
- صارت المعركة.. نار خشاكم من الأرض ومن السماء.. طيارات سود سرب بعد سرب أتقمبل فينا من فوق.. ومدفع يرمي علينا في السخط نار حمره منطلقه قدامنا وفوق روسنا.
- وهجمتو؟
- هجمنا الكانفو كامل.. في لول دحمناهم، بعدين حبسونا زاد علينا السخط من السماء.. بدينا نرجو لتالي.. صار فينا الموت بلا حساب وتيسّرت عساكر برشه.. هاكه السيلقاني السلط رئسنا حازت بينا وبينا النار.. تبي الحق كان يضرب بالطقطاقه ما باش إوخر خلاص.. ما كان من عمك عزوز الآشاش وفار دمّه وزود على النار حبة بميته.. قبل لا نوصل فيه أنجرح طاح جماته قاتلة.. ركبت طقطاقتي وبديت انجل فيهم.. تفاضو عليّ طرحت منه ما ندري قداش.. جماعتي تيسرو منهم أربعة والرئيس نحسابه مات.. حطيت الطقطاقه على ظهري وانسحبت.. وليت لتالي نسمع فيه يقولو ما

اتخلينيش.. رجعت.. رميته على ظهري والدم ينبع من صدره رزين المتاخذ.. قول وصلته للقيطون بتاع لسعاف كان قريب لكن ما فادش مات الراجل.. وليت للطقطاقات لمدتهم وحدة بعد وحدة. كان الزابط بتاعنا يشبح في بالحرايات.. قال للمراسلي بتاعه خوذلي اسم العسكري: علي أنا، هاذي هي المعركة اللي علقت فيها قراضو سرجان.. بعدين صارت المعركة الثانية اللي أدقدقت فيها نافس علي لغم حشاكم فترش ثلاثة من جماعتي.. وأنا جابوني بين حي وموت.. وزي ما ايقولو عمر السائبات طويل هاني نخبر فيكم باللي صار.

- صار فيك برشه يا عم عزوز قال: واحد من الجماعة.
- اللي إصير في عدوك إن شاء الله.. أنا من قال ما زال نشبح حي الدنيا
- واحد آخر: عشت وشبحت.. خير برشه وشر برشه.
- باودي ما اهناك خير.. أيامي كلها سود البعيد عليكم.
- صمّه : ريت ريت.. والخير اللي ريته مع جانيت شوي.. يا ريت نشوفو نصفه
- قداش هو.. عام؟! ومن اللي ظهرت من المستشفى اليوم عشرين عام وانت أنتقالب أنا وليام، وديما غالبتني.. ما ريت فيها غير الغم والهم السود.
- وسوزي يا عم عزوز؟ قال: آخر.
- زي أختها خذت أيامها ومشت.. هو تبي الحق موش غير سوزي

وجانيت هم برشه المتاخذات.. ربك يغفر ويسامح.. إن شاء الله العاقبه خير.

- الخلا والله والجلا.. عيش عشر أيام سردوك ولا عام دجاجه قال: صمّ.
- الحلو كان تعدى الحلق تنسى طعمته.
- لكن ديما تقعد تتفكره.. الباهي يقعد ديما باهي.
- رينا أيّام مع لوزفرنسا.. وتوّه ولينا على نبق تبريق.. بعد السيف علقنا منجل.
- كيف أجيك الوقت تعالاله يا عم عزوز قال: واحد
- أي يا ولدي ليام بخواتهم.. كل مرّة في حال.
- صمّه : ليام كان زهولك.. وتي عزاهم قبل ما يلفولك.
- عزوز: «كأنهم زهو بوزع مع زهوتهم واطلق إيمينك وانشكر وأثني وكان برمو ما ترتجي روقتهم كاسحات ما فيهم عروق محنه» قال الشاعر.
- واحد من الجماعة: تو ما القيتو ما اتقولو يا صمّه اتحيرو في مواجع الراجل ما سداشي تخرب في ابلادات الروامه وادقدق في الحرب خلوه يحكي على الباهي.
- صمّه: يا ريتها غربتي وتهريستي.. عام وهو يرقع زي العتروس بين عنايق الغزال وين لقاها هالبحبوحه.. أهو قالك بعد اللوز بديت أنقب في النبق.

- واحد: تو أنتم مشتو في هدره زايده خلو الراجل يحكيلنا على سوزان.
- سوزان يا سوزان نشهد وشهادة في الله أنها قالب زبده تمسها تذوب.
- الحق ينقال هو زي ما قال صمّه: يوم سرد ولا عشر دجاجه.
- واحد: «عيشة يوم في النوّار ولا عام في بر الجدب» قالو لوليس
- عزوز: سلمك فم.. كأنك من سوزي هاذي خير من سرعوفة أنياق.. الغدد والصهد.. شن نندب بنياق مع وحده تقول للقمر أزرقي والا نزرق.
- باهي احكيلنا عليها يا عم عزوز.. أش بيك تشوق ولا تذوق.
- كان نحكيلك تو أدير رجليك في غمرك واطب لونك من البحر غادي.. تنشد على الصنه.. اليوم عشرين عام حتى صنتها ما عاد تلقاها.. أو كان القيتها تو راهي فاتت الخمسين هي وقتها كانت أكبر مني بسبع سنين ونا تو نتلاف في الخمسين.
- صمّه: يلقى غيرها.. أصغر واطرى.
- عزوز: يلقى.. صمّه أكثر من الهم على القلب.. لكن تبيلهم بنداق.
- لا.. حتى هالزرق ما عندك فيه ما تقول.. من شبحة عيونه شبحتي فيه صيدة ما تريحش . قال: صمّه.
- ابي حق.. يبو صياد وين إمد أطيح.
- وسلاحه باهي.

- سلاحك غادي.. لسانك.. والا جيبك.
- وأيهم اللي ينفع أكثر.. اللي عنده جيب ما أخيب.
- صاحب اللسان إينقي.. لكن يطوال موحه.
- وصاحب الجيب يرمرم.. وديما لاحق بعاير.. ما يبطاش.
- أيهم اللي سلاحه خير؟
- صاحب اللسان إيلقط النقح.. ودائمات.. ماهمش مره وبره
- وصاحب الجيب؟
- ما يسواش.. يشرى في سلعة معروضة لكل حد.. وساعات بايره
- ايقولو اللي عنده لسان يركب حصان. قال: واحد
- صمّه: فرس والا حصان؟
- هذا كلام بالمعنى.. أنت ! صغير عليه قال: عزوز.
- زعمه يا عمي عزوز.. وراس رأسك الا فاهم كل شيء. غير لساني ما اهنينيش.. تو وحده زي سوزي يسموها حصان؟!
- واحد: يسموها فرس.. غير خلونا نسمع حكايتها.. وراسك يا عم عزوز خليك منهم.. احكيلنا.. رهم ما يسكتوش وخاصة صمّه.
- ونمكو شن بيصير.. هاذي حكاية ليها أكثر من عشرين عام.. يا لندري وين طاح بيها الزمان؟ نلقاه أنها قطعه.
- واحد: اسكتو يا جماعة.. الله يهديكم.

- صمّه: يهدينا ويهديك ويرحم ولديك.. أيوه يا عمي عزوز.
- عزوز : يخاطب صمّه: نت يا منتيز من الباب أخش حد حبيت نعمل سيقارو.
- صمّه: ما عليك فيه.. غير احكي.
- عزوز: هاذيك يا سيدي ابن سيد - سوزي - زبططنا مره داخلين للحمام أنا وجانيت.. تبعتنا من بعيد.. دخلت في الحمام اللي بحذانا.. همّ الحمامات بيناتهم غير حيط إدرق ابنى دم ومن فوق سقفهم واحد.. جانيت حدِ ما دخلنا بدت زي عادتها.. مداماش ربي حتى تفتح الدش باش أدير حس ويشوش السمع . وهي المتاخذه - يقصد جانيت - تموش زي القطومه هذا في لول.. بعدين أزيد عليها الحال ايدلي ابكا ودموع وعياط وحال الله لا يورك.
- صمّه: يقاطع.. الله لا يوريني ؟! يا ريته تو.
- واحد: اسكت يا صمّه خلي الراجل يحكي.
- عزوز: اللي صار سمعت سوزي كل شيء وعرفت النازلة لما عرفتنا كملنا حمامنا خرجت قبلنا أو ما بعدتش قعدت قريب تراجي.
- صمّه: أما حمامكم؟ هو أنتم درتو حمّام؟!
- عزوز: اماله خرجنا بجنابتنا ؟!
- صمّه: زيت هالطهاره اللي محافظين عليها؟! تقول ماشين بتصلو.
- عزوز: ريت ريت هالمنتيز الدنيا أكل عارفها.

- صمّه: أنا عارف الدنيا والدين.
- عزوز: اماله أش بيك ما تصليشي: والا زي الصردوك تزن بس؟!
- واحد: ديما وأنت.. وأنت اتقاطش يا صمّه.. خلي الراجل أكمل الحكاية.
- صمّه: هاني سكتت يا سيدي.
- عزوز: التي انحدت فيكم.. جينا ظاهرين.. لكن يا ودي باين كل شيء على أوجوهنا.
- صمّه: شنو اللي باين على أوجوهكم؟
- عزوز: أنت ماك ما تفهمشي.. اسكت خير لك.. سوزي كانت قريبه جت تبي روحها تباعد جانيت.. والعباثة؛: عزوز ما هو خشين برشه.. وحده شاءه منه أوحده شاده منه.. هي اكل غير باشي تقربني وتقرأ أوجوهنا.. بيكدت.. قول وصلوني للسرير. بعدها جاك ما كان غايب يا سي عزوز.. ولّت أتحوم زي الطيره من بعيد من ناحية خائفة من جانيت، ومن ناحية بطبني حيه بميته.
- واحد: وش صار بعدين؟
- عزوز: إيحه.. أجعلك فارح.. ما تعرفش المرا كان دارت واحد في راسها؟!
- صمّه: خبرنا بالتا والبا.. وزيد معاهم واو.
- واحد: انت بركتك اسكات.. بعدين يا عم عزوز.

- عزوز: تبي الحق حتى أنا عيني شبت.. بديت وين تتخوطم من شيرتي نحدف في الراذار.. ونعري شواربي على هالكشخه المشموه.. اترد لي هي بضحكة عيون زرق تقول فيروز.. وتفوت كأنها ما ريت شيء.
- صمّه: وجانيت وين غائبة؟!
- عزوز: سوزي شيطانه.. تغافلها لما تبدأ لاهية في حاجة تاخذ منها وقت.. منيهن تخرج للسوق والا تكون في الإدارة وتجي تسوف.
- واحد: المهم.. كيف اصطادها عزوز؟
- عزوز: قول كيف اصطاداته هي.. يا ولدي لا حبّوك ارتاح.
- تسحابها شيطانه شوي؟.. دبرت دباره ما تخطر على حد.
- واحد: كيف؟
- عزوز: قالت للسوريلات اللي معاها: تقديرا للأبطال الذين دافعوا على الوطن، ودمهم سال على التراب واجبنا نكرمهم.. هاللي حالتهم تحسنت ويقدرو يمشو على رجليهم.. واحنا كنا خمسة والا ستة اللي حالنا باهي.. قالت يوم كل أحد، كل وحده تاخذ واحد وتخرج بيه أتفسحه وين يبي.. للسينما والا القهوة والا الحديقه العامه وين فين الملاهي.. المهم اتغير لهم الجو.. هذا حقهم علينا.
- صمّه: قسموكم بيناتهم.. وأنت مشيت معاها؟
- عزوز: اصبر أتنال.. جاءك بالحديث.. جانيت كانت معاه وهي من قبل أتشك فيها.. وافقو اكل.. إلا هي سكتت.

- قالت واحدة منهم: نضربو القرعة كل وحده تاخذ قرعتها.
- سكتت سوزان.. قالت جانيت: القرعة.. صار من القرعة. خطيت أنا سوزان.. جت قرعتي مع وحده من مالي عبّاته كيي.. يا رسول الله. طول مشت بي للحديقه وحططنى على لوحة وضلت تشبح لي من بعيد.. ما انطولك هدره ثالث أحد كيف طاحت قرعة سوزان علي.
- صمّه: حصلت.
- عزوز: أنا اللي حصلت.
- صمّه: يا ريتها حصلتي.. وما عادش نسلك منها.
- عزوز: حصلت عدوك.. نهار كامل وليله.. وأنا مالي ما هو حال.
- واحد: يا ريته حالنا.. أمك راضية عليك.
- عزوز: دمار أزرق يا أوخييني.. عمري ما ريت خلوه زيها.. دوره وتقول هيا.. والعباثه جاب ما عنده.. لين مر لربعة.. معاش بيها وين.
- يا سويدي غير آمته يطلع النهار.. لكن.. نشهد ونعلم أنها طرف من اللي نودك.. مش انت يا صمّه يا حلوف.. أنت ما نودك إلا المعزه تسرح بيهم.
- صمّه: ليه عليك يا عم عزوز.. ما نستاهلش؟ مش زي أوليدك؟
- واحد:أقجم عليك يا بهلول.. عزوز أودك كل خير.
- صمّه: سمعتوه شن قال.. باهي باهي.. تو ما زال تلقاني.

- عزوز: انا ما قلتكمش وين هزتني؟
- واحد: قول - لابد للهوتيل.. وين بتمشي بيك.
- عزوز لا وانت الصادق.. هزتني لدار: (حوش) من اللي أنودك وفيه بنت الحلال.. دار أتحل العين المغمضة.. بيوت نوم.. وصالونات وكراسي من كل لون وشكل أمرايات وين تمشي تلقى إمرايه حمام أكل رخام الحاصل دار فيها كل ما إسمني الفم واللسان.. دخت فيها.
- صمّه: دارها؟
- دار واحده صاحبتها قالت غنية ياسر ديما أمسافره تجول في الموندو تعرفو وين خشيت في الحمام تمنيت نرقد فيه.. هاكي الصوابين والغط المعطرة.. والميه اللي أتفج ساخن تقول بتنقب ظهرك.. الحاصل.. تقول انا نحلم.. خرافه وخلاص.
- أو سوزي وين؟
- هوينها اتنط زي عناق الغزال.. متفارقه هي وحوائجها يا ودي ما ريتهاش لابسه حاجه نهار وليله كامله..مره مره أتحط في بشكير وين تظهر من الحمام.
- صمّه: وشن تغديتو وتعشيتو؟
- إحنا لاهين بماكله؟ الماكله أشكال وألوان جابها شنتي من المطعم..
- صمّه: لابدّه خذيت كويسات.
- شني كويسات ؟! قربعات ثلاث دبوزات على العشا فينو من غير

آخر شي أصفر وشي أبيض.. فيه حتى واحد أسماه جن قالت.. قلت في خاطري: أنا مجنون حتى بلا جن هاتي الربي جاي جن والا عفريت.

- اللي ما يقرعش للتريس ما هو مش راجل.. صحّه ليك يا عم عزوز.
- والله ما هي فلاحه من عملك عزوز.. حظ وفرتونه.. وين جابها المكتوب جت من قابس أوين هزها نسيم ما هو بيده.
- أي والله المكتوبه تقسم والحارمه أطيح من الفم.
- نهار وليله ما همش محسوبات من العمر.. لكن من غدوه عمّك عزوز روح إدز في اركابه دَزْ.. أعظامه أمهرسات تقول واكل طريحه.
- يا ريتها طريحتي والا طريحة صمّه.. أو كاني زيك بعد مع لزرده أنقولها يا موت دونك صاحبك، قال المولدي.
- نلقاها أنا زرده.. لكن عقابها رست على عركة مع جانيت.. ويا ما صار بينها وبين سوزي لا وحده سلمت للخرى.
- صمّه: على شأن هالعباثه.. غير شي عاجبهم فيك؟.. يحاول معابثته في مزاح برىء.
- عباثه عنده فرتونه.. موش كيفك يا فار.. انت ما اديروكش حتى فرسون تعول عليهم في الكوجينا.. لكن العباثه أجيه كل شيء لعنده.. غير يطلب بس.
- يعطي الفول للي بلا زروس.. يقولها ضاحكًا.
- حاسدك يا عم عزوز.. والله الا حسد قال: واحد.

- خلاّ إبرد على قلبه.. ما هو اللي ما يلحقهاش يقول قارص.
- واحد من الجماعة: وشن صار بين جانيت وسوزان؟
- عزوز: سريب طويل.. عركه مافيهاش وجه.. تخبيش.. وتقطيع شعر.. وخنق.. وضرب بالشباشب وعياط وحاله حليله.
- صمّه : وهي كيف عرفت جانيت اللي صار بينك وبين سوزي.
- من اللي طاحت علي القرعة دارتها في بالها.. ما هي عارفتها من قبل تسومح عليّ.. زي ما خبرّتها صاحبتها الممرضة.
- واحد: تجسّست عليها.. عندها من جابلها الخبر.
- عزوز: هي برأسها خبرت بكل شيء وحده من صاحباتها. وهاذيك خبرت صاحبتها.. مش أيقول السر كان فلت من زوز يوصل عشر.. فيسع ما عرفت جانيت شن صار من أوله لعقابه.
- صمّه: شورها ما تشد شي اللي في قلبها على لسانها.. هي سوزان
- عزوز: جاباته سخون.. لا عقبت لا بقت.. سماعاته لصاحبتها وهاذيك زيها: هاتي يا مزره وخوذني يا صدره.. وصل الخبر جانيت وصارت عركه والحزّار بقعود.
- صمّه: وانت من خبرك؟
- عزوز: الزوز.. كل وحده جت تشكى وتبكى.. وبدو إعسو على بعضهم.. لا وحده أمخليه داله للخره.. عمك عزوز باعهم الزوز.. جرت الخيوط مع غيرهم.. هيالك مهناش همّ. أولهم الممرضة

صاحبة جانيت دارتني في المنظار.. عندها بيت (غرفة) قريبة من العنبر.. هي عارفه كل شيء وسامعه بوذنها. شن بدير عمك عزوز.. زي أخواتها.

- واحد: أولولات سلمت فيهم؟

- شن سلمت فيهم.. هم كهو في عراكهم وأنا لهيت بغيرهم.. يا ودي ما طولوش بعدين أصالحو وقسموني بيناتهم.. قعدو أجي شهر متعاركات . لكن عزوز طاح في ذخيرة أخرى.. كعبة مافيش زيها.. هو أمنادم فيه طبع من الذئب كان سيل الدم مقادني أبطل يقتل ويخلي حتى شبعان.

- واحد: ملا عباثه أثريتك يا عم عزوز.. تقتل وتخلى.

- سيبها هم.. من قلعة هاكه الكلسون.. الله لا يسامح جانيت.

- صمّه : ما دارت معاك غير الباهي.. تو وليت تسب فيها؟

- ماني كنت زي البهيم ما نعرف كوعي من بوعي.. نتحشم من ضلي.. وكيف ما خبرتكم تلاوي أنا وإياها برشه على الكلسون.. نحب نكره نحاته.

- صمّه: باهي قعدت راكح ودرت حمامك وخرجت.

- عندك حق ماك ما ريتش اللي ريتها أنا.. خبر ما ينقال بالكل شيء أظهرك من عقلك.

- أماله تحسابها سخطه شوي.. تراهي مصيبة حمرة.. وسوزي كيفها

وغيرها وغير غيرها.. أكلهم خبر ما يتعاودش.. ربيع يا جماعه أزهى العيد.. مش كيف هالجدب اللي أنا عايش فيه مع خالتك أمباركة اليوم عشر أسنين.. سيقانها زي الخنر الجربه أوجهها زي البوكشاش أحرف من وجهي.. وقلة معرفة لا صواب لا كلمة باهية.. هي أو كان تشوفها يا صمّه تهرب ما دام الوطي قدّامك.. أو هي اللي تسميها عباثة، موش آنيا اللي تعاركو عليه فرخات شقر الوحده خير من ميزانها ذهب.. آهو الصحيح يا كبدي.. قالك عندنا أنسى.. تحنى غير أنوسو في البشر اللي في الدنيا.

- صمّه : بديت تطمح.. ريت الذهب بتسيب الفضه؟!
- مش نطمح.. أنقول الحق.. تو زي سوزان اللي خدها زي لمرايه تشبح فيه وجهك.. زي أمباركه اللي وجهها أدعم.
- شد ادغمك لا أجيك ما أدغم منه.
- أيقولو : أدغمك ما اتبيعه وادغم الناس ما تشويه لكن امباركه عندي مش نعمْه بركّه.. هي بو درنه حشاك.. رقيبتها لاصقّه في أكتافها وعيونها حول وخشمها أفطس تقول جائيبنها من النيجر وشعرها زي الشبيطَه.. الحاصل ما فيها ما تشبح وتقولي شد ادغمك.. هاني شاده يا سيدي وعاطي احكامي لربي..
- هذا قسمك اللي مكتوبلك شن بدير ؟! قال واحد من الجماعة
- مكتوب راد بيه ربك.. لا وحتى الضنى حابت فرفوط وعقمت

- ساعات هاكه الفرفوط يطلع منه راجل عليه الكلام قال آخر.
- ماضنيتش.. داير روحه يقرأ في المكتب قال بيوتي: أبوكا.. لكن منين بيجيه العلم بيورثه من هالدماغ اللي سكر بسبعين قفل.. باباه ؟.. باقي أمه هاكي لا عذرها لا صرف لا عدل.. ما أتخلص بقره من طين.. أو حيده درويشه الله غالب عليها.
- صمّه: والله ما تدري يا عم عزوز.. مرّات يطلع واحد فلته ما عنده شيء لا من بوه لا من أمه.. معاطي من عند العاطي.
- واحد: ربك عادل في ملكه.. مرّات زي ما قال صمّه يطلع واحد إيقولو بيه الناس وبوه من أوطى الناس وأفقرهم.
- واحد آخر: لولا أولاد الفقراء لا مناع العلم.. تعويض من ربك.
- عزوز: يا ودي كانله من ولدي أني ما عنده منين أجيبه لا مني لا منها.. أماله العلم ملوح؟
- صمّه: العلم أيقولو إحصله اللي يعشقه، وما هوش لكل حد.. العلم للي يجري عليه.. ويكون طاهق بيه.. موش كيفي أنا والمولدي واحد سارح معتز أو احد خدّام شانطي.
- المولدي: كل طير إعيش بلقاطه.. كل واحد خلقه ربي لشيء.. واحد أبوكا.. واحد طبيب واحد سارح معيز.
- عزوز: يرح من قرا أورا.. أنا أبي ما قر.. نيش.. ما علمني حتى صنعه.. قعدت زوفري أفلق بين فيرمات الفرنسيس نتسافر أنا

ولبغول داير كسريطة ونلم في زبل البقر نطرح فيه تحت الشجر ونوكل في الكلاب من وهم صغارهم يخرجو للمكتب ترفعهم أطومبيل وتجيبهم أطومبيل.

- صمّه: أمّاله تبي روحك ولد قادري.. مبعد مكه

- عزوز: حتى أنا عارف روحي كعوكي كيفي ما إجي حتى شيء.. مش عارف كيف علقولي قراضو سرجان ضربة واحدة؟!

- المولدي: سلم شجاعتك وذراعك طبيت على النار الحمره، ومنحت المجروح وعدت الطقطاقات والنار فوقك وتحتك. هذا من إديره كان واحد شجاع.

- صمّه: ما عطوهلكش بلاش القراضو.. هم أيقدرو الجندي الشجاع.

- لو كان موش طولت في المشتشفى.. راني وليت للجبه أو حصلت قراضو آخر.

- واحد: وين وليت يا عم عزوز بعدها ما طولش هتلر زحب بجيشه وخذا فرنسا كاملة

- صمَّة: كانك وليت راك يا متت.. يا تيسرت.. يا هربت خشيت الخلاء.

- الهربه وراس عمك ما انديرها ولا قسمة عليّ.. نموت يمكن.. نتيسر.. خاطي الهربة.

- المولدي: مكتوبلك.. لو كان قعدت في الجبة راك لا ريت جانيت لا سوزي

- عزوز : إيبه.. قعد غير خرّاف.. تعيش تسمع كان عمرك طال.

- صمّه: ما حكيتلناش كيف روحت.. أو من مشيت بعد ما خرجت من المستشفى.

- عزوز: قعدت عام اثناشر أنشهر في المستشفى.. بعدين خرجت.. كانت عندي عاهة في ركبتي ليسار.. هاك تشبح فيها ديما كراعي ممدودة.. لرجا عندي من قبل يعطونينا مصروف عسكر.. وخذيت من هاكي الروسية متاعت ليل اللي عطتني شيك صرفتهولي جانيت فيه بالك ١٥ ألف.. ولصحاب ياسرين لمدولي واحد ألف واحد ثنين كانت الذكرة فيهم سوزي عطتني أكثر منهم أكل خمس آلاف وجانيت ثلاثة ولخسرات كل قدير وقدره.. هاكي الممرضة الخنزيرة بركه الا ما عططنيش حتى فرنك.

- صمّه: باهي كيف روحت؟ وانت حتى اللغة ما تعرفهاش؟

- لا اللغة يا باب بعد عام.. وكانت لامية بحبة جانيت كل يوم تصلح في وليت أتخلص روحي.

- المولدي: روحت لتونس طول بعد ما خرجت؟

- لا وين روحت طول.. قعد نسرمح عشر أسنين في فرنسا لبلادت أكل لطيتها نم طولوز لنيس لباريس.. ليل لوليتلها مرة أخرى.. لكن موش مع جانيت.. مشيت أنطل على هاكي الروسية اللي عطتني الشيك.. قعدت عندها عام كامل.. بعدين تعاركنا عركة شومة..

طرّدتني.. خرجت منها نلعن في جدو لديها.

- صمّه: هاذي حكاية أخرى.

- حتى هي حكاية.. لكن موش كيف حكايتي مع خالتك أمباركة وأمي.

- المولدي: هاذي كيف زاده؟

- خلّونا دار.. دار انجيبو سريب هملتي عشر سنين في فرنسا.. أنا ما روحتش كان بعد ما أوفت الحرب.. وخرجت جسر مافيا من فرنسا.. روحت في روسيا.. ركبت من مرسيليا في البوطو نزلت في حلق الواد.. ظل عزوز يروي قصة حياته في فرنسا طيلة عشر سنوات أو تزيد منذ خروجه من المستشفى العسكري إلى أن وضعت الحرب أوزارها بهزيمة المحور :- ألمانيا إيطاليا واليابان - أمام جيوش الحلفاء: بريطانيا وفرنسا وروسيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية التي انضمت إلى الحلفاء مع بداية سنة ١٩٤٢ فقلبت موازين الصراع بين المحور والحلفاء، وانتصر في النهاية الحلفاء في هذه الحرب الكونية التي ذهب ضحيتها ملايين البشر بين عسكريين ومدنيين وأصبحت بسببها مدنا كثيرة خرابا وأنقاضا خاصة في روسيا واليابان، وقد استخدمت فيها لأول مرة القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما ونجازاكي من طرف السلاح الجوي الأمريكي، وظلت هذه العملية وصمة عار في جبين أمريكا، حيث ذهبت هذه العملية بميات الآلاف من الضحايا بين قتلى ومشوهين كما هو مسجل في وثايق الحرب.

- يقول عزوز: خرجت من المستشفى في نهاية سنة ٤٠، والحال كان شتاء قارساً وخاصة في شمال وشرق فرنسا، لذلك قصدت نيس وهي مدينة من مدن الريفيرا الفرنسية على ساحل البحر الأبيض، فهي دافئة الجو نسبياً. لكنها ذات معيشة مرتفعة، فأغلب ساكنيها من الأثرياء، لذلك لم أبقى فيها إلا ثلاثة أسابيع، اكتريت فيها بيتا صغيرا مع آخرين دفعنا أجرة له تساوى ما نعيش به سنة كاملة، كان رفاقي في البيت، واحد من مورتانيا يشتغل قرسونا في ملهى ليلي يكسب كل ليلة مالا كبقشيش، والآخر أسباني من برشلونه يشتغل حارسا ليليا في إحدى الفنادق الفخمة ويستلم هو أيضاً مبلغا لا بأس به في نهاية كل أسبوع، أما أنا يقول عزوز - فإنني أصرف من مدّخراتي التي وفرتها من مصروفي العسكري طيلة سنوات الخدمة، ولولا ذلك المال الذي حصلت عليه من تبرعات سوزي وأخواتها، وذلك المبلغ الذي حصلته عليه عندما سيّلت لي جانيت الصك الذي تبرعت به والرومية، التي رقت لحلاي عندما كنا في حفلة عيد الميلاد في مدينة ليل. أنا وجانيت. لولا هذه الأموال التي توفرت لدي لما سكنت في نيس ليلة واحدة لارتفاع الأسعار في هذه المدينة الشهيرة التي يأويها أثرياء العالم، وقد نبهني الرجل الأسباني - وأنا رجل ذو عاهة : أعرج - بأني لا يمكن أن أحصل على عمل في هذه المدينة، ونصحني أن أذهب إلى مرسيليا فهي بلاد رخيصة ودافئية وتسكها جاليات من جنسيات مختلفة أغلبها جنسيات مغاربية من الجزائر والمغرب وتونس، لذلك فضلت الذهاب

إليها عليّ أجد فرصة تمكنني من العيش فيها بسلام، حتى أتدبر أمري وأعود إلى وطني، فقد كان بي شوق إلى أهلي وخاصة والدتي التي تركتها تنتحب حين ساقوني إلى العسكر، وأنا ابنها البكر التي كانت تحلم بأن تبني له بيتا في حياتها كما كانت تقول، وكان بي شوق إلى إخوة صغار بنتان وولد تركته رضيعا، والشوق كان أيضا للخلان ومرابع الصبا، وللشمس الدافية والهوا النقي، وعادات وتقاليد الجماعة وطعامها ولباسها، معطيات افتقدتها منذ عشر سنوات، وصرت أحن إليها، وأتحيّن الفرصة للعودة إليها على جناح الشوق. ثلاث سنوات فقط مكثت في مرسيليا..حصلت هناك على وظيفة حارس - بوّاب - في مدخل عمارة تحتوي على عدّه شقق مفروشة كما هو مكتوب على باب العمارة، كانت صاحبتها يهودية من أصل مغربي، كانت أسرتها تسكن مدينة الجديدة على ساحل الأطلنطي وقريبة من الدار البيضاء كما أخبرتني ذات مرة، فهي أحيانا تاخد كرسيا وتجلس بجانبي وتحاول محادثتي بلهجة مغربية لم تعد تتقنها، لأنها جاءت إلى فرنسا منذ عشر سنوات، وتحمل الجنسية الفرنسية ولها جواز سفر فرنسي، وهي متزوجة من رجل برتغالي من مدينة لشبونة متجنس هو أيضا، فهو فرنسي منذ سنتين لذلك رخص له أن يعمل عملا حر: فهو تاجر خضروات يجلبها من أغادير في جنوب المغرب ويقوم بتسويقها في مدن الجنوب الفرنسي، وأن له بنتا في كلية الطب بجامعة طولوز وابن صغير لا يزال في الليسيه، معلومات تطوعت بها مخدومتي دون أن أسألها حين

كانت تجلس بجانبي تنشد أشعة الشمس حين ينجلي عنها السحاب، هي امرأة تجاوزت الأربعين من العمر بدينة وثقيلة حين تتحرك، يظهر عليها طيبة القلب لكنها ثرثارة، وشرسة أحيانا مع أصناع من زباينها الذين يكترون منها الشقق، فكم من مرة شاهدتها تعنف أحدهم حين يتكلكأ في دفع الأجرة، هي كانت تسكن الطابق الأرضي من العمارة في شقة صغيرة بها حجرة واحدة وصالة كما أخبرتني، وتحتفظ بشقتين على يمينها وشمالها، قالت تكتريهما في بعض الأحيان. أنا تبرعت لي بحجرة صغيرة وحمام عند مدخل العمارة، لذلك كانت حياتي بين تلك الحجرة وباب العمارة لا أبرحهما إلا في أوقات يسيرة حينما أتسوق من متجر للمواد الغذائية على بعد خطوات من العمارة كان صاحبه من المهاجرين الجزائريين، كنت أشتري منه السجاير وبعض المشروبات وتمر الوقلة التي كان يجلبها من الجزائر، ويقول أنها من مدينة ورقله في قلب الصحراء، وهي ذات التمور والمخاطرة التي ابتاع في علب، كنت آنس إلى الرجل وأتجاذب معه أطراف الحديث، وذات مرّة ريته يتناول علبة صغيرة وياخذ منها شيئا يضعه بين شاربه وفكه السفلي.. قلت له على غير توقع منه: نفّه؟!

- قال: نفّه.. تعرفها؟

- قلت هات جاي (الكسيره) يرحم ولديك، أنا أبحث عنها في كل مكان ولم أجدها، أنها وكيفي، المفضل هل تباع هنا؟

- هنا تباع، ومتوفرة دايما، والزبائن يأتوا إلي من كل مكان حتى من المدن المجاورة لمرسيليا، وكلهم من الجزائريين والتونسيين وبعض المغاربة، وحتى بعض السكان الأصليين لمرسيليا من الفرنسيين أصبحوا يتعاطونها، بعد أن اكتشفوا أنها أفضل من تدخين السجاير، سيما وأن هذه النفة التي أبيعها مصنوعة من دخان معروف يسمى السّوفي نسبة إلى واد سوف في الشرق الجزائري.

- قلت : لا تعرفني بذلك أنا ابن المنطقة وموطني قريب من ذلك المكان، وطالما ذهبت إليه، وأنا شاب في العشرين من عمري لأجلب الدخان السوفي لأحد التجار مع قافلة قوامها الحمير والبغال، وقد عرفت النفّة أثناء تلك السفرات.

- قال: إذاً أنت من الغرب التونسي؟

- قلت: نعم أنا من جندوبه، وقد زرت الشرق الجزائري مثل عنابة وقسطنطينَه وتبسّة وغيرها من القرى، وسكان هذه المناطق لا يختلفون كثيرا عن سكان الغرب التونسي من حيث العادات والتقاليد ونمط المعيشة تقريبا، وحتى اللباس والطعام يتشابه كثيرا، وبيننا مصاهرة ونسب، واللهجة تكاد تكون واحدة مع تباين بعض المصطلحات والمفردات وقلت له كم أنا محظوظ اليوم حين رمت بي هذه الصدفة إليك فأنا أفتقد الحديث مع أناس بلساني إلا قليلا حيث إني لا أبرح تلك العمارة إلا قليلا وأشرت إلى العمارة.

- قال مستفسرا: أية عمارة؟

- عمارة اليهودية تلك التي على الناصية المقابلة.

- قال : أتعرف شيئا عن تلك العمارة؟!

- كيف لا أعرفها وأنا حارس بابها؟

- أقصد ماذا يجري داخلها؟

- لا أعلم عن ذلك شيئا.. أنا لا أبرح مدخل العمارة عادة.

- لكنك لو انتبهت إلى الداخلين إلى العمارة والخارجين منها لعرفت كل شيء.

- أنا لا أتفرس في وجوه السكان عادة ما دام كل منهم يدخل إلى شقته ويخرج دون أن يحدث شغبا أو ما يقلق راحة السكان.

- إن بعضهم سكان دائمين هذا صحيح.. لكن بعضهم سكان لساعات فقط.

- وكيف أعرف هذا؟ وهم داخلون خارجون في هدوء وكل في حاله، يلقون بالتحية وينصرفون بسلام.

- حاول أن تتفرّس في الوجوه ستجد بعضهم متجددون بين الحين والآخر.

- عاد عزوز إلى العمارة ولزم مربضه كالعادة على كرسي قديم، تبرعت به إحدى ساكنات العمارة، حين تخلّصت من أثاث شقتها القديم، وظل يراقب الداخلين والخارجين، ويتفرّس في وجوههم كما أشار عليه صاحب البقالة الجزائري. كان الوقت مساء وقبل غروب الشمس

حين بدا سكان العمارة يعودون إلى منازلهم في نهاية الدوام والفراغ من أعمالهم، كان الداخلون أغلبهم يعرفهم بوجوهم من قبل، وكان أغلبهم من الرجال العاملين في مهن مختلفة، وبعض النساء العاملات، أخذ يفحص الوجوه ويركز النظر على كل واحد. هذا رآه من قبل ويسكن في الدور الأول، وهذه زوجة موظف في مكتب البريد له به معرفة سابقة ويعرفها هي أيضا حيث تفضلت عليه مرة بوجبة من طعامها وهي مغربية من طنجة كما أخبره الزوج.

- وهذا يسكن في الدور الثاني شاب من كورسكا متزوجا من جزائرية.

سجّل عزوز جرا كاملا لمن دخل وخرج في ظرف ساعتين فلم يلاحظ على أي منهم رجالا ونساء أية ملاحظة مريبة عند الساعة العاشرة مساء دخلت امرأة متوسطة العمر تحمل في يدها حقيبة صغيرة وترتدي معطفا رماديا ثقيلا، تبعها بالعين حتى دلفت إلى شقة اليهودية صاحبة العمارة، ولم تمكث عندها إلا قليلا ثم خرجت وعطفت يمينا وفتحت الشقة التي قالت اليهودية من قبل أنها تؤجرها لبعض المسافرين العابرين لمدة ليلة واحدة إلى أنى سافرون قاصدين وجهتهم في الصباح، فتحت المرأة الشقة وتركت الباب مواربا وأطفأت النور.. إلى هنا والأمر ظهر عاديا، غير أن شابا في مقتبل العمر دخل بعد دقائق وقصد تلك الشقة التي بها المرأة.. بعد وقت قصير خرج الشاب، ومرت دقايق وخرجت المرأة في أثره، ثم بعد نصف ساعة تقريبا عادت نفس المرأة وقصدت الشقة رأسا فهي لم تسلم المفتاح إلى اليهودية، ودخل على أثرها رجل تجاوز

الخمسين من العمر وقصد هو أيضا الشقة ذاتها والمرأة في انتظاره كما يظهر ثم خرج الاثنان، وعادت المرأة أكثر من مرة وفي كل مرة يصحبها رجل أو شاب خلاف الأولين. هنا عرف عزوز السر ولماذا تحتفظ اليهودية بالشقتين الأرضيتين اللتين في جوارها وحمايتها.

- خاطب عزوز نفسه قائلا في سرّه: صح الآن أنني حارسا لماخور تديره هذه اليهودية الملعونه، والطيبة كما بدأت لي حينما كانت تحادثني وتتبرع لي ببعض الوجبات وخاصة يوم العيد الذي مر من أسبوع.. عيدهم في الديانه اليهودية كما قالت.. يقول رغم أنني كنت أستضيف بعض الجانحات في بعض الليالي وأدخلهم إلى غرفتي الصغيرة بعد أن أقفل باب العمارة الكبير، وكانت اليهودية على علم بذلك كما عرفت فيما بعد، فهي كانت تتجسس علي حين تأتي بكرسي صغير وتقف عليه في ظلام الليل وتتنصت من خلال نافذة صغيرة تفتح داخل ممر العمارة فكانت تلم بالحركات وبعض الكلمات والضحكات الخافتة وتعيش المشهد الحي من خلال أذنها، وأنا وضيوفي لا ندري ما يدور حولنا ذات مرة: كنت أستضيف أناسا من معارفى وكانت اليهودية تراقبني من خلال نافذة شقتها التى تواجه باب العمارة وغرفتى بجانب الباب.

رأت من دخل معي فاطلعت على سرّي.. بعد وقت جاءت تستطلع الأمر عن كثب، وقفت تحت نافذة غرفتى الضيقة والقريبة من السقف سمعت وشوشة، أخذت كرسيًا صغيرًا من الذى يستعمل

للجلوس فى الحمّامات، من شقتها وعادت اعتلته بثقلها الزايد وفتحت أذنيها.. سمعت حركة الفعل فى الداخل، وكذلك أصوات مختلطة أنثوية وذكورية.. أصوات مبهجة هي أقرب إلى التأوه والبكاء، صادرة من الأعماق تعبيرا عن الإحساس بالراحة واللذة أعقبها شبه نوم حيث همدت الحركة الضعيفة التى صاحبتها أصوات وحركة اهتزاز السرير الذي لا يكاد يحمل اثنين، وهو قديم تنبعث منه طقطقات بفعل العنف أثناء الفعل.

كنت فى شبه غيبوبة حين سمعتُ مواء كمواء القطة وكلمة لم أتبينها تحت نافذة غرفتى.. نهضت وأخذت أبحث عن مصدر الصوت، النافذة الصغيرة كانت مفتوحه وفي مستوى نظرى.. تبينت على ضوء ممر العمارة اليهودية وفي يدها كرسي الحمام الصغير وهي تسرع نحو شقتها محاولة أن تجري لكن ثقلها يعوقها.. عرفتها أنها هي التي ماءت كالقطة تحت نافذتي حين كنت بين يقظة ونوم. وانتبهت فجأة على عواء الجوع.. أما الطرف الثاني فكان في غيبوبة تامة.

جلست على كرسي فوتيه قديم بجانب السرير الذي لا يزال الطرف الآخر فوقه غائبا عن الوعي. جاءني خاطر: هل كانت تفعل اليهودية السمينة ما فعلته اليوم في المرات السابقة؟! وهي عديدة، أحيانا أكثر من أربع مرات في الأسبوع؟ وما غرضها من ذلك؟ وهل تريد هي ما يفعل بها هذا ما أفعله مع الأخريات؟ إنها متزوجة ولا أعتقد هي في حاجة كحاجتي أنا الأعزب، ثم هي عندما كانت تجلس بجانبي عند

باب العمارة في بعض المرات.. كانت تطرح أحاديث بعيدة عن كل شبة. لا تلميحا ولا تصريحا، وعادة المرأة الراغبة لا تعدم الرموز التي تكون مشحونة بالإثارة والجنس.. وأنا كنت في الحقيقة أنظر إليها نظرة تهيّب قريبة من الاحترام الممزوج بخضوع المستخدم لمخدمه فأقتل رغبتي فيها تحت تأثير هذا الشعور.. رغم أن نفسي أحيانا تشتهيها فهي ذات «شحم ولحم ولين».. كما كنت أسمع من طالب يعود إلى أهله في دوارنا في مناسبات الأعياد، كان من طلاب الزيتونه حين يقرأ لنا في أوصاف النساء كنت أشتهيها، وأكبت هذا الشعور في نفسي، وكان البديل متوفراً، فأنا بوّابًا في عمارة على ناصية شارع كبير والفرص مواتية للاصطياد.

الآن أنا أفكر فيها.. وأتذكر صوتها المكبوت كمواء القطة وكلمتها التي شهقت بها ولم أتبينها حين نزلت من على الكرسي وخطفته ولاذت بالفرار الثقيل، كل هذا جعلني أفكر فيها بطريقة أخرى، طردت من خاطري حكاية: أنها متزوجة وفي غنى عن كل شيء، وأنني مخدومها وأتلقى منها في كل أسبوع ماهيتي، وإنني لم أنس منها من قبل حين كانت تتحدث معي ما ينم عن رغبتها في شيء ما، بل كانت بريئة في حديثها جادة أحيانا، ولا تتحدث في الغالب إلا عن البورصة والأرباح والخسائر والارتفاع في الأسعار والضرائب وأثمان العقارات وما إلى ذلك من مصاعب الحياة وشؤونها العامة.

أما الآن وبعد أن وقفت على الأمر بعيني ورأيتها تسرع نحو شقتها وهي متلفعة بشال ثقيل يغطي نصفها الأعلى، ونصفها الأسفل

مضغوطا في سروال من استعمالات البيت كما يبدو، ولا شك عندي أنها هي التي كانت تحت النافذة تتجسس أو قل تستشف شيئا ما مما يحدث في الداخل.. الآن لم يعد هناك شك في أنها راغبة، ورابغة شبقة، وهي مهيأة لكل شيء وكما في المثل : «صفّر والبد».

يقول: سحبت علبة سجائر من فوق طاولة صغيرة وأخذت سيجارة وأشعلتها على أثر ذلك فتح الغائب في غفوة لذيذة عينيه، وهو لا يزال في استرخاء تام فوق ذلك السرير الذي يأنّ تحتنا منذ قليل وقال: آه كم هو لذيذ وجميل؟!

قلت في خاطري: هذا الذي كانت تريده اليهوديه صاحبة الردف الثقيل، والشبق الذي عبرت عنه في نداء مكتوم أُشبه بالمواء، ومن أجله تجشمت الصعاب فجاءت بكرسي واعتلته متجسسة ومعرضة نفسها لفضول الأعين التي ربما تتلصص عليها من نوافذ الشقق المعمورة بساكينها في جميع الأدوار، لكنها كانت غافلة المسكينة تحت إلحاح رغبتها في التعرف على ما يجري داخل غرفة عزوز المتواضعة ذات السرير الفردي الوحيد، وكرسي الفوتيه المهتري، والطاولة الصغيرة التي شوهتها حرقات السجائر وأثر أكواب الشاي، حين لا تمسح إلا بعد يومين أو ثلاثة، طاولة قديمة جارورها مفكوك ولا تصلح إلا أن تكون قاعدة للأكواب ومنافض السجائر وربما لقارورة من النبيذ الرخيص في بعض الليالي حينما يكون هناك ضيوف لهم في الشراب.

عاد من كان معي في الغرفة إلى الاستغراق في النوم، أما أنا فلا مناص لي من الاستلقاء على كرسي الفوتيل الذي لا يسمح حتى لرجل متوسط الطول من النوم عليه في راحة، فما بالك وأنا قامتي ليست كالمعتاد، للك نمت نصف مائل، رأسي على حافته ورجلي في الأرض تلامس قطعة فرش دارسة، لكن الإجهاد أعانني على الاستغراق في النوم بسرعة، تأخرت عن موعد الاستيقاظ المعتاد بنصف ساعة، لذلك لما خرجت أنا وضيفي من الغرفة قصد توديعه وجدنا أمامنا اليهودية وقد فتحت باب العمارة لأن السكان بدؤوا يتقاطرون للخروج إلى أعمالهم وأنا لم أكن في الباب لأقوم بفتحها، فاستنجدوا بصاحبة العمارة فجاءت تفتح الباب، فلما جئت وصاحبي نظرت إلينا نظرة ذات معنى تقول: سمعتكما البارحة وعشت معكما الفعل لحظة بلحظة وعرفت كل شيء، ثم تفحصت مرافقي بنظرة طويلة وشيعته بأخرى فيها حسد وغيرة ثم تبسّمت في وجهي وعادت إلى شقتها وحين فتحت الباب التفتت ترمقني بنظرة أخرى من بعيد ودلفت إلى الداخل وأغلقت وراءها الباب.

أخذت مكاني فجلست على الكرسي الذي لا يبرح مكانه منذ أن استلمت العمل كبواب للعمارة، وربما كان هذا مكانه لمدة طويلة قبل بحيئي. ذهبت لفترة وجيزة إلى حانوت صغير قريب مني يقوم صاحبه الإفريقي بإعداد القهوة والشاي ويقدم أطعمة الإفطار السريع فأخذت كوبا من الحليب بالقهوة: (كبتشينو) وقليل من الفطاير، وعدت إلى مكاني.

يظهر أنني كنت تحت مراقبة صاحبة الشقة الأرضية التي تجسست علي ليلة البارحة، فما أن فرغت من إفطاري الصباحي، حتى رأيتها قادمة تضع فوق ملابسها البيتية معطفاً سميكاً أسود اللون، فلما وصلت إلي لم ألحظ عليها أي شيء غير معتاد، فقد أقبلت كعادتها وليس في ملامح وجهها جديدا، وجلست بجانبي على كرسي تصحبه معها دايما كلما جاءت تقضي بعض وقتها في حديث بعضه جادا وبعضه ثرثرة نساء من فائض الخواطر والحكايات التي تمتلئ بها فتفرغها في حضرتي، دونما تحفظ في بعض الخصوصيات، لكنها دايما لا تمت إلي حديث الجنس بصلة.

جلست كالعادة بملامح عادية، وتحديث حديثا عاديا.. فقط اليوم طلبت مني أن آتى لي ولها بقهوة من ذلك الحانوت القريب، فهذه أول مرة خلتها ستدفع نقوداً ثمن قهوة تأتي بها من خارج البيت، وللحق لا أنكر عليها أنها كانت تأتي لي من بيتها ببعض الطعام وخاصة في الأعياد، وأنا أسمع أن طعام أهل الكتاب حل لي باعتباري مسلماً، هذا ما سمعته من طالب العلم الزيتوني الذي سبق ذكره، وأن اليهود لا يأكلون لحم الخنزير مثلنا ويذكون الشاة أو البقرة أو أية ذبيحة أخرى.

جلست وجلست قبالتها أرتشف قهوتي، وكانت تأخذ قهوتها على مهل وبين رشفة وأخرى تسترسل في حديث تشرق به وتغرب، لكنه بعيداً عما سمعت وعاشت بأذنها ومشاعرها البارحة عندما كانت تعتلي كرسيها الصغير، وتصغ السمع في حسن إنصات ولهفة ممزوجة بالرغبة الجامحة المختلطة بالمشاعر والأحاسيس الجنسية التي تلهب الجسد.

في الوقت نفسه لاحظت أنها تختلس النظر إلي كلما ضننت أنني غافل عنها فربما كانت تقايس أبعاد جسمي الضخم وخاصة العلوي منه: أكتافي العريضة ومناكبي الخشنة، وعنقي الغليظ الطويل، وكفيّ بحجمهما الغيرمعتاد، وحتى وجهي وملامحه القاسية وشعر عيني الكث، وأسناني العلوية البارزة، والتي هي ظاهرة للعيان إلا حين أغلق فمي في لحظات الصمت، كانت تتفرسني كما لاحظت من طرف خفي، وتغطي فعلها هنا عندما تشعر أنني فطنت لها بمزيد من الثرثرة، وبعض الأسئلة العارضة التي توجهها لي حول مسائل ربما كانت قد سألتها من قبل، وكنت أحيانا أجيبها عما هو ذا أهمية، وأحيانا أتغافل عنها، فتأخذ بالحديث في شأن آخر.

بعدما يقرب من ساعة نضهت وتركت لي ما يزيد عن ثمن القهوة من نقود.

قلت لها: لقد دفعت ثمن القهوة من قبل.

قالت لماذا دفعتها وأنا التي أمرت بها؟

- أنا لا آخذ شيئا دون ثمن مسبق.. من صاحب الدكان.
- إذًا خذ هذه النقود.
- قلت لها: أنا لا آخذ ثمن قهوة شربتها وإياك؟ هذا أولا، وثانيا أنت تعرفين أن هذه النقود أكثر من ثمن القهوة بكثير.

- أحسب الزايد نظير الخدمة.. أليس أنت الذي أحضرتها من الحانوت؟

- لكنها خدمة بسيطة.. وأنا أعتبرها مع ثمن القهوة تكريما لك.. ألا تقبلي هذا التكريم؟

- شكرا أخجلتني ومرة أخرى سأحضرها أنا بنفسي وأشربها معك.

وتحركت في طريقها نحو شقتها وألقت علي تحية الصباح: بنجو أعقبتها بابتسامة ظهرت لي أنها ليس كالتي تصاحب تحية الوداع أو القدوم فتكون ودودة بريئة وإنما لاحظت فيها شيئاً تعنيه لا يغيب عن الفطن النبيه الذي يعرف ما تضمره النساء حين تريد إيصال رسالة ما.. أومأت اليها بيدي ردا على تحيتها وضلت عيني تتابعها وهي تتكلف أن تكون خفيفة في مشيتها مع إظهار ما يمكن إظهاره من إغراء من خلال عجيزتها الكبيرة البارزة خلفها وخاصة حين تحاول أن ترفع عنقها في استقامة قدر الإمكان رغم معاكسة وزنها لها وهي تفتعل هذه الحركة والمشية.

تابعتها بالنظر حتى وصلت منتصف الممر الذي يفضي إلى شقتها، هنا تلتفت فجأة وتومي إلي بيدها مثنيةً التحية، وكان مني الرد. دخلت شقتها ولا أدري في ماذا كانت تفكر؟ لعلها كانت تقول في خاطرها لقد رميت الطعم، وهذا يكفي اليوم، وغدا أرى النتائج، ولا بأس أن يكون الطعم أكبر، والفخ أحكم في يوم آخر إذا لم أصب الهدف، هي المرأة الراغبة دائما المتمنعة عن المبادأة والتصريح، لكنها مناورة ماهرة،

تصل إلى مبتغاها في إصرار شديد، ولا تمنعها كل الموانع من الوصول إلى غايتها.

زوجها لا يتواجد دائما في البيت وحتى وجبات الطعام لا يتناولها معها، إلا في عطلة نهاية الأسبوع عندما يخرجان معا إلى أحد المطاعم خارج المدينة في ضاحية معروفة بمطاعمها وملاهيها، فالرجل مشغولا بتوزيع تجارته على الحرفاء في المدينة والمدن الأخرى القريبة وكثيرا ما يذهب بنفسه يوزع البضاعة ويحصّل أثمانها.

في ذلك اليوم بالذات الذي شربت فيه معي القهوة على باب العمارة، وحين عادت إلى شقتها أخذت تعد طعاما فاخرا - كما لاحظت فيما بعد - وقبل موعد العشاء جاءت بصفرة عامرة بين يديها، بها أكثر من طبق يحتوي على أكثر من صنف من الطعام مع إناء صغير به شربة ساخنة، وفاكهة ومقبلات، وموني وملعقة وشوكة ومنشفة يد وكوب وقنينة من نبيذ.. قبل أن تصل إلى غرفتي نادت علي من بعيد: عزوز افتح الغرفة.. كنت جالسا في باب العمارة، جئت على عجل وفتحت الغرفة، دخلت فوضعت الصفرة فوق تلك الطاوله الصغيرة المتسخة..وقالت تفضل يا عزوز اليوم عندنا عيد، ولا عيد عندهم في ذلك اليوم.. لكن ربما كانت تقصد عيدا تنويه.. شكرتها على ذلك الطعام وجاريتها في كذبتها فقلت لها مبروك العيد.. ردّت تهنيتي بالشكر وهمت بالخروج فقلت لها مجاملة: تفضلي اجلسي على هذا الفوتيه، ولو أنه لا يليق بمقامك وخذي سيجارة.. كنت أعرفها مدخنة.. فوقت العشاء لم يحن وربما زوجك لم يأتي بعد.

قالت: زوجي اليوم خارج المدينة، ذاهب في شأن يخص تجارته ولا يأتي إلاّ بعد ظهر الغد.. هنا خانتها الذاكرة التي لم تحتفظ بسر الكذبة.، فلا عيد عندهم ولا يحزنون، ولو كان عندهم عيد لحرصت على ألا يغيب زوجها في تلك المناسبة.

جلست على ذلك الفوتيه القذر وفي تلك الغرفة الوضيعة، وقد لاحظت عليها الفرحة والامتنان، وأخذت سيجارتها بنفس مرتاحاً وانسجامًا تاماً وعيناها تتابعان دخان السيجارة وكأنها تسبح بخاطرها في الفضاء، وأحيانا تدير وجهها بحركة سرية نحوي وأنا جالس بجانبها على السرير الوضيع الذي شهد معارك مشهودة في أيام خلت، آخرها المعركة التي تجسست عليها ليلة البارحة هي نفسها، ولا شك أن تأثيرها ما زال عالقاً بمخيلتها، كنت أنا أيضا آخذ أنفاسا من سيجارتي وأنظر إليها بين الحين والآخر لكن في تحفظ متكلفًا اللامبالاة بوجودها، مداراة لما يدور في نفسي نحوها من مشاعر وسوس بها الشيطان وزيّنها.

بعد نفس طويل من سيجارتها نظرت إليّ وإلى السرير الذي قارب أن يصل أرضية الغرفة، بسبب ثقلي وارتخاء أسلاكه الحديدية، التي قاومت استعمال سنوات طويلة، ثم قالت: عزوز سريرك هذا أصبح غير صالح للاستعمال، هذا عمره أكثر من عشر سنوات لقد اشتريته منذ أن تملّكت هذه العمارة، وقد تعاقب عليه أكثر من واحد خلال هذه السنوات، عليك أن تبيعه في سوق الخردة، وأنا عندي بديلا له سريرا كبيرا استغنيت عنه حين استبدلت أثاث بيتي منذ أيام، فتعالى خذه فهو

أفضل بكثير وخلي عندك هذا الذي أصبح غير صالح للاستعمال.

قلت: لكنه ما دام كبيرا أعتقد أن الغرفة لا تسعه.

قالت: إذا غيرت وضع هذا الفوتيه فلابد أن تسعه، وهناك أيضا فوتيه ما زال في حالة جيدة استغنيت عنه هو أيضا عليك أن تأخذه وتضعه في مكان هذا، وحتى هذه الطاولة القديمة عندي بديلا لها، طاولة أكبر وأنظف خذها أنا لست في حاجة إليها.

قلت لها: أنا شاكرا لك هذا الفضل، غدا أنظر في الأمر.

قالت: عليك أن تأتي الآن وتنقل هذه الأشياء إلى غرفتيك.

- ربما الوقت غير مناسب فأنت ستتناولين عشاءك بعد قليل.
- لا.. أنا لا أتعشى في الليل.. فقط قبل النوم أتناول كوبا من اللبن الدافئ، وقطعا من البسكويت، وشيئا من فاكهة الموسم.
- ألا يمكن أن أنقل هذه الاشياء غدا صباحا؟ أعتقد يكون أفضل.
- لا فرق خذها الآن.. ومسكت يدي ونهضت لأتبعها.
- دخلت شقتها لأول مرّة.. كانت شقة صغيرة: غرفة فسيحة للنوم وصالة متوسطة المساحة، ومطبخ مرتباً أنيقاً ونظيفا يفتح على فضاء الصالة وحماما مقفلا، وفي الصالة صورة كبيرة . يحيط بها إطار مذهب تجمعها وزوجها البرتغالي ليلة زفافهما معلقة على الجدار المقابل للداخل من الباب الرئيسي للشقة، وهناك في ركن من الصالة طاولة عالية فوقها مرآة كبيرة، محاطة بإطار من خشب نادر محفور

به رسومات لغزلان وكلاب صيد، وعلى الطاولة وضعت مزهرية متوسطة الحجم بها ورود طرية.

- قلت لها: أين الأشياء التي سآخذها؟

- قالت: هي في داكلوري: فضاء صغير خارج الشقة.. دعك منها الآن وتعال اتفرّج على شقتي.. ستعجبك غرفة النوم.. لقد جعلتها فسيحة فهي تجمع بين سرير كبير للنوم وصالون ومكتب لزوجي يباشر عليه ما يتعلق بعمله التجاري عادة قبل النوم حين لا يكفيه وقته في النهار في مكتبه في شركته الصغيرة، ثم إنه لا يزورني أحد إلا مرات قليلة بعد شهر أو شهرين، فإذا كان الضيوف من أهلي فلا حرج أن أجلس وإياهم في هذا الصالون الذي تراه في الغرفة، أما إذا كانوا من بعض الزائرات من معارفي هنا في المدينة فإنهم يجلسون معي في المطبخ، فهو أيضا كبيرا كما سترى، والآن تعالى أريك المطبخ والحمام.

- تبعتها فتفرجنا على المطبخ، كان نظيفا ومرتبا، به طاولة أكل وأربع كراسي وأواني للطبخ موضوعة في رفوف معلقة.

- أما الحمام فكان على جانب كبير من الفخامة، أرضيته وجوانبه من الرخام الوردي الثمين، قالت إنه من رخام البرتغال النفيس النادر، بها مرآة معلقة فوق حوض غسيل الوجه، ومرآة أخرى بعرض نصف الحائط المقابل لحوض الاستحمام، وهناك رفوف في الجانب الآخر بها مناشف لليدين صغيرة وملونة وعلاّقة عليها بشكير: فوطة

كبيرة للجسم بعد الاستحمام، وأنواع من الصابون وسوائل تنظيف الشعر والجسم وقنينات للعطور حمام لم أرى مثله نظافة وأناقة هو تحفة في هذه الشقة الصغيرة الفارهة في مجملها، خرجنا بعد الفرجة على الحمام والصالة ومطبخ الطعام، ودخلنا في غرفة النوم فكانت، فخمة فسيحة، أثاثها جديد وستائرها من قماش ثمين، وسائدها واللحاف مرتبة، ونوافذها مطلة على فناءواسع، وفي جانب منها صالونا فخما يتكون من فوتيل وكرسيان كبيران بجانب كل كرسي طاولة صغيرة فوقها رخامة وفي الوسط طاولة أكبر تعلوها مزهرية فيها ورد ملون، وفي الغرفة علاقة ملابس ظاهرة أما خزانة الملابس فهي كبيرة بعرض الحائط الموازي للسرير الواسع ذي المساند الخشبية من جهتي الرأس والقدمين، والغرفة تعبق برائحة طيبة.

- قالت لي: اجلس، وجلست على كرسي بجانبها.
- قالت: كنت أقدّر أنك تجلس قبالتي وليس بجانبي.. أليست المقابلة أكثر حميمية ومودّه حين نكون أنا وأنت متقابلين؟!
- في هذه عندك حق.. نحن في أمثالنا نقول: اللي تحبّه قابله واللي تكره جانبه.. وقمت فجلست قبالتها على الفوتيه الكبير.
- إذا.. أنت تحبني.. شكرا على كل حال.
- أنا أحترمك.

- هي في تلميح.. أنا أريد أن تحترمني ولا تكرهني.. لكني أحب الأخرى.

- قلت متغافلا: ما هي الأخرى؟

- ابتسمت.. وظلت صامتة لا ترد.هي: هل لك في الشراب أم تريد قهوة؟

- الشراب أفضله بعد العشاء، ولا بأس من قهوة.

- نهضت لتدخل المطبخ تعد القهوة.. وقبل أن تجتازني قلت لها أريد سيجارة أولا في انتظار القهوة.

- حالا.. وعادت إلى خزانة صغيرة بجانب السرير الكبير، وجذبت جارورها وأخرجت علبة سجائرها وأشعلت سيجارة لي وأخرى لها.. ثم جلست بجانبي في الفوتيه الكبير. وقالت متخابثة وهي تضحك: أنا الآن أكرهك.

- ولكني لا أكرهك بل...

- لكنّك لا تريد أن تقول الأخرى.

- الأخرى لها وقتها.

- ضحكت أساريرها.. وشع فرحها من الداخل فتبيئن على وجهها.. ثم قالت الأمور مرهونة بأوقاتها وجذبت نفساً طويلا وأطفأت السيجارة ونهضت قائلة حالا تكون القهوة جاهزة.

- تجاذبتني الخواطر حين خرجت.. ما سبب هذا الاحتفاء الزايد بي؟!

لماذا تجوّلت بي في مرافق بيتها بما فيها غرفة النوم والتي تعتبر من الخصوصيات.. ثم تلك الوجبة التي أعدتها بنفسها وأحضرتها إلى غرفتي، وهذا التحول في معاملتي من العادي إلى الاهتمام غير المعهود هل المرأة حدث لها إنعكاس ما، حين تجسّست علي في تلك الليلة، وكان معي ضيفه؟ وسمعت ما سمعت من حركة، وربما أصواتاً لا اتذكرها الآن؟ وكيف صدرت مني أو من ضيفي، وما نوعها وكيف كانت؟ تجاذبتني خواطر شتّى تدور حول علاقتي بهذه المرأة التي أنا الآن في حجرة نومها أجلس على أريكة فخمة وأدخن من سجائرها وأنتظر قهوتها تعدها بنفسها وستقدمها لي بأريحية، هي الآن تقوم على خدمتي، وأنا في حكم الخادم لها، فهي التي تدفع لي ماهيتي في نهاية كل أسبوع نظير غفارتي للعمارة التي تملكها، الأمر يبدو لي غير طبيعي، أو من وراءه مآرب خاصة تنويها وتبيّت فعلها حين تكون الفرصة سانحة، وربما هذه فرصة سانحة بالنسبة لها، فزوجها متغيب خارج المدينة، وهي عارفة أنه سيبيت ليلته خارج البيت.. لذلك تذرعت بأن لهم عيدا في هذا اليوم لتبرّر تقديم تلك الوجبة لي، ثم استدراجي إلى بيتها، وموانستي وخدمتي والتبسط معي حديثا ومعاملة، ولعلها تفاجئني بعد قليل بما لا يخطر على بالي.

- جاءت تحمل صينية القهوة، وبها فنجانين ووعاء القهوة، وطبق به حلويات مشكلة، وضعته على الطاولة الكبيرة التي تتوسط الصالون وجلست في الكرسي المقابل لي، وقالت: الآن عدّلت الوضع الغير

مرغوب فيه فأنا الآن في وضع؟.. ماذا قلت عنه سابقا؟.. نسيت.

- أنت الآن: في الوضع المطلوب والمرغوب كما يقول المثل في معناه الإيجابي.

- ماذا يقول المثل؟!.. ذكّرني به.

- يقول: «اللي تكره جانبه واللي تحبه قابله».

- نعم إن الأمثال دقيقة في تعبيراتها صائبة في معانيها.

- إنها دستور الجماعة.

- وهي في الغالب متشابهة في معانيها، وإن اختلفت تراكيبها اللفظية بين الشعوب.

- وتعبر الحدود وتجتاز الفواصل بين البلدان وتستوطن بشكلها الأصلي أو مع التحريف في المتن، والحفاظ على المعاني.

- نعم: «اللي اتحبه قابله واللي تكرهه جانبه».

استغرقت جلستنا دقايق معدودة، دخّن كل منّا سيجارته واحتسى قهوته، بعدها قلت لها سأغادر لتناول الطعام - هديتك بمناسبة عيدكم

- ثم أغلق باب العمارة بعد أن يدخل جميع الساكنين إلى بيوتهم.

- وبعد ذلك ماذا تنوي فعله؟

- سآوي إلى فراشي في غرفتي كالعادة.

- ولماذا لا تعود إلى هنا لنشرب سويا كاسا.. أنا عندي أنواع كثيرة

منه.. وأنا في العادة لا أنام قبل الواحدة بعد منتصف الليل.

- أنا شاكرا لك دعوتك هذه.. وسأقبلها كما قبلت هديتك بمناسبة عيدكم ومرة أخرى مبروك عليكم.
- إذاً أنا في انتظارك.. على ألا تتأخر كثيرا.
- حالا بعد أن يدخل كل ساكني العمارة سأكون هنا.
- ستجد كل شيء مرتبا من أجل السهرة.
- أنا لا أستطيع السهر كثيرا من أجل باب العمارة صباحا فلابد أن أفتحه قبل السابعة.
- دعك من التفكير في هذا الآن.. ربما يحلو السهر فتغير رأيك.
- لكني لا أنسى واجبي بخصوص الباب، فهذا مسؤوليتي تجاه السكان.
- أنت نسيت.. أن يوم الغد هو الأحد نهاية عطلة الأسبوع والسكان ينامون إلى منتصف النهار.. بعد أن يكونوا قد قضوا ليلتهم في سهرة جميلة في بيوتهم أو خارجها.
- لكن الذين يسهرون خارج بيوتهم يعودون أحيانا في وقت متأخر من الليل وكنت دايما أنتظرهم لأفتح لهم الباب.
- ألا تعلم أن مجلس سكان العمارة قد اتخذوا منذ يومين قرارا بأن يتناوبوا بينهم مهمة فتح الباب ليلة الأحد، وهذا القرار يسري على الجميع منذ الليلة.

- هذا لا شك في صالحي لقد أعفوني في هذه الليلة من السهر حتى الفجر.
- وأن تعتبر هذا اليوم أجازة لك، تذهب حيث شئت، وتسهر في الليل مع من تحب.
- إنها بشرى زفّت لي بمناسبة عيدكم المبارك.
- وعليك الآن أن تذهب مطمئنا لتناول عشاءك.. والا ما رأيك أن أعد لك هنا عشاء خفيفا مع (ميزات) كثيرة وشرابا من نبيذ فاخر.. فلا تخرج الآن لتعود مرة أخرى.. كانت تحترس أن يراني بعض سكان العمارة وخاصة أولئك الذين تطل نوافذ شقتهم على الممر الطويل بين العمارة والباب الخارجي.. فلا داعي للخروج والدخول.
- والعشاء الذي ينتظرني في غرفتي، وهو وليمة فاخرة كما لاحظت؟
- اتركه.. لا داعي له.. عندك عنا البديل الأفضل.
- كما تشاءين.. فأنا اليوم أعتبر نفسي ضيفا عليك.
- أنت ضيف مبجل ومكرم.. سيما وأنك تشاركنا عيدنا.
- نقول في أمثالنا: «حكم الضيف فيد المضيف».
- إذاً فأنت الآن محكوما عليك.. وأنا الحاكم المستبد.
- على ألا يكون الحكم جائرا.
- الأحكام دايما تكيف حسب الجرم.. والجرائم لها توصيف، وتطبق بشأنها أحكام منصوص عليها في مواد القانون.

- أنا الآن واقع تحت حكم مستبد فعلي أن أسلم أمري وأن أطيع.

- سلّم تسلم.

- يقولون: لا سلامة من الخلق.

- ليس هذا بصحيح دايما.

- أليس في الأمثال المتداولة في أكثر من بلاد: «إن سألت عن العلم.. الله هو العالم.. وعن الظلم فرعون هو الظالم.. وعن الناس لا حد من حد سالم.

- وهل تضمن لنفسك السلامة في هذه الليلة.. ما دمت تقر بذلك؟!

- سأقاوم أن أعتدي علي أحد.

- وهل تدخل في عراك مع الآخر.

- ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وسأكون شرساً.

- ربما يكون خصمك عنيدا.

- لن أستسلم بسهولة.

- وقامت مستأذنة بعد أن نفضت عقب سيجارتها في منفضة من نحاس كانت إلى جانبها على الطاولة الصغيرة، قائلة أنا داخلة المطبخ لإعداد مائدة صغيرة تحوى أطعمة خفيفة وسأحضرها في صفرة إلى هنا.. وسيكون احتفالنا بالعيد في مجلسنا هذا.

- يقول: ظل هو جالسا في كرسيه وأشعل سيجارة.. أما هي فقد

غابت ساعة من زمن، ثم عادت تحمل بين يديها صفرة عامرة بأصناف الميزات: أجبان من كل نوع وشكل.. شرائح سمك مقلي.. نقانق.. خبز محمص.. سالمون وكافيار.. مكسّرات مشكلة، ثم أتبعتها بطبق كبير يحوي أنواعا من الفاكهة، وصطل به قنينة ذات شكل نادر وبها نبيذ معتق فاخر، لا يقدم على المائدة إلا في الأعياد، والمناسبات الخاصة وجلست في مكانها فوق الفوتيه قبالة ضيفها.. هنيهة ونهضت مرّة أخرى وهي تقول : الآن سأحضر شراب «البرتيف» ما يبدأ به عادة في جلسات الشراب، أو المقبّل الذي يأتي قبل الطعام مع المكسرات والميزات الأخرى وهو أنواع، والتفت بعد أن خطت خطوة إلى الضيف تقول: بماذا تريد أن تبدأ: ويسكي أم جن أم شراب آخر؟

- قال: أنا أشرب ما ستحضرينه.. لك الاختيار، وإن كنت أفضل: الجن والويكي والشراب الآخر.. وإن كان هناك غير الآخر.. أشربه أيضا.. وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة ظهرت من خلالها أسنانه العلوية البارزة.. نمت عن خبث ومكر ووعيد في الوقت نفسه.

- ابتسمت وبرقت عيناها وأومت إليه بالسبابة والوسطى متوعدة دون كلمة، ومشت نحو خزانة صغيرة في ركن قريب من الكنبة وفتحتها فبانت منها قنينات مختلفة الأحجام بها شراب تختلف ألوانه بين قنينة وأخرى بعضها أبيض، والبعض أصفر، وآخر أحمر داكن، وغيره يأخذ لونا بين بين.

- كانت الخزنة قريبة منه.. نظر إليها وهي تأخذ قنينة الويسكي وترفعها إليه بعيد تستشيره في أمرها.

- قال: هي هذه بعينها.. أخذت أخرى من نوع آخر ورفعتها.. قال وهذه أيضا. رفعت الثالثة من نوع مخالف.. قال: وحتى هذه.

- ضحكت من دعابته، وضحك هو وقال: الآن حقا عيد.

- وضعت القنينات الثلاث فوق الطاولة الكبيرة التي تتوسط الصالون وأحضرت صطلا به مكعبات من ثلج وضعت فيه قنينة الويسكي وتركت قنينة الجن والفودكا خارجا، ثم أخذت كأسين وأشارت إليه: أي شراب يريد.؟

- قال: من هذا أو ذاك وأشار إلى:- الجن والفودكا - حتى نسخن أولا ثم نبرد بذاك الذي وضعته في الثلج، وإن كنت أفضل أن نبدأ - بالكنياك إن وجد في تلك الخزانة: (البار).

- قالت: هناك أفضله: كوالفيزير..ونابليون.. أيهما تفضل؟

- نابيلون طبعا.. لعلّنا نغزو كما غزا وننتصر مثله.

- يا لك من مناور خطير.. وتوعدته مرة أخرى بيدها.. ونهضت فأحضرت طلبه المفضل.. وقالت : خذ لتستمد منه العزم والحزم.. كان نابليون فارسا مقداما ومحاربا لم يخسر معاركه إلا مع النساء وجوزفين بالذات.

- ألم تكن له عشيقة اسمها فيسه؟ كان هذا هو اسم اليهودية.

- يا ملعون..قالت: وسحبت قنينة الكنياك: ماركة نابليون وصبت له في كأسه وصبت لها.. ثم مدت له بالكاس وهي تبادله نخب الصحة. ثمّ الشراب قبل أن يتذوقه أخذ منه قليلا على طرف لسانه يعاينه،
- درسا تعلمه من جانيت.. حين كانت تدربه على الإتيكيت في كل شيء وقال: هو المطلوب، وضع السيجارة المشتعلة بين أصابعه على حافة المنفضة، وتناول الكاس بيده اليمين وأفرغ الكأس مرة واحدة، أتبعها بحبة من لوز محمص ووضع الكاس.. فعلت كما فعل أفرغت كأسها في جوفها دون أن تأخذ شيئا من الميزات، وصبّت الكأس الثانية، بعد الثالثة توقفت عن ملئ الكأسين، وقالت أما أنا.. تعودّت في مثل هذا الوقت أن آخذ دشاً باردا. فإذا تريد أن أملأ لك كأسك سأفعل.. أو تنتظرني.. لن آخذ أكثر من عشر دقايق.
- املئى لي وسأنتظرك في الأخريات الباقيات.
- يا لك من ماكر خبيث قالت: وصبت له كاسا وذهبت.
- دخلت حمامها وأخذت تباشر نظافتها كما تراءى لها، ثم خطت إلى حوض دش القدم وفتحت الماء في الأثناء عنّد للطيف أن يقصد ناحية الحمام وكان لا يفصله عنه إلا الصالة الصغيرة التي تفصل منافع الخدمة عن جناح النوم.. جاء دون أن يحدث جلبة، ووقف قرب الباب وأصاغ السمع في شبه تجسس مسموح به فهو داخل الدار ولم يأتي من خارجها كما فعلت هي في مرّات سابقة عندما

كانت تتجسس عليه وعلى ضيوفه.. سمعتها تترنم بأغنية لم يتبين كلماتها المختلطة بصوت رذاذ الماء الذي كان يسقط على جسمها.. حالة فضولية اعترته فجأة قام ليفعلها.. وماذا يحدث حتى لو فتحت الباب.. مضت برهة ثم انقطع الماء فهي الآن أكملت دشها ولابد لها من وقت تجفف فيه جسمها، وتقف أمام المرآة، وتتفقد زينتها الخفيفة، التي كانت بها قبل دخول الحمام، قبل أن تخرج عاد إلى مجلسه وأشعل سيجارة وعبّ ما كان باق في كأسه وظل ينتظر.

- جاءت منتشية تدندن بمقطع من الأغنية التي كانت تغنيها في الحمام. كانت تتلفع بمنشفة كبيرة (فوطه) تعقدها فوق نهديها وتحسرها عن ساقيها، ولأن المرأة كانت طويلة القامة وبدينة فقد تعرّى، نصف فخذيها، لم تجلس في الفوتيل حيث كانت تجلس، ولكنها قصدت خزانة الملابس القائمة بموازاة السرير على الحائط المقابل وأخذت تبحث عن شيء في الخزانة.. كان هو يراقب المشهد عن كثب، يجذب أنفاسا من السيجارة وعيناه لا تتحولان عنها.. فجأة تنحل عقدة المنشفة فوق نهديها وتسقط.. تزوّر هي قليلا وتنحني لتلتقط المنشفة وتعيدها كما كانت.. حدث ذلك تلقائيا أو عن عمد؟ هو لا يعلم لكنها تعلم ولم تقل شيئا أو تعلّق بشيء، فقط سمعها قالت: بردو.. وعادت تهتم بشأنها.

- قال: عطشان بصوت مسموع.. يعني مزيدا من الشراب، أو ما يعني

- ينبهها أن تملأ له كأسه. أنا آتية قالت.. وتحركت نحوه تضم المنشفة

على جسمها وتحرص على ألا تسقط منها مرة أخرى وهي تبتسم، أخذت تنحني بحذر وتصب له كأسا ولها كاساً.وقالت أستأذنك عشر دقائق فقط لأصلح من زينتي وصحبت معها الكأس وجلست أمام المرآة في الغرفة قريبا منه وأخذت ترسم وتعيد وتخطّ وتهذب وتشكل وتغير، ولا تنقطع عن الغناء في صوت مبغم، وهو ينظرإليها وفي يده الكأس والسيجارة بين أصابعه في اليد الأخرى، وتسبح خواطره في خيالات وتصورات شتى، وأحيانا يرحل بعيدا ويحط الفكر في محطات مختلفة مرة في الحدود الفرنسية الشمالية حيث دارت المعارك الذي كان أحد جنودها، ومرّة أخرى يكون حيث تكون جانيت في المستشفى العسكري، وسرف في ليل، ويعبر به الفكر البحر فيكون في تبرسق من الغرب التونسي، حيث الدوار الذي ولد فيه وترعرع، ومرابع الصبا مع الخلان والأتراب، ولا نيس أن يذكره بفتيات كثيرات كانت ترشحهن أمه له كزوجات في المستقبل وعلى رأسهن امباركة بنت خالته تلك الحولاء صاحبة الأنف الأفطس والقامة القصيرة والعجفاء، هي القميئة في جميع الأحوال. كل هذا يحدث في لحظات هو الخيال أسرع من كل سرعة تم قياسها حتى الآن، وينتبه فجأة إلى أنه كان يحلق به الفكر بعيدا، ويعيد البصر إلى نيسة وهي لاهية عنه ومن أجله، تبالغ في زينتها كما قدّر هو، فيأخذ نفسا طويلا من السيجارة ويعبّ الكأس مرة واحدة وينادي: (عطشان يا صبايا، أغنية كانت سائدة في ذلك الزمن، تجيبه نيسة:

حالا يأتيك الماء – تقصد: الشراب.. وتقوم فتصب له ولها وتعود الي حيث كانت قائلة دقايق معدودة وننهي كل شيء.. يزفر زفرة يتبعها برشفة من الكأس ويقول: «المليح يبطا».

- تجيبه: يأخذ وقته ويأتي أبهى.
- يقولون : «أش اطّلع عزيزه من دارها».
- و«لا تلام النساء على طول الوقت في زينتها».
- «اللي يصبر ينال.. والصبر مفتاح الفرج».
- «اصبر يا صابر يا مالك من خير».. دقيقه وأنهي.
- دقيقة (الحفالات» بساعة.. وساعتهم بعام.
- تضحك وتقول: خلاص.. انتهى كل شيء فقط خط الحاجب.
- هو ذاك أصعب شيء في رسمه، وأطول وقت يأخذ في زينة النساء، يصمت ويكف عن الجدال، ويقبض على كأسه ليأخذ منه لكنه يستدرك أن كثرة الشراب في وقت قصير قد تسكر وهو لا يريد أن يسكر كما كان فعل من قبل حين يكون وحده لا جليس له، ويريد أن ينام ولا شيء وراءه غير النوم.. أشعل السيجارة وقرّر أن تكون الأخيرة قبل أن تأتي بسرعة كما وعدت فهو يريدها أن تشاركه في السجائر والشراب.
- وجاءت – بعد أن كاد صبره ينفذ – وجلست قبالته في مجلسها الأول بعد أن ارتدت فستانا للسهرة من أفخر فساتينها، وكأنها ذاهبة إلى حفلة عرس.

- قالت: ها أنا جيت.. كيف تراني؟
- بدر منير.. قال: حقاً أنت جميلة الآن.. وجميلة كنت.. وأصبحت شهية.
- أهذه قناعة.. أم هي مجاملة؟
- أنا لا أجامل في الحق.. أنت جميلة وشهية والجلسة معك ممتعة لولا أنك استقطعت منها وقتا بين الدش والتزيّن.
- وكيف أكون جميلة وشهية كما تقول إذا لم أفعل ذلك؟!
- عندك مقومات كثيرة تجعلك جميلة ومشتهاه.
- منها على سبيل المثال؟
- التلقائية.. سماحة وجهك وأساريرك المنبسطة دايماً.. ابتسامتك المرحبة حين اللقاء.. هذا القد والجسد الممتلئ لحماً وشحمًا.
- بعض الرجال يحبون المرأة الخفيفة من اللحم.
- ما كانت المرأة محبوبة إلا عبلة مثلك.
- إذاً لي أن أفتخر بهذا الجسد.
- وأي فخر.. إن جسدك قبلة لأعين العشاق.
- وهل أنت منهم؟
- أنا متيّم.. ومتلهف.
- أنت عجول.. الآن بدأت الجلسة.. أو قل الاحتفال بالعيد.

- أي عيد أنا لم أسمع بعيد لليهود في هذه الأيام، وقد مرّ بي جاكوب اليهودي صاحب متجر الذهب في هذا (الزون): (الحي) ولم يذكر أن لليهود عيداً، وكان في أعيادكم دايما يقدم لي شيئا من الحلويات.

- أو ليس هذا بعيدنا نحن؟!.. أنا وأنت؟.. هذا الطعام والشراب وهذه الخلوة.. هذا الاحتفال الصغير.. ألا يليق به أن نسميه عيدا.. فقط عليّ أن أشعل الشمع.

- ولنعتبره عيدا.. في نفسه بل إنه بالنسبة لي أكثر من عيد.. وأنا هنا في غرفة نوم مدام نيسة.. ربة العمارة التي أنا حارسها، وكنت أنظر إليها بتهيب وخشية.. فإذا أنا هنا في ضيافتها تحتفي بي وتخدمني. أليس هذا بعيد؟!

- وعيد كبير أيضا بالنسبة لي.. وأطلب منك أن تناديني باسمي مجردا من حيثيتي . نيسة فقط دون أن تضيفها إلى كلمة مدام.

- هذا يسعدني ويقرّبني.

- ويسعدني أنا أيضا أن نسمع منك اسمى مجردا، وأنت قريباً أكثر مما تتصور.. أنت الليلة عامرة بك هذه الغرفة.

- ألم تكن عامرة في كل الليالي بزوجك، البرتغالي التاجر الكبير والمعروف؟

- ولأنه تاجر كبير ومعروف فالغرفة تفقده معظم الليالي فهو إما مسافراً يلاحق تجارته في كل مكان، أو هو عند إحدى خليلاته في

بيتها الريفي القريب من مرسيليا.

- وكيف عرفت ذلك.. أن له خليلة أو خليلات؟

- تجسست عليه حين لاحظت عليه تغيرًا في المعاملة والسلوك.. والمرأة الفطنة لا تخفى عليها مثل هذه الأشياء.

- كيف كان ذلك؟.. هل تجسست عليه كما تجسست علي تلك الليلة؟!

- أي ليلة تعني؟

- ليلة كانت معي مدام مسيو ريمون.

- هل كانت هي التي معك في تلك الليلة؟!

- نعم هي بعينها وقد أنصت إلينا من خلال النافذة الصغيرة.

- وكيف عرفت أنت ذلك؟!

- رأيتك من خلال النافذة وأنت تسرعين الخطو وفي يدك كرسي الحمام.

- يا لك من ذئب.. أنت لا يقدر عليك أحد.

- إلا أنت.

- كيف؟

- ألست من جرّني إلى هنا بأسلوب ساحر، لا يقاومة أكثر الرجال استقامة وزهدا، وحتى التزاماً وتديناً؟!

- هل لي كل هذه المواهب وأنا لا أدري؟

- أنت ابنة هاروت وماروت. بل فقتهما في سحرهما، وإنك لقادرة على

الإيقاع بأكثر المتحصنين بالفضيلة وحسن الخلق.

- لا شك أنك تبالغ..والآن قل لي كيف أوقعت مدام ريمون؟ أو هي التي أوقعتك؟

- لا هي ولا أنا.

- من إذاً؟!

- الشيطان الذي أوقعنا بقليل من مكره.

- هي أيضا شيطانة ماكرة.. أنا أعرفها وأعرف أساليبها للإيقاع بالرجال: إنها ماهرة في هذا الفن.

- لكنها ليست في قوة سحرك وتأثيرك على الأقل هذا ما لاقيته منك.

- وهل لقيتها كما تريد؟

- لم تكن لي فرصة للمقارنة حتى الآن.. ربما في المستقبل تكون المقارنة.

- القريب أم البعيد.

- لا أعلم.. عندما أجرب غيرها.

- ألم تجرب قبلها؟!

- ذاك كان في زمن بعيد حين كنت في المستشفى العسكري وفي ليل.

- هل كنت في المستشفى العسكري وفي ليل؟

- نعم كنت جريحا في معركة دفاعا عن فرنسا، ثم دخلت المستشفى ومكثت فيه عامًا وذهبت في زيارة إلى ليل مدينة جانيت وهذه

حكاية طويلة ربما واتت الفرصة لأحكيها لك في المستقبل.

- يا لك من رجل مغامر! وما حكاية جانيت هذه؟

- حكاية عجيبة.. عرفت فيها كيد النساء واكتسبت منها تجارب وخبرات.

- ومتى تحكيها لي.. لقد شوقتني إلى سماع هذه الحكاية.. هل كانت جانيت جميلة؟ متزوجة أم عازبة؟

- لا متزوجة ولا عازبة.

- كيف ذلك.. احكيها لي بحق موسى.

- وهل هذه ليلة حكايات؟ أفي العيد يحكى الناس؟

- معك الحق.. لكن لا تنسى أن تحكي لي عن جانيت في ليلة أخرى لا تكون ليلة عيد.

- ليلة أخرى؟ نعم.. أما في ليلة العيد هذه كما قلت أنت. فلها شأن آخر.

- لندع الحكاية إلى وقتها.. لكنك لم تجيبني عن سؤالي كيف لقيت مدام ريمون؟

- كانت رائعة.. قمة إمتاع.. ولا أعتقد أن تصل إلى مستواك أنت.

- كيف؟ ألم تقل كانت قمة إمتاع؟!

- ومن أدراني أنك لا تكوني قمة القمم؟ ومن ناحية أخرى هل هي مثلك جمالا؟.. أو ريّا وامتلاء؟ وبعد هذا وذاك أنت أصغر منها سناً.. وأنت مرغوبة أكثر بالنسبة لي، وأعتقد الآخرين كذلك.

- ألا تبالغ في إطرائي، أو في مجاملتي؟ في ليلة العيد هذه.
- أنت بالنسبة لي جميلة وربّة ممتلية وأنا أفضل هذا الصنف من النساء، زيادة على لهفتي ورغبتي فيك.
- ياه. نسيت كأسي لم يفرغ بعد أخذتني بالحديث.. أنت الساحر الكبير.
- أنا كأسي فارغة من وقت طويل وكنت أنتظر أن تجودي فلم تفعلي.
- ألهاني حديثك.. أنت الذي عرفت جانيت ومدام ريمون وربما غيرها.
- وهل هما مدام ريمون وجانيت فقط؟ وماذا يكون الحال لو حدثتك عن سوزي والممرضة وأخريات لم أحتفظ بأسمائهن في ذاكرتي الآن؟
- لا تذكر لي نساءك من فضلك.. وأنت في حضرتي، والآن لنغيّر الشراب يكفي من الكنياك.. وليكن شرابنا الآن: بلاك ليبل إنه أصلح مع الميزات المنوّعة وخاصة المكسرات والسمك المملح.
- كما تشائين.. ولن أذكر نساء عرفتهم سابقا بعد الآن فأنت أفضل من عرفت.
- أحقا تقول؟!
- لا أقول غير الحق.
- أنا أعرف مدام ريمون.. أنا أجمل منها وأصغر وسأكون الأفضل.. لكني لا أعرف جانيت وأخواتها.

- لا بأس بهن وأنت الأروع فيها أرى وأعتقد وما غاب عني لا أعلمه.
- ستعلم وتقارن.. ولك أن تحكم بما يبدو لك.. مدت له بالكأس وشربا نخب الصحة وقامت تتفقد زينتها على المرآة.

استأذنها في أن يغتسل.. فطلبت منه أن يتمهل قليلا كي تحضّر له منشفة نظيفة وروبا للحمام ونعلا.. ثم تحركت لتخرج هذه المستلزمات من خزانة في جانب من الحمام وتضعها في مكانها المخصص وعادت تقول له: ادخل الآن بسلام.

ظلت هي تصلح من زينتها، غيرت وبدلت وقايست وعاينت طيلة غيابه هو في الحمام، زها نصف ساعة أو تزيد.. كانت في الأثناء تفكر كيف تبدع وتبتكر أساليب جديدة ربما لم يراها من قبل.. تريد أن تتفوق عليهن جميعا.. تذكّرت أوضاعا مثيرة مارستها مع زوجها وعشيقها قبل أن تتزوج، كان لها الأثر البالغ في إدخال السرور والبهجة على كل من عشيقها وزوجها.. حتى أن زوجها صارحها ذات مرة بأن لها من المهارة وأساليب فن الحب ما يدعو إلى العجب وأنها لم تأتيها من قبل. فمن علّمها؟ أو هي من إبداعها؟!

تذكر أنها قالت له يومها: إنه ابتكار وتجربة تمارس لمرّة واحدة وإلا فقدت طعمها. أما مع عشيقها قبل الزواج، فكان منها إبداع لا يتكرر الأمر الذي ظل مذهولا به مدة طويلة ويطلبه منها في الفراش، فكانت تجيبه: «ذلك وليد وقته».. هو الفعل التلقائي لا يفتعل ولا يعاد. والآن

وقد تجاوزت الأربعين ولها من التجارب والخبرات، والثقافة التي اكتسبتها من القراءات والأحاديث والحكايات وثرثرة النساء.. الآن هي قادرة على أن تكون في مستوى تتفوق به على مدام ريمون وجانيت وغيرهن من صاحبات عزوز اللاتي ذكرهن، وليشهد لها بعد ذلك بحق وفي غير مجاملة، وستحتفظ ذاكرته بما يرى منها ويسمع، حين اللقاء الذي هيأت له نفسها عاطفيا وجسدياً، وسوف لن يذكر بعدها غيرها، سيرى منها العجب العجاب، لما لها من خبرة واسعة، وتجربة خصبة، ومهارة في فن الحب، اكتسبتها في أجواء العشق والغرام عبر سنوات الشباب. هذا ما كانت تفكر فيه وهي ترعى زينتها وتهذبها في انتظار الضيف الكريم الذي دخل يغتسل.

أما هو فقد استعرض أساليب الفراش التي مارستها معه كل من جانيت وسوزي، والأخريات، وكانت الممرضة أبرعهن وأكثرهن خبرة بهذا الفن، فهي التي كانت تأتي في كل مرة بأسلوب جديد، ليس من محفوفها ولا من إبداعاتها السابقة، لكنه كان ابتكاراً، وليد اللحظة في أثناء البدايات ووسط الفعل وحين الذروة، فكان يهذى كما هي تهذي بكلام لا رابط بينه، أغلبه من فحش القول، يردد أحيانا ما تقوله هي، أو يجيبها عن طلب تريد فعله، وأحيانا أخرى يختلط قوله بقولها تطلب فيجيب، تسب وتلعن، تصرخ وتموء، تستغيث وتطلب العنف، يعنّفها ويترفق بها، تقول اقتلني فيفعل وبعد أن تموتي، فأظل في غيبوبة فاقدة للوعي، مطروحة كالخرقة فوق الفراش، يداها ممدودتان شمالا

ويمينا، مغمضة العينين، منفرجة الشفاه، تتنفس في هدوء. هكذا تبقى لدقايق معدودة بعدها تفتح عينيها شاكرة حامدة. دارت بخلده هذه الخواطر وهو يرقد داخل حوض الحمام المملوء عن آخره بالماء الساخن، يستعد للقاء قريب. هي ذكرياته القديمة إنهالت عليه بتلك الخواطر التي حدثت فعلا في أيام مضت، كونت عنده ثقافة جنسية، لم يكن يعرفها أيام شبابه قبل أن يطلب للتجنيد. اطمئن إلى تلك المعلومات والثقافة التي هو عليها مع وجوب التغيير والتحوير حسب مقتضيات الحال، مع كل جديد، وفي الوقت المناسب بعد المناورة وتحسس المواقع، واكتشاف المفاتيح.. هناك مفاتيح سرية للإثارة لكل حالة على حده، هو يعرف هذه القضية، إذاً ليس عنده مشكل فيما هو قادم عليه بعد حين.

ظل معمّقًا جسده الطويل العريض في ماء الحمام الساخن بعد أن سكب من قنينة بجواره سائلا للتنظيف الذي أحدث رغوة بيضاء طفت حتى فاضت مع بعض الماء على أرضية الحمام حين غطس بكل جسمه، فانتبه ونهض قليلا فانحسر الماء وعادت الرغوة، أقفل مصدر الماء ومد يده إلى المغلاق السفلي عند مرمى قدميه فحوله.. حينها تسرب الماء وانتظر حتى تناقص ثم قفله، وظل يدعك أطرافه بيديه.. بعدها امتد بجسمه داخل الحوض، نجد أن أكتافه ظلت خارجا.. نظرا لطول قامته، فكان يثني رجليه لتغطي أكتافه ويخرج أكتافه لتمتد رجليه.. استغرق وقتا أكثر من اللازم وهو في الحمام، الأمر الذي ارتابت معه نيسه في الأمر، فجاءت تستطلع.. وقفت أمام الباب ونادت: عزوز...

- نعم.. أدخل.
- فتحت الباب ربع فتحة وقالت عفوا.. ألم تنتهي بعد؟
- لا أدخلي.. تفضلي..
- أنت أخرج.. هل يلزمك شيء؟
- لا.. يلزمني أن تدخلي..
- أنت عليك أن تخرج إذا أنهيت حمامك.. أنا في انتظارك وقفلت الباب.
- فشلت مناورته.. لكنه اعتبرها من مقدمة المداعبات.. وفتح المغلاق ليتسرب الماء نهض وفتح الماء الذي يسقط من أعلى حتي يتنظف من عوالق الصابون والأدران.. انزاح الماء كله، وضلت بقايا رغوة الصابون عالقة بجوانب الحوض وقد استمالت إلى لون رمادي بفعل الأدران التي خرجت من جسمه، وتحت قدميه وجد ركاماً مما أزاله الماء والصابون من جسمه.. استغرب الأمر لكنه استدرك أنه لم يستحم منذ أسبوع، فهو عادة يذهب إلى الحمام العمومي كل صباح أحد.. وتذكّر أن اليوم هو يوم الأحد وقد شغلته منذ الصباح مدام نيسه، فنسى الحمام وظل معها منذ أن تناولت معه القهوة على باب العمارة صباحا وحتى هذه الساعة.
- أخذ يصب الماء على تلك الأدران تحت قدميه وعلى جوانب الحوض ويعالجها بليفة في يده حتى زالت تماما، فارتاح لذلك، حتى إذا

دخلت بعده نيسه لأمر ما لا تجد شاهدا على قذارته.

- جفف جسمه بالفواطة الكبيرة النظيفة المعطرة، وارتدى روب الحمام، ودس رجليه في نعل بيتي مدته به نيسة، لكنه ينقص عن قياسه بأربع أرقام فظلت قدميه خارج نهاية النعل تمس الأرض فاختلت مشيته. أقبل بقامته الطوية يرتدي الروب على اللحم وقد ربط حزامه من أمام فكان صدره عاريا يغطيه شعر كثيف أسود.. سبقته نيسة فجلست في مجلسه وتركت له الفوتيل الكبير لتكون له راحة أكثر، وحوّلت كأسها قريبا منها ووضعت له كأسه.. أخذت صطل الثلج فحركته بملقاط وأخذت قطعاً منه، وضعت في كأسه وكأسها وصبت من قنينة بلاك ليبل لم ينقص منها إلا مقدار كأسين أخذهما قبل أن يدخل هو ليغتسل، وهي لتجدد الزينة.

- الآن اكتمل الاستعداد، وتهيئت الأجواء، وبدأ مراسم العيد - كما سمياه مجازا - تتبع بعضها واحدة بعد أخرى، وما هي إلا كؤوساً وأحاديث غزل، ونظراً وابتساماً، وخيالاً وتصوراً، ومشاعر داخلية مضطرمة، وإحساساً، ورغبة، وشغفاً، وإثارة هي عبارة عن مقدمات لما سيحدث عمّا قريب من معركة قد تخلّف دمارا كبيراً، يعقبها سكون ترفع أثناءه رايات الاستسلام. قاربت الساعة أن تدّق معلنة منتصف الليل، فبدأت نيسة تستعد لإطفاء نور الثريا الكبيرة معلنة بداية العيد.

- أخذت تلقّن عزوز: سنة حلوة يا جميل.. تنطقها باللغة الفرنسية وهو يردد وراءها حتى أتقنها. وحلّت ساعة الصفر، فأشعلت شمعة ملونة واقتربت من مفتاح النور، ونادت عزوز ليقف بجانبها حيث تبدأ أول مراسم العيد.. جاء الرجل ينفذ الأوامر وذهنه خال ممّا سيحدث بعد ذلك ووقف بجانب نيسه وهي تستعد لإطفاء النور وبداية الحفلة فعلا.

- تبيّنت موقع عزوز منها وحدّدت ارتفاع قامته ثم ضغطت على مفتاح النور، فعم الظلام إلا من نور تلك الشمعة الملونة، وهجمت على عزوز فتعلقت برقبته الغليظة وهي تزيد من طول قامته بأن وقفت على أطراف أصابع قدميها وغابت واياه في قبلة طويلة ثم سحبت نفسها منه بصعوبة لأنه أطبق على خصرها بذراعيه القويتين ومال بعنقه إلى أسفل ليتناسب طوله مع طولها وعصرها أكثر من مرة حين كانت تقبله.

- انسحبت فاشعلت النور وجلست تلهث من الإثارة والشبق. تبعها وجلس في مقعده وأخذ سيجارة أشعلها وهو صامت، ثم مال بعنقه إلى الوراء وأخذ نفسا طويلا وزفر وفتح عينيه فطالعه وجهه يخالطه احمرار طارئ من شدة الانفعال.

- قال: لبوة شرسة.. ما ألذك مخالباً وأنيابا!!؟

- ابتسمت وهي ما زالت في خدر لذيذ، وقالت: ما أروع قبلة العشق.

- هذه: جزء من هدية العيد.

- وكيف تكون الهدية كاملة؟!

- أروع: سيكون: الدمار.. الخدر.. اللاوعي.. الإغماء.. النعاس.. الموت.. لا حراك.. ثم اليقظة.. الوعي.. ثم الكلام الذي لا أعلم كنهه الآن.. سيكون كلاما معبرا في صدق عن المشاعر والأحاسيس، لا تحفظ فيه ولا احترام.. كلام على السجية تلقائي عفوي، يصدر عقب الوعي، ثم تكون الراحة التامة، والارتخاء والرضى عن النفس، سينتفي الخجل، وستنطق الجوارح والمشاعر بالصراحة المطلقة.

- نظرت إليه نظرة شرسة متوعدة، وأفرغت كأسها في جوفها دفعة واحدة، وهجمت عليه هجمة عنيفة كاسحة، ولم يكمل سيجارته بعد، وهو جالس في استرخاء، فأطفأ سيجارته بصعوبة فهي قد أعاقت حركته بارتمائها عليه ثقيلة ضاغطة.. وجذبها فجعلها في حضنه، وأخذ يشبعها قبلا مجموعة متلاحقة حتى خدّرها فانحلت أوصالها واستسلمت طائعة لرغباته.. هنا مسكها من يدها برفق وقادها فدفعها دفعة قوية على الفراش الوثير المرتب منذ الصباح كأنه ينتظر هذه الساعة.. هناك اعتلاها بعد أن نزع ثوبها وطوّح به بعيداً وثنى بملابسها الداخلية فمزّق بعضها تمزيقاً.

- هدأت العاصفة الأولى.. تخدّرت وشلت حركتها فكانت طريحة الفراش وما بها من مرض.. تركها غير واعية وخطى نحو طاولة

الشراب فصب كأسا لها وكأسا له، وعاد إليها، وضع كأسها فوق طاولة صغيرة بجانب السرير وجلس قريباً منها.

- عادت لها الحياة.. حرّكت يديها في كسل وفتحت عينها فوجدته جالسا بالقرب منها، وفي يده كأسه، وفي اليد الأخرى سيجارة يجذب منها نفسا، وينفث دخانها أمامه، يتابع دوائره السابحة إلى سقف الغرفة.. انطلقت منها آهة أتبعتها قائلة: يا له من إمتاع، ثم سحبت نصفها الأعلى واستندت إلى عارضة السرير بعد أن سحبت اللحاف وغطت به نصفها السفلي وابتسمت راضية في وجهه وقالت له آمرة متدللة: هات الكأس.

- مدّ لها كأسها دون أن ينبس ببنة شفة، وناوب بين السيجارة والكأس. أفرغت الكأس وانزلقت تحت اللحاف تستر ما ظل عاريا من جسمها العلوي، وأشارت إليه دون أن تتكلم بأن يشعل لها سيجارة نفذ أمرها.. شعر بلفحة برد خفيفة فقاسمها اللحاف.. احتك بها عن غير قصد.. عبثت بشعر صدره الكثيف.. مست مفتاحه السري حين زحفت أناملها نحو حبّة ثديه.. أيقظت المارد من جديد.. تلامسا أكثر في أكثر من موضع.. بدأت الجولة الثانية.. استغرقت ساعة.. قبل الفجر كانت الجولة الثالثة، بعدها همد كل شيء وخيّم السكون حتى منتصف النهار. استيقظت أولا، فايقظت الجمل الذي كان منهكاً وكانت أكثر منه إنهاكاً.. تمطى قليلا في الفراش ثم نهض واتجه نحو الحمام.. عاد وجلس ينتظرها وقد غابت داخل

المطبخ.. كان إفطار الصباح الذي تأخر عن موعده المعتاد فحلّ محل الغذاء.. خرج هو بعد ذلك نحو باب العمارة واحتل كرسيه المعتاد، وهو يشعر بكسل عام وصداع في الرأس بسبب الإجهاد والسهر والإفراط في الشراب الذي كان من كل نوع، وكانت مثله لا تقوى على الحركة وظلت بعد أن خرج من الفراش تحاول أن تغمض عنيبها دون أن تظفر بالنعاس.. انهالت على ذاكرتها أحداث الليلة البارحة.. استغربت تلك الفحولة التي لم تعهدها من قبل حتى عندما كانت فتاة في العشرين من عمرها وكانت عاشقة. ممتنةً جدا هي من ليلة العيد تلك.. لقد حققت ما اعتبرته هدفا وحققته بفضل خطة رسمتها ونفذتها، فقط كان الهاجس الملح عليها حكاية مدام ريمون التي عرفتها من خلال حديث عزوز.. لكنها عزّت نفسها بأنها المنتصر الأخير.. لكن كيف سيقارن عزوز بينهما؟ هل كانت المتفوقة في فن الحب؟! وهل حسمت الأمر البارحة لصالحها؟ تنتظر ما يعلن به هو حين تلتقي به كما تواعدا.

- أما هو فقد وضع بصمته، وترك انطباعا عندها لا تنساه، هو يعرف ذلك من تجاربه السابقة، ويعرف أنها سوف تلاحقه، فهو يؤمن بأقوال العامة: «المرأة كظلك.. اتبعها تهرب منك اهرب منها تتبعك» لذلك قرّرأن يقوم بزيارة لأحد معارفه في منطقة قريبة من مرسيليا كان يشتغل في مزرعة للورود، ليقضي معه ثلاثة أيام للراحة والاستجمام.. فبعد أن جلس عند باب العمارة قرابة ساعة عاد إلى

شقة نيسة وطرق الباب وهو موقنا أن طلباته مجابة في هذا الظرف بالذات، لقد علمته الحياة أفانين كثيرة وحيل ومكر.. فتحت الباب على عجل بعد أن تبينته من خلال العين السحرية، وهي تبتسم قائلة خير إن شاء الله.. ماذا عاد بك؟.. هل تحتاج شيئا؟.

- أحتاج.. ومن فضلك:

- أنت تأمر.. حاجتك مجابة قبل أن اعرف ما هي.

- طلب مني صديق لي أن أزوره في مكان عمله.. ربما لحاجة لم يذكرها لي.. وسأعود حال أن أطمئن عليه وقد لا أتأخر.

- لا مانع لدي إذا لم تكن صديقة وليس صديق وضحكت.

- وباب العمارة من يتكفّل به؟

- لا تشغل بالك سأكلف به أحدا مؤقتا حتى تأتي.

- لن أتأخر يوما أو يومين على الأكثر.

- تأتي بالسلامة.. انتظرني قليلا ودخلت إلى غرفة النوم.

- خرجت وفي يدها مظروفاً دست فيه مبلغا من المال أعطته له وقالت: لا تتأخر حين تطمئن على صديقك الذي أرجو ألا يكون صديقة.. وأضافت ما رأيك في ليلة البارحة؟!

- ليلة ليلاء.. أرجو أن يعود الزمان بمثلها.

- وأين هي من ليلة مدام ريمون؟

- لا وجه للمقارنة..هناك سرير مهتري يلامس الأرض وغرفة حقيرة جوها رطب.. والطاولة المحترقة بأعقاب السجاير فوقها قنينة نبيذ رخيص، والميزات كانت جزر ولفت وحبّات قصطل.
- دعني من هذا.. أنا أريد المقارنة بين الصيد والصيد؟
- كمن يقارن بين غزال وأرنب.
- شكلا أم موضوعا؟
- شكلا وموضوعا.
- أريد التفاصيل.
- عندما أعود.

ودعها وخرج وقد ظفر بالأذن ليتغيب عند صديقه أياما وفي جيبه نفحة لم يعرف قيمتها بعد.. ظلت هي تراقبه حتى وصل إلى باب العمارة وقبل أن يجتازه التفت فرآها تقف وراء النافذة، فحياها بيده ولوحت هي له بيديها الاثنين وبابتسامه فرح عريضة من بعيد.

أوقف تاكسي أوصله إلى محطة القطار.. بعد ربع ساعة كان داخل إحدى عربات القطار - فتح المظروف عدّ النقود وجدها تساوي مرتب ثلاثة شهور وتزيد.. قال في نفسه: هل هذه أجرتي؟! والمبلغ الزايد نفحة منها؟ حار في الأمر هي لم تتعود أن تدفع له أجرته مقدما.. كانت لا تدفع له إلا حين يكتمل الشهر وأحيانا تتأخر يوما أو يومين.. إنه طبع جنسها يغلب عليها.. خرّص بينه وبين نفسه أن هذه هدية ليلة العيد.

هو عيد استمتع به اكلا وشربا وسهرا وأنساً وغير ذلك من توابع السهر والأنس ومستوجباته، كان بذخ لم يتوقعه في كل شيء.

قضى ثلاثة أيام عند صاحبه استجم فيها واستعاد ليقاته وروح عن نفسه فالهواء كان نقياً والطبيعة خلاّبه، على امتداد البصر أرض خضراء، تشرق عليها الشمس، حيث كان الوقت ربيعا، ذابت الثلوج فوق قمم الجبال وسالت المياه أودية وأنهارا.. عصافير تزقزق، وورود تتفتح، سكون وهدوء لا يعكره ضجيج حركة المدينة وسخب الساكنة فيها، ودخان المصانع، ونداءات الباعة، وعوادم السيارات وأزيزها.

كان الطعام عند صاحبه بسيطا والمرقد متواضعا.. لكن الانسجام بينه وبين صاحبه تاما، والأحاديث على السجية لا تحفظ فيها ولا كلفة. كان كل شيء حميمياً بينهما، مما زاد الحياة رونقا وبهاء، فترة قصيرة من الزمن، أدخلت البهجة والفرح على نفس عزوز، فشكر صاحبه أيما شكر، ودعاه لزيارته في المدينة إذا وجد فرصة لذلك، قبل صاحبه الدعوة شاكرا ووعده بأن يزوره حينما تتاح له الفرصة. كان صاحب عزوز شاباً مغربيا في عمره تعرف عليه أيام الجندية حين كانت فرنسا تستعد للدخول في الحرب ضد ألمانيا التي كانت تهددها في عهد النازية قبيل اندلاع الحرب في أواخر سنة 1939، وصاحب عزوز هذا من شلوح الريف الشجعان وقد سرّح من الجبهة بعد أن أصيبت إحدى عينيه بشذية اقتلعت على أثرها فلم يعد يصلح للقتال. وفي أثناء إقامته في المستشفى العسكري تعرف على عزوز وتصادقا فلما خرج الشلحي

من المستشفى ظل يزور عزوز بين الحين والحين فلم تحصل على عمل في إحدى مزارع الورود أخبره بذلك وترك له عنوانه.

عاد عزوز إلى مكان عمله بعد أن قضى ثلاثة أيام في ضيافة صاحبه المغربي. استقبلته نيسه اليهودية صاحبة العمارة بفرح وشوق، وظل الوئام بينهما والانسجام لا يعكره شيء، إلى أن وشت مدام ريمون بهما عند زوج نيسة البرتغالي تاجر الفاكهة الكبير والمعروف، وكان سبب الوشاية: الغيرة.. غيرة المرأة التي حين تكون تمكر وتدبر وتدمر وتقلب الدنيا عليها وعلى أعدائها، فالمرأة لا تتنازل لأخرى تنافسها في ميدان الحب مهما كلفها الأمر وتجشمت في سبيل ذلك من صعاب، فإذا فشلت دبّرت وكادت وركبت المستحيل واستماتت في سبيل أن تشفي غليلها من غريمتها، ويأتي بعد ذلك الطوفان.

ذات أحد تفرغ زوج نيسه لها، بعد أن تزرع لخليلته صاحبة الفيلا في الريف بعدم زيارتها لأمر ما، وكان يزورها في أغلب أيام الآحاد. ظل زوج نيسة في ذلك اليوم في البيت على غير عادته، وبعد طعام الإفطار جلس ونادى زوجته لتجلس معه من أجل شأن يخصهما.

قال الزوج مباشرة: إن علاقتك ببواب العمارة تسامع بها الناس وهي سيرة أصبحت على كل فم داخل العمارة، وأنا آخر من سمع.

وسيرتك وعلاقتك بصاحبة الفيلا الشهيرة في الريف، هي أيضا تسامع بها الناس في العمارة وخارجها والمدينة كلها. وأنا أول من سمعها.

- إذاً هي واحدة بواحدة ؟!

- أليس هذا إنصاف؟!

- نعم.. والحل؟

- ننفصل

- ليكن.. والأولاد.؟

- البنت أصبحت راشدة.. لقد تجاوزت العشرين من عمرها فهي حرة.

- والولد؟

- هو أيضاً قارب الثمانة عشر.. وحتى يبلغ السن القانونية سأتكفل به فلا تشغل بالك به.

- اذاً الأمر سهل.

- أسهل مما تتصور.. اذهب إلى خليلتك.. ولك تجارتك ولي عمارتي.

- ولك بوابها.

- أنت لا تدبر لي.. دبّر لنفسك من الآن لم يعد بيننا شيء.

- بيننا أولاد.

- ألم نحسم أمرنا بشأنهما؟!

- أنا أريد الولد.. حين يبلغ الرشد وينهي دراسته.. أريده يساعدني في تجارتي.

- خذ الولد والبنت إذا شئت.

- فقط يبقى لك البواب.. في سخرية.. يكفيك.

- أنت لست وصياً علي.. من الآن أنت في طريق وأنا في طريق آخر، ونهضت تقول له: انتهت المقابلة والآن أنت لم تعد لك إقامة في بيتي ذلك أن تأخذ خصوصياتك فقط وتذهب غير مأسوف عليك.

- نهض وجمع ما يخصّه من ملابس، وأوراق ومستندات ومتعلقات أخرى، فقط المهمّ منها وخرج ولم يعد.

حين مر بباب العمارة حيث عزوز يجلس على كرسيه القديم يراقب الداخلين والخارجين.. نظر إليه زوج نيسة نظرة خالية من أي معنى وقال: مبروك عليك اليهودية البخيلة وذهب في حاله.

قال عزوز في سرّه: أنا لم تبخل علي بشيء.. يقولون إن اليهود يعبدون المال ويبخلون به حتى على أنفسهم، هي جادت به عليّ.. بل جود كريم.. ما قيمته ماهية ثلاثة شهور جادت بها مرة واحدة كهدية.. كيف يقول عنها بخيلة.. ليقل ما يقول.. أنا أعرف نيسة.. كريمة.. جادت بكل شيء وما زالت تجود.. هذا ظني بها.. هو رماها بالبخل.. هذا شأنه.

لم تمكث طويلا بعد خروج زوجها الذي لم يعد زوجها، بعد الاتفاق بينهما على الانفصال في هدوء ودونما جدال، خرجت قاصدة باب العمارة، وجدت عزوز في مكانه المعتاد، ألقت عليه تحية الصباح وهي

في انشراح تام، ولا أثر على وجهها مما حدث بينها وبين زوجها سابقا..

رد عزوز تحيتها.. جلست .

- قال عزوز: مر بي زوجك وقال لي مبروك عليك.. ماذا يقصد؟!
- يقصد: أنك أصبحت لي دونه.. فهو قد علم بعلاقتنا.. وقال: إن العمارة كلها تتحدث بنا حديث السوء.
- من أدراه بذلك؟!
- حتى الآن لا أدري.. لكني سأعرف الفاعل عمّا قريب.
- وماذا قلت له؟
- رديت له الصاع صاعين.. وأنا العارفة بعلاقته مع صاحبة الفيلا في الريف.
- وماذا قال؟ بما تذرّع؟!
- اعترف صمتًا.. فأنا أفحمته بالدليل ولم يجد بدا من الاعتراف فطلب قائلا: وما الحل؟.. قلت له: الانفصال.. وافق دون أن يعترض على شيء.. حتى البنت والولد حسمنا أمرهما.
- كانت تتحدث فيه هدوء وراحة، بل بفرحة ظاهرة، مبعثها تحررها من كل قيد يحد من رغباتها، أو يكبل حياتها، بتبعات سلوكية واجتماعية كانت تراعيها أمام الناس عرفاً وقانونا.
- قال عزوز: الآن ستحاصرك النظرات، ويعد عليك الفضوليون أنفاسك وستصبحين في محل الشبهات ومرمى الإشاعات خاصة

من طرف الواشون.. فعليك أن تعرفي من هم الواشون؟

- ومن يكون غير مدام ريمون تلك المتصابئة العجفاء التي ضبطت ذات مرة مع مشتري الروبفيكيا تحت درج العمارة.
- هل فعل ذالك ذات مرة؟!
- قل مرات.. هي امرأة مستهترة.. شبقة.. فهي كلبة يتبعها الكلاب.
- أمس مرت بي.. وتحدثت حديث العهر.. لكني لم أعيرها اهتماما فانصرفت حانقة.. وربما كانت ردت الفعل عندها هي الوشاية لدى زوجك.
- أنا قلت لك.. هي.. ولا أحد يجرؤ في العمارة كلها على فعل ما فعلت.. إنها الغيرة.. ولابد أنها ظبتك مرة وأنت داخل عندي.
- أنا الليلة لا أكون ضيفك.
- لماذا ؟!
- كي لا تكون فرصة لزوجك.. فيظبطنا بالجرم المشهود متلبسين.. فلا أستبعد أن يعود إلى البيت متعمدًا ومصطحباً معه شاهدا من الناس أو البوليس لتكون له الحجة عليك وعلي.
- هو لا يفعل هذا.. لكن على سبيل الحيطة ليكن ما قلت به.. أما هو لابد أنه عند خليلته.. فلا تفكر فيه على أي نحو.
- لكنّه الحذر والحيطة كما قلت، وهذه ليلة تعوّضها ليالي مقبلات.

- كنت أود أن تحكي لي الليلة عن صاحبتك جانيت.
- من قبل كنت تودين الحديث عن مدام ريمون، فما الذي غير رأيك؟!
- إنها كلبة لا تستحق أن أذكرها على فمي مرة أخرى.. هي من سقط المتاع.. وأنا أستغرب ما الذي أغراك فيها؟!
- الحاجة.. عندما يفتقدها الإنسان وتلح عليه، ويجد من يعرضها ساعتها لا يمكنه إلا الاستجابة.
- كما يقال: الحاجة ولا قلتها.
- هو ذاك بالضبط.. الجوع يبيح كل شيء. المحرّم والمكروه.
- وكيف تراها هي؟ أعني: مدام ريمون.
- حرام ومكروه ألجأني إليه الجوع.
- والآن.. كيف حالك معي؟
- في سعادة دائمة وسرور لا ينقطع.. أنا معك في جنة وارقة الضلال.
- ألا يوسوس لك الشيطان لتخرج منها؟!
- لعنة الله على الشيطان الرجيم ووسوسته.. مهما زين لي من أمر سوف لن اطيعه.
- ولا تستبدل جنتك بجنة أخرى؟
- لن يكون هذا أبدا.. ما لم أطرد منها طردا رغما عني.
- هذه الليلة اتفقنا ألا نلتقي، لمجرد الحيطة والحذر.. وكي لا نمكن

من يريد بنا سوء من فرصة تواتيه، وغدا؟

- غدا يكون شأن آخر.. وسنعوض ما يفوتنا والأيام والليالي كثر.
- سأبعث لك بالغذاء والعشاء مع الخادمة التي تنظف لي الشقة. كل أسبوع.. اليوم هي عندي، وهي كاتمة أسراري فلا خوف من لسانها.
- شكرا على ما تفعلين.. لكن الأسرار احذري من إفشاء الأسرار.
- لا.. هذه خادمتي من سنوات.. وهي محل ثقة ولا تفشي لي سراً أبداً.
- سترين.. خاصة إذا كانت من الطامعات في أو فيك.
- لا هي ليست منهن.. لا تظنها كمدام ريمون المنحلة والمتصابية.
- المهم أن تحترسي وتحافظي على سرنا.. ومن جهتي ثقي بي.
- أنا الآن ذاهبة إلى البيت.. خذ هذا المظروف.
- ما هذا؟.. ماذا فيه؟
- ماهيتك هذا الشهر.
- ألم تعطيني مظروفا فيه ماهية ثلاثة أشهر يوم ذهبت إلى صاحبي منذ ثلاثة أيام؟!
- لا.. ذلك المظروف فيه مبلغ من المال.. هو هدية لك بمناسبة العيد.. وتبسّمت.. تعني تلك الليلة الحافلة.
- جارها في خبثها قائلاً: نعم إنه عيد كبير.

لم يعد مرتاحاً كما كان، فهو الآن أمره مكشوفا. مدام ريمون قاطعها

فأصبحت تحقد عليه، ولابد أنها قد أخبرت أكثر من واحد في العمارة بعلاقته مع نيسة اليهودية صاحبة العمارة، كذلك الخادمة النظافة التي تتعامل مع صاحبته هي أيضاً تعلم لأنها كشفته مرّة خارجا من غرفة النوم حين أرادت تنظيفها. لذلك قرّر بينه وبين نفسه أن يدبّر ذريعة أخرى تضمن له الابتعاد مدة أطول عن مرسيليا . وجاءته فكرة، لماذا لا يزور تلك المرأة العجوز التي في الشمال الغربي من فرنسا في مدينة ليل؟ وعنوانها يحتفظ به من أيام ذهابه مع جانيت إلى تلك المدينة، خاصة وقد ألحت عليه عندما عاد إلى المستشفى ليزورها متى أراد، وقد عرضت عليه الخدمة عندها في مزرعتها الكبيرة التي تربى فيها الخنازير والأبقار وخيول السباق.. فهي سيدة ثرية مات عنها زوجها ولم يترك لها أولادا وترك لها أموالا طائلة وعقارات وأراضي واسعة.

هو الآن بدأ يتكلم اللغة الفرنسية أفضل من ذي قبل والحرب بدأت تخف وطئتها في الأراضي الفرنسية والأوربية عموما، بعد أن انتقل الصراع إلى شمال إفريقيا، وشرق البحر الأبيض المتوسط، وما عليه إلا أن يسأل كيف يأخذ القطار من مرسيليا إلى باريس ومنها إلى ليل، وهناك يذهب إلى قصر تلك المرأة الثرية بسهولة فهي معروفة في مدينة ليل وفي ريفها أين تقع مزارعها الواسعة.

أخذ يدبر كيف يختلق الذرائع ليقنع صاحبته بالسفر دون أن تستريب في أمره.. وجاءته الفكرة: لماذا لا يقول لها أنه راجع إلى المستشفي من أجل المراجعة بخصوص حديد ركب له في ركبته التي

يعرج بها.. كما تعرف ذلك، وقد أخبرها من قبل ولاحظته هي عيانا.

ذات ليلة بعد أن تعشّى عندها وشرب وسهر ما شاء له، طرح عليها أمر سفره، وأنه لن يبات عندها الليلة، فله صاحب سيأتي إليه فجرا ليصحبه إلى المستشفى، وعليه أن ينام في غرفته حتى يكون حاضرا في الوقت.

وافقته وفي نفسها شك وقالت له أرجو أن لا يطول غيابك، وعليك أن تترك لي عنوان المستشفى العسكري الذي كنت فيه لأطمئن عليك بين الحين والآخر. نهضت وفتحت درجا في خزانة ملابسها وأخذت أوراقا مالية ذات قيمة لا بأس بها ودستها في يده وهي تقول: عد حالما تنهي عملية نزع الحديد، ولا تبقى هناك في تلك البلاد الباردة، وقد داهمها هاجس، يقول لها: ربما حنّ لصاحبته جانيت، لكنها لم تجد مبررا لمنعه فتظاهرت بالاقتناع الذي يخالطه الشك.

نهض يودعها شاكرا لها نفحتها المالية قائلا: سنلتقي قريبا إن شاء الله.. ودعته إلى باب الشقة فحضنها وتبسّم في وجهها. قطبت هي جبينها غير راضية، وهاجمت عينيها دمعة مسحتها بيدها على عجل وولت داخلة دون أن تقفل الباب.. ظل هو واقفا قليلا ثم أغلق الباب بهدوء وقصد غرفته عبر الممر الطويل.

شيّعته بالنظر عبر النافذة وهو يخطو نحو غرفته حتى وصلها ففتحها ونام إلى الصباح. في الصباح الباكر خرج على عجل ليدرك موعد القطار القاصد باريس.. كان قد رتّب كل شيء اشترى التذاكر

من مرسيليا إلى باريس ومنها إلى ليل، وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة في محطة باريس للقطارات حتى يحين موعد القطار الذاهب في اتجاه الشمال الغربي نحو ليل.

وصل إلى ليل عشية وذهب رأسا إلى قصر مدام روجيه الأرملة العجوز التي أعطته عنوانها منذ ثلاث سنوات مضت حين التقاها في حفلة عيد الميلاد في بيت والد جانيت وعندما عرفت قصة جراحه دفاعا عن فرنسا الوطن تبرعت له بمبلغ من المال كتبت له به صك صرفه بمعرفة جانيت وكان مبلغا محترما. أخذ طريقه إلى القصر مستدلا بالعنوان الذي في حوزته، وجده قصرا كبيرا تحيط به حديقة واسعة منسّقة الممرات والأشجار، كما لاحظ من خلال البوابة الكبيرة على بعد مئات الأمتار من مبنى القصر، وفي البوابة وجد رجلا أفريقيا أسودا طويلا عريضاً أبجر البطن، يتكلم فرنسية سليمة وبطلاقة يظهر انه من إحدى المستعمرات الفرنسية، في الغرب أو الوسط الإفريقي، وكان في البوابة كلبان كبيران من فصيلة الولف مربوطان بسلسلتان من حديد غليظ.. تكلّم سائلا عن المدام.

أجابه الحارس الإفريقي: إنها مسافرة في باخرة سياحية في حوض البحر المتوسط، تبتدئ من جبل طارق وتنتهي في اللاذقية والعودة عن طريق الساحل الشمالي، عبر أزمير واسطنبول، وسالونيك، ثم نابلي ومنها إلى جنوا فمرسيليا ولشبونه، وتنتهي في جبل طارق حيث كانت البداية، معلومة لا تفيده في شيء فقط سأل عزوز الحارس الإفريقي.. متى تعود؟

قال له الرجل: ستعود بعد ثلاثة أسابيع، فالرحلة تستغرق شهرًا كاملا وقد انطلقت الباخرة منذ أسبوع فقط. هي لم تسافر قط وإنما ذهبت إلى أحد مزارعها في ضواحي المدينة من أجل الاستجمام كما نصحها الطبيب بالابتعاد عن ضجيج المدينة والحرب ما زالت لها بؤر في أوربا الغربية حتى بعد أن خرجت الجيوش النازية من فرنسا وتركزت في أوربا الشرقية وشمال أفريقيا.

لم يكن عنده عنوان المزرعة وهي لها أكثر من مزرعة، وما قصة الرحلة التي أخبر بها الحارس الإفريقي إلا اختلاقا من عنده، وإلا كيف يكون هناك بواخر سياحية تجوب المدن الواقعة على سواحل البحر الأبيض وفي أكثر من بلد في أوربا وأفريقيا وآسيا والحرب ما زالت على أشدّها، استبعد حكاية الرحلة السياحية من باله، وأن الإفريقي أراد مجرد إبعاده، فربما كان له مطمعا أو غرضا خاصا.

ماذا يفعل الآن؟ عليه أن يتذكر بيت والد جانيت في أي شارع يقع، والرجل معروف فهو من أهل المال والنفوذ كما لاحظ من قبل حين زاره مع جانيت، ووجد وجهاء ومعروفين في بيته الواسع بمناسبة عيد الميلاد، وعليه تذكر الشارع ليعرف البيت، فالناس هناك يدلونه بسهولة.

عاد أدراجه صوب وسط المدينة إذ تذكر كتدرائية مميزة في ميدان كبير والشارع قريبا منها، فقد ذهب مرة رفقة جانيت إلى الكتدرائية مشيا على الأقدام.. فهو إذا وصل إلى الكتدرائية وسأل هناك عن بيت

أهل جانيت فلابد واجدًا من يدلّه.. ظل يمشى راجلا رغم ثقل مشيته بسبب العرج إلى أن وصل إلى الميدان الفسيح وظهرت له الكتدرائية من بعيد.. اقترب منها وأخذ يسأل بعض المارة عن والد جانيت واسمه ميشال لكنهم يقولون له: هناك رجال كثر يتسمّون باسم ميشال.. بل أن الاسم هو يتسّمى به الرجال والنساء فمن يكون صاحبك رجل أم امرأة؟ وضنهم يسخرون منه.

مرة سأل رجلا مسناً يقود كلبا صغيرا قاصدا الحديقة القريبة من الكتدرائية.

قال للرجل: من فضلك أنا أسأل عن بيت السيد ميشال القريب من هنا حسب ما أتذكر، وهو رجل وجيه ومعروف وله بنت في سلك الراهبات وقد أنذرت نفسها لخدمة المرضى في المستشفى العسكري في شرق فرنسا.. كنت قد زرته وإياها منذ ثلاث سنوات ونسيت العنوان بالضبط.. لو تدلّني عليه من فضلك إن كنت تعرفه.

قال الرجل: مسيو جاري ميشال.. بنته جانيت الراهبة نعم أعرفه.. بيته قريب من هنا.

- دلني عليه مع الشكر الجزيل.
- هناك.. في ذلك الشارع.. بعد التقاطع الثاني تسلك يمينا تجد بعد البيت الرابع فيلا كبيرة تحيط بها حديقة ولها بوابة خارجية تلك هي فيلّته.
- يقول: ذهبت إلى حيث أشار وإلى فيلا مسيو جاري ميشال بالتحديد،

وجدت حارسا في الباب الخارجي، طلبت منه أن يمكنّي بالاتصال بالمسيو ميشال.

قال لي: انتظر.. من أنت لأخبره؟

قلت: قل له : رجل أفريقي من جرحى الحرب جاءت به جانيت إلى هنا منذ ثلاث سنوات.

ذهب وعاد يقول: ادخل هو في انتظارك.

يقول: دخلت فوجدت مسيو ميشال ينتظرني في صالون جانبي عند مدخل الفيلا.. سلمت عليه.. رحب بي وجلست.. قدّم لي قهوة وشيئا من الحلوى.. قال لي في بداية الحديث جانيت تبحث عنك منذ ثلاث سنوات.. هي متلهفة على سماع أخبارك.. مشغولة عنك.. ستفرح كثيرا حين نخبرها عنك وأنك بخير.. سأتصل بها حالا وأخذ سماعة الهاتف لم تجبه هي.. أجابته زميلة لها.. كانت جانيت بعيدة عن مكان الهاتف.. قال لها حين تعود قولي لها : أن الإفريقي الجريح الذي تبحث عنه هو موجود عندنا في ليل، وعليها أن تطلبنا على الهاتف.

ولأن صاحبتها تعرف أن خبرا كهذا يدخل فرحة كبرى على جانيت.. لذلك ذهبت تبحث عنها في عنابر المستشفى فوجدتها تمارس عملها في رعاية المرضى باهتمام ومثابرة.

قالت لها: جانيت عندي لك بشرى.

- بشريني.. عمرك ما بشرتيني خيرا من قبل.

- لكني أبشرك اليوم خيرا.

- ما هو هذا الخير؟ هل سمعتي خبرا عن عزّوز.. لا أظن ذلك.

- وإذا قلت لك أنه خبر يتعلق بعزوز؟! ماذا تقولين؟

- لا أعتقد أن عندك خبرا يتعلق بعزوز.. أبعد ثلاث سنوات يكون هناك شيء عنه.

- والمسيح.. لا أقول إلاّ الحق.. إن عزوز في ليل وفي بيتكم بالذات..

- ماذا تقولين؟!.. شهقت من شدّة المفاجأة.. جيري ماذا تقولين؟!

- أقول الحق.. عزّوز في بيتكم.. خذي الهاتف وتكلّمي.

- وتذهب جانيت مسرعة إلى محل سكناها وتطلب والدها على الهاتف تستوضح الأمر.

يقول لها والدها: معي هنا عزوز.. ها هو تكلمّي معه ويدفع بسماعة الهاتف إلى عزوز.. يأتي إليها صوته الأجش الذي تحفظ نبراته ذاكرتها الواعية.. تقول: عزوز كيف أنت؟! يجيبها في اقتضاب على عادته: أنا بخير.. تقول لا تبرح البيت أنا قادمة اليوم أو غدا على الأكثر بمجرد أن أرتب أمري . وتضع السماعة.

يقول مسيو ميشال مخاطبا عزوز: ماذا قالت لك؟

- قالت: إنها قادمة إلى هنا اليوم أو غدا.

- أنت في ضيافتنا إلى أن تأتي فعلى الرحب وأهلا بك.

- أنا شاكر لكم ذلك.. فقط أريد أن أبحث عن مدام روجيه

تلك التي تركت لي عنوانها منذ كنا عندكم ليلة عيد الميلاد منذ ثلاث سنوات وطلبت مني أن أتصل بها حين أكون في ليل وقد وعدتها ذلك.

- آه عرفت.. مدام روجيه سأبحث أين هي وأمكنك من الاتصال بها بعد أن تأتي جانيت وهي التي ستأخذك إليها أينما تكون.
- لقد ذهبت إلى قصرها أسال عنها.. لكن أخبرني أفريقي أسود وجدته في بوابة القصر أنها مسافرة في رحلة سياحية حول موانئ البحر الأبيض وأنها لا تأتي قبل ثلاثة أسابيع.
- أي رحلة سياحية هذه في هذه الأيام والحرب ما زالت تضرب كل مكان!! إنه يكذب أو هو رجل معتوه.. لا تصدقه.. هي لا تغيب كثيرا عن قصرها خصوصا في هذا الفصل.. لو كان الفصل صيفا يجوز أن تذهب في رحلة قصيرة لا تتعدى أسبوع إلى إحدى مدن العالم الكبيرة وبالطائرة ثم تعود.
- هذا ما قاله لي الحارس الإفريقي الأسود، وأنا أشك في صدقه كما قلت.
- ستأتي جانيت وينجلي الأمر لابد أن تمكنك من الاتصال بها وستتحرى أين هي وتتصل بها لتخبرها بوجوك في ليل.. اطمئن.

قال في سرّه إن جانيت ستحيل بينه وبينها.. العجوز.. بشتى الوسائل.. ولابد أنها مدبّرة أمراً لتبعده عنها وربما عادت به إلى المستشفى بحجة نزع الحديد من ركبته أو بأي ذريعة أخرى.. لكنه قال

في نفسه أيضا سوف لن أمنحها فرصة لأسري مرة أخرى وسأتحايل عليها لتوصلني إلى السيدة وبعدها يكون أمر آخر.

قال يخاطب والد جانيت: أنا أصبحت قادر على العمل، وإعاقتي البسيطة لا تمنعني من ذلك. وقد عملت كبوّاب عمارة في مرسيليا لمدة سنتين.

وهنا يمكنك العمل أيضا في مثل هذه الوظيفة وستجدها عند السيدة روجيه فهي عندها قصرها الكبير الذي يحتاج إلى أكثر من حارس وبواب ولها مزارع ومصانع وحظائر للحيوانات وإذا لم تتمكن من الاتصال بها أو لم تكن عندها وظيفة لك فأنا عندي لك الوظيفة التي تناسبك.

أنا شاكر لك.. لكن لابد من الاتصال بها أولا فهي قد ألحّت على في المرّة الأولى أن أتصل بها حال مجيئي إلى ليل.

على كل الأحوال نحن في انتظار جانيت أولا ثم بعد ذلك يكون لنا أمر.

- هو ما قلت.. وجانيت لها رأيها ولابد من استشارتها.. في سرّه - صعب الإفلات من هذه المرأة.. وهي قادمة اليوم أو غدا.

- جانيت تحبك كثيرا ومهتمة بك أشد الاهتمام.. فهي تقدر لك تضحيتك في سبيل وطنك فرنسا.. كان يحسب كل رعايا المستعمرات الفرنسية هم فرنسيون بحكم تبعية الحماية.. وأنها مصرة على أن تكافيك على تضحيتك وتفانيك في خدمة وطنك.

- نعم هي كذلك.. هي وفية وتقدر تضحيات الرجال في سبيل

الوطن.. وفي سرّه يقول:- هي متورطة في حالة عشقية من طرف واحد.. لقد مارست معى الحب وتريد المزيد.. وأنا زهدت فيها.. وغيرها أخريات في ذلك المستشفى.. لقد نفدت بجلدي.. ثم كانت اليهودية وأنا في حالة هروب منها أيضا وسأهرب من الجميع، وإلي أن تنتهي الحرب، بعدها سأعود إلى بلادي التي يهزني إليها الشوق في كل حين.. ويضيف، جانيت امرأة طيبة وخدومة وصاحبة وفاء.

- هي كما تقول، وتحب خدمة الآخرين لذلك قـررّت الرهينة والتحقت وهي صغيرة بالدير فتلقّت تعاليم المسيح ودرست الإنجيل ثم انخرطت في سلك الراهبات العاملات في المرافق العامة ذات الصبغة الخيرية فاشتغلت مدة في الملاجئ وجمعيات الإحسان إلى الفقراء والمشردين وكذلك دور تربية الأيتام واللقطاء، وأخيرا التحقت بالمستشفيات العسكرية في حالتي الحرب والسلم.
- نعم وهي من المتفانيات في خدمة الجرحى والعناية بهم.. في سره: على جميع المستويات بما فيها الترفيه عنهم وعن نفسها.. هي امرأة فاضلة مضحية في سبيل خدمة الآخرين.
- ومن الصغر كانت ترفق بالحيوانات وتعتني بها: تطعمها وتمرّضها وتمنع عنها الاعتداء، وتقول دايما هي مثلنا لها مشاعر وأحاسيس.
- في خاطره الآن بعد أن كبرت ترفق بالرجال الأقوياء، وتنتقي أصحاب الوجوه القبيحة مثلي (العباثّه) وتعتني بهم.. هي: مرهفة

الحس رقيقة المشاعر ودودة.. طيبة القلب.. هذا حقا نقوله في جانيت أكثر الله من أمثالها.

- سأقول لها ذلك حين تأتي.. هذه شهادة منك ستعتز بها كثيرا.. وهي أيضاً تودّك كثيرا.

- أعرف ذلك.. جزاها الله عني خيرا.

سيطر على جانيت شعور مليء بالرغبة في الوقوف على حاله بعد هذه الغيبة الطويلة، دون أن تعثر له على أثر، وقد أعياها البحث عنه، وأضناها الشوق إليه، فأخذت تدبر وسيلة للسفر إلى ليل حيث يوجد عزوز في بيتهم، وكما في القول المأثور الغاية تبرّر الوسيلة، فقد اضطرت أن تلجأ إلى أية وسيلة تمكنها من غايتها.. الكذب أحد الوسائل، وهي تكره أن تكذب، وطالما عابته على زميلاتها.. لكنها اليوم تجيزه لنفسها، هي لها غاية، والكذب وسيلة تبرر الغايات إذاً لا مناص من اللجوء إليه وصنّفت كذبها في خانة الكذب الأبيض الذي لا يضر غيرها.

جاءت إلى مراقب عام المستشفى كان رجلا عسكريا مسرحا من الجيش برتبة ضابط كبير، لكنه استدعى إلى الخدمة بمناسبة ظروف الحرب، كان طيبا متسامحا ومجاملا وخاصة في الأحوال الإنسانية، كانت هي تعرف فيه هذه الخصلة، ادعت أن والدتها مريضة وعلى شفا الموت وأنها هي بنتها الوحيدة ولابد لها من السفر إلى ليل للوقوف مع الوالد في هذه الظروف الحرجة وأنها ستعود حالا عندما تتماثل أمها إلى

الشفاء أو في حالة انتقالها إلى الآخرة.

رق قلب المراقب العام ذلك الضابط الكبير بالسن، وبطيبة القلب والمروءة ومنحها إجازة غلى أن تشفى أمها أو يكون الأمر الآخر وأن تعود متى شاءت.

عادت إلى محل سكناها فرحة مستبشرة وأخذت تعد حقيبة صغيرة تضم حاجياتها الخاصة وخرجت على عجل إلى محطة القطار. في المحطة قصدت لوحة إعلانات مواقيت القطارات ذهابا وإيابا إلى باريس ومن باريس عليها أن تأخذ القطار الذي يقصد ليل، كان أول قطار يذهب في اتجاه باريس بعد ساعة تقريبا وكان الوقت بعد الغروب بقليل، وفي هذه الحالة لابد أن تصل إلى المحطة الرئيسة في باريس عند الفجر ومن باريس لا تعرف موعد القطار الذي يقصد ليل، ظلت في حال من القلق لا يخرج تفكيرها عن مواعيد القطارات انطلاقها ووصولها، والوقت الذي تستغرقه في قطع المسافات التي تهمها، من المحطة التي هي فيها إلى باريس ومن باريس إلى ليل قطعت التذاكر وتأكدت من بوابات الدخول والخروج، والرصيف الذي تدخل منه إلى القطار والذي تخرج منه، ولا ينقطع تفكيرها في عزّوز الذي ظهر فجأة بعد غياب ما يقرب من ثلاث سنوات، والمفاجأة الكبرى أنه في ليل وفي بيتهم بالذات، يا لها من صدف أو هي عبثية الأقدار، ولعل اليأس يعقبه أمل يتحقق، ألم يقال: «عندما تضيق تنفرج». لم تتناول طعام الغذاء، خرجت من محل سكناها على عجل، بعد أن تحصلت على أجازة مفتوحة، وغطّت مشاعر

الفرح عن كل شيء حتى على إحساسها بالجوع، وانحصر تفكيرها في إجراءات السفر ولحظات اللقاء مع الغائب العزيز.

وصلت إلى المحطة الرئيسة في باريس وأسرعت إلى لوحة الإعلانات تتبيّن منها موعد انطلاق القطار إلى ليل وساعة الوصول تأكدت من البوابة والرصيف ثم قطعت التذكرة وتنفّست الصعداء.

هي لم تتناول طعام الغذاء لأنها خرجت على عجل، كان ذهنها مشغولا بإجراءات السفر، ظلت غير مهتمة بشيء آخر طيلة الوقت الذي قضته من المستشفى العسكري وحتى المدينة الصغيرة حيث محطة القطار ومن تلك إلى باريس، وهو وقت استغرق منها ساعات طوال، حين قطعت التذكرة إلى ليل، جلست وفي صالة الانتظار أحست بالجوع فاشترت وجبة خفيفة في علبة من ورق سدّت بها رمقها مع كأس من ماء. تحرّك القطار قاصدا ليل هنا شعرت، بالراحة، لقد تحقق الآن لا شك، حلم الوصول، ولقاء الشوق، أو قل الظفر بالغاية التي كانت الوسيلة إليها: الكذب وهي لا تحب الكذب الذي ألجئتها إليه الضرورة كما كانت تعزّى نفسها وتبرّره.

منذ منتصف النهار حين حصلت على الإجازة وطيلة الليل الذي استغرقته في السفر حتى مطلع الفجر عندما وصلت إلى ليل، كل هذا الوقت كان عزوز يغط في نوم عميق في جناحها الخاص في بيت والدها عندما كانت فتاة صغيرة قبل أن تدخل الدير لتدرس تعاليم المسيح

وتتدرّب على الخدمة الخيرية المجانية للعجزة والأيتام، في الملاجئ والتكيات، أو في المرافق العامة كالمستشفيات ودور الحضانة وغيرها.

كان البيت قريبا من محطة القطار فلم تنتظر عربة كارو تنقلها إلى البيت، فأخذت الطريق مشياً على الأقدام . كانت تحمل حقيبة صغيرة في يدها وتسرع الخطا نحو البيت، قارب الضحى حين دخلت من الباب الرئيس. في الصالون الجانبي عند المدخل لمحت والدها يجلس يدخن غليونا وأمامه القهوة.. سلمت في عجل وهي تسأل للتأكيد: هل حقا جاء عزوز؟!

- نعم إنه ما زال نائما ولم يتناول طعام الغذاء حتى الساعة.
- أين هو؟!
- في الجناح الشرقي.. جناحك المهجور.. لقد رتبنا له كل شيء.

أسرعت إليه ودخلت غرفة النوم التي بها عزوز ولم يتعود غلق الباب كعادته فوجدته ما زال في لذة نومة الضحى.. ارتمت عليه وهي تهزه عزوز.. عزوز.. أنا جانيت.. انتبه مجزوعا وانتصب نصف قائم وهوي يفك يديها من رقبته في رفق ويفتح عينيه فيرى دموعها تسّاقط على خديها وقد بللت بعض وجهه حين كانت تضمه أشار إليها أن ينزل من السرير، فتنحّت وجلست على طرف السرير وهي تقول ودموعها ما زالت لم تكف: عزوز أخيرا وجدتك.. لقد عانيت كثيرا في البحث عنك.. أين اختفيت بالله عليك؟!

سأجيبك مهلا عليّ.. ذهب لينضح على وجهه الماء وعاد.. آه كيف حالك؟

- كيف أصف لك حالي؟! إنه الكرب.. شدة البؤس.. الضعة والهوان، وشماتة الشامتات.. بعد أن عرفن تعلّقي بك.. وأنك هربت من ملاحقتي.. قالوا عني أقاويل كلّها كذب وبهتان.
- وما يضيرك ما دمت ليس كذلك؟
- أنت تعرف أني تعلّقت بك هذا حقاً.. ومن حقي، فهي عاطفة أودعها الله فينا.. إنها الغريزة والميل البشري.. الجنس الذي تكتمل به حياة النوعين.. لكن كوني لاحقتك وهربت بسببي فهذا لم يكن.
- المهم ها أنا جئت.. وجيئتي أنت والتقينا والحمد لله.
- أنا جئت في شوقي إليك وفرحة بسلامتك وظهورك بعد يأس.
- وأنا جئت وفاء لعهدي.. لقد واعدت والدك الطيب أن أزوره مرة أخرى، ولأنه لم يكن في حوزتي هاتف المستشفى ولا أعلم هل ما زلت في الخدمة أو عدت إلى أهلك وفي جميع الأحوال قلت في نفسي لابد أن أحصل على أخبارك في أي مكان إن لم تكون هنا، وهذا ما حدث فعلا.. اتصل بك والدك وها أنت بيننا.
- شكرا للرب.. أنا الآن سعيدة..أولا لسلامتك من كل مكروه وقد ذهبت بي الظنون كل مذهب، حين لم أحصل على أي خبر بشأنك. وثانيا لأنني معك الآن.. أنا سعيدة سعيدة جداً.
- والآن أنبقى هنا نتبادل الحديث دون فطور الصباح؟!

- أنا نسيت كل شيء مع وجودي معك.. أنا فرحة إلى درجة الذهول أنت لا تتصور مقدار بهجتي وسروري، وأنا أتنفس معك الهواء.
- وأنا أيضا فرح.. ليس كما يسر في نفسه.. ولكن هل نعيش بلا طعام؟!
- هيا بنا حبيبي إلى صالة الطعام.. لابد أن الخادمة جهزّته الآن.. هيا عزوز.

وتقدمته إلى صالة الطعام، ثم أفسحت له ليدخل أولا وجلست قبالته، ثم جاءت الخادمة فقامت بواجب الخدمة، ولبّت ما طلبت جانيت من خدمة إضافية احتفاء بالضيف العزيز.

رأي عزوز من الحكمة ألا يطلب من جانيت أن تبحث له عن مدام روجيه الثرية العجوز التي طلبت في المرة السابقة أن يتصل بها كلّما احتاج إلى شيء وعرضت عليه وظيفة في قصرها إذا تماثل للشفاء إلى أن يعود إلى بلاده مسقط رأسه لأنه رجل شجاع دافع عن وطنه فرنسا وضحّى في سبيله بدمه.. وهي تحسب الأرض التي ولد فيها وعاش قبل أن يلتحق بالجيش نداء للواجب.. تعتبر تونس فرنسية وكذلك الجزائر والمغرب لأنهم جميعا في حماية فرنسا.

رأي عزوز أن يتظاهر بأنه جاء لزيارة أهل جانيت ومن أجلها حين لم يجد وسيلة تمكّنه من الاتصال بها، لعلّه يجدها، أو يجد عندهم عنوانها والمكان التي هي فيه بعد هذا الفراق الطويل.. ثلاث سنوات.. استجاب لكل ما أرادت فكان طوع أمرها في كل شيء، تركها تطبق برنامجا أعدته كما تشاء: جولات منذ الصباح بعد تناول الإفطار في بعض

أحياء المدينة: أسواقها ومقاهيها ومطاعمها الفاخرة، وحتى الكتدرائية الكبيرة في وسط الميدان زارتها وإياه في فترات خارج أيام الآحاد شكرا وعرفانا للمسيح الذي استجاب إلى دعواتها فالتقت بعزوز مرة أخرى بعد يأس، وجولات كثيرة في مزارع والدها، كانت تذهب إليها مع عزوز في عربة تجرها الخيل: مركوب الوجهاء وأصحاب الثراء في ذلك الوقت.. كانت تقضي وإياه أوقاتا سعيدة بالنسبة لها تغدق عليه من متع الحياة وملذاتها من كل شكل ولون، كانت في جوع عاطفي كبير، شبعت حتى التخمة، وكان هو مجاملا بارعا لم تشعر منه بملل ولا عدم رضاء، فهو إلى جانب لياقته البدنية كان ممثلا قديرا في إظهار الرغبة والمبادرة، والوله بها، والشغف والعشق الكاذب، فهو الهارب من جورها الجنسي حين غادر المستشفى، في غفلة منها، لكن المقادير رمت به مرة أخرى تحت سيطرتها فلا مناص له من المجاملة والنفاق حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

هي ملازمة له كظله في النهار والليل وبرنامجها المرسوم لا تحيد عنه: طعام وشراب مما لذ وطاب.. جولات في المدينة وفي الهواء الطلق، نزهات وترددات في إحدى المزارع في الطبيعة الخضراء ومع الشواء على نار هادية وقودها حطب.. وشراب من نبيذ معتق أعد خصيصا للمناسبات الفارهة احتفاء بالأحبة والخلّص من الأصدقاء.

ظل عزوز يرتع في كل شيء مع جانيت قرابة عشرة أيام، وقد اطمأن إلى أنها بدأت راضية مرتاحة وقد أسكتت جوعا لازمها ثلاث

سنوات.. اطمأنت نفسها وعاد إليها صوابها وأصبحت قانعة شبعى، وذات ليلة، وهي مستلقية على السرير تقلب مجلّة نسائية حديثة الصدور وكان هو جالساً على فوتيل كبير يصب ويصب من دورق فيه نبيذ، وغليون في فمه قدمته له كهدية حين أبدى مرة إعجابه بوالدها الذي لا يدخن إلا الغليون.

قال: جانيت.

- انتبهت إليه قائلة: نعم.. لبيك حبيبي.
- أنت تعرفين مدام روجيه تلك المرأة العجوز.. قصد أن يقول العجوز
- التي قدمت لي في وقت سابق صكا بمبلغ محترما حين علمت أنني من جنود فرنسا الذين دافعوا عن شرفها وأرضها.. تلك التي كانت حاضرة في بيتكم ليلة عيد الميلاد.
- نعم أعرفها مدام روجيه وقصرها قريبا من هنا.. ما حاجتك عندها.. هي قريبة أهلي من بعيد، وكنت أزورها دايما قبل أن ألتحق بالدير.. إنها امرأة طيبة.. ماذا تريد منها؟!
- هي طلبت مني في تلك المناسبة منذ ثلاث سنوات أن أزورها عندما أكون هنا في ليل، وقد وعدتها بذلك ومن اللياقة والواجب والوفاء بالوعد أن أزورها.
- هذا أمر سهل.. وقصرها قريب من هنا.
- هل ترافقيني غدا صباحا إليها؟

- وهل أتركك تذهب وحدك؟! إن كلابها شرسة وحرّاس قصرها أجلاف، وأنا أعرف من أين أدخل القصر.. عندها باب سري لا يدخل منه إلا المقربون والمعارف ويحرسه رجل طيب يعرفني.
- إذا غدا نذهب إليها معا.

رمت بالمجلة على طاولة صغيرة قرب السرير وانسلت وهي في روب النوم وجلست قبالة عزوز في كرسي كبير فخم وطلبت أن يصب لها كأسا.

طالت السهرة وتوالت الكؤوس وهجرهما النوم، لأنهما أخذا منه كفاية عند القيلولة بعد الغذاء.. أصبح الحديث معادا في أغلبه، وإن تخللته أجوبة عن أسئلة من كلا الطرفين، هي تسأله عن حياته في تلك الغيبة الطويلة، وكانت تحوم في تلميح وتصريح في بعض الأحيان عن علاقاته النسائية وهي تعرف أنه لا يعيش بدونها، وأنها تود لو أفصح لها عن كل شيء، حتى وهي تغير من مجهولات وربما غير موجودات أصلا لكنها تحب أن تطلع عل مغامراته بعدها، وتود لو سمعت حتى المقارنة بينها وبينهن، هي المرأة تدفع حياتها ثمنا لكشف سر الرجل مع غيرها.. تتوهم دائما أن هناك غيرها في حياة رجل تحبّه.

أما هو فكان يسألها عن معارفه من المرضى، ومن شفى منهم ومن خرج، وعن المراقب العام الكولنيل المتقاعد الطيب، وعن الممرضة صاحبتها التي تواطت معها لكشف علاقة سوزان به، وهنا ذكرّها بسوزان سهوا فغير حديثه نحو وجهة أخرى وأخذ يسأل عن أشياء ليست ذات

بال.. لكنها انتبهت إلى نواياه وأنه ربما ما زال يحن إلى غريمتها.

قالت: وهل ما زلت تذكر تلك الكلبة التي لا تتحفظ في إظهار عهرها لكل أحد؟! إنها ملعونة ساقطة، وكلهم يعيبون عليها سلوكها الشاين،وهي بعد أن خرجت انفضح أمرها عند الجميع.

في الصباح أخذت وإياه طريقهما إلى قصر مدام روجيه دخلت عن طريق الباب السري وعلما من الحارس أن المدام مستقرة في فيلة لها في مزرعة وصفها لهما وأنها قد نصحها الطبيب بالإقامة هناك ما أمكن لها ذلك.

عادت وإياه إلى بيت والدها ووعدته أن يذهبا إليها بعد الظهر فهي تعرف طريق المزرعة التي وصفها لها الحارس.

بعد تناول طعام الغذاء، ركبت وإياه عربة يجرها حصانان وقصدا مزرعة مدام روجيه استقبلتهما على أساس أنها تعرف جانيت الراهبة بنت مسيو ميشال الذي تعرفه جيدا وطالما زارها في قصرها بعد وفاة زوجها فهو كان صديقا له ومحاربا معه في الحرب الكونية الأولى، أما مرافق جانيت هذا الرجل ضخم الجثة ذو الملامح الأفريقية فقد ظلت تتذكر أين التقت به سابقا؟ فهي تتطلّع في وجهه ثم تصمت قليلا وتعاود وتتفحص وجهه مرة أخرى، وأخيرا قالت: ألست أنت الذي التقيت بك مرة منذ شهر في مقهى باريس في سان جرمان: - حي شهير في باريس - لقد أصيبت أخيرا ببوادر مرض الزهايمر - كتم هو ضحكته فهو لا يعرف سان جرمان هذا. ولم يكن في باريس منذ شهر

ولا جلس في مقهى مع امرأة.

أما جانيت فغطت الموقف بأن أوضحت لها الأسي أن الرجل كان محاربا في الجيش الفرنسي ضد ألمانيا وأنه دافع عن شرف فرنسا وجرح جروحا بليغة في إحدى المعارك وكان نزيلا في المستشفى العسكري الذي تعمل فيه وأنها صحبته مرة إلى ليل في فترة نقاهة وإلى آخر القصة ثم ذكرّتها بأنها أي مدام روجيه منحته صكا بمبلغ من المال مكافأة له على شجاعته وهو ما زال يذكر لها فضلها وقد جاء ليزورها ويشكرها على معروفها ووفاء بوعده الذي قطعه على نفسه، وهو الآن جاء ليطمئن عليها.. عادت إليها الذاكرة، فأصحاب الزهايمر يتذكرون الأحداث البعيدة وينسون القريب من الأحداث.

قالت وهي تشهق: أوه.. ذلك المحارب الشجاع الذي كان معنا ليلة عيد الميلاد منذ ثلاث سنوات على ما أذكر.. هو الذي دافع على شرف فرنسا وافتدى الوطن بدمه، وبالغت في الترحيب به.

ظل عزوز وجانيت مع مدام روجيه مساء ذلك اليوم، وتناول معها العشاء ثم عاد إلى ليل، عرف عزوز مكان المزرعة وتبيّن الطريق فقرّر أن يعود إليها بعد أن تغادر جانيت ليل إلى مكان عملها، لكن جانيت ظلت تمدّد الأيام يوما بعد آخر، فهي لها أجازة مفتوحة كما قال لها المراقب العام. وأخيرا لما زادت عن حدها قرّرت العودة بعد أن أعيتها الحيلة في اصطحاب عزوز معها إلى المستشفى لنزع الحديد من ركبته وقد تعذر

هو بأنه ذاهب في زيارة قريب له مستخدما في أحد المصانع غرب فرنسا.

أخذ حقيبته في أحد الصباحات وغادر ليل بعد أن ودّع أسرة جانيت وأقنعها هي بحيلته التي انطلت عليها.. لكنها أخذت منه وعدا بالاتصال بها مباشرة أو عن طريق الهاتف والحث عليه في ذلك.

خنّس في مكان قريب من ليل حتى تيأس منه جانيت فتعود إلى مكان عملها.. عندها يذهب إلى مدام روجيه ويذكر لها وعدها سابقا بتدبير وظيفة له عندها.. بعد يومين قصد المزرعة حيث تقيم، فوجدها من حظه أنها في حالة طبيعية، ولم تكن في إحدى نوبات الزهايمر.

كانت في كامل عقلها حين أخبرتها السكرتيرة: أن رجلا جسيمًا ذو ملامح أفريقية يريد مقابلتها.. عرفت أنه الرجل الذي زارها منذ أيام مع جانيت وتحفّظت يومها أن تعرض عليه الخدمة معها أو تنفحه مبلغا من المال إلا أنه في غفلة من جانيت وهما خارجان من عندها أشار إليها بيده: أنه سيعود مرّة أخرى.

أدخلت السكرتيرة عزوز على المدام في حجرة الصالون.. كانت السكرتيرة فتاة في مقتبل عمرها وكانت جميلة ولبقة.. وأمامها إناء كبيرا مملوءا قهوة. سلم عزوز ورحبّت به مدام روجيه قدّمت له السكرتيرة القهوة حن رأت المدام ترحّب به وتتحدث معه بحميمية، وخرجت.

عزوز بعد أن رشف رشفة من قهوته قال: أنا جئت كما وعدت وأذكرك بأنني أطلب خدمة عندك.. فأنا الآن تعافيت وأقدر على خدمة

تناسبني هنا في المزرعة أو عندك في القصر.

- وأنا وعدتك بذلك من قبل، فاعتبر نفسك من الآن موظفاً وسأختار لك الوظيفة التي تناسبك.. أضافت ما رأيك أن تكون مراقبا للعمال في حظائر الحيوانات؟ وأن تخصص لك دارا قريبة من الفيلا مستقلة عن باقي العمال، وتقدم لك الخدمة المطلوبة من هنا من فيلتي دون أن تكلّف نفسك إعداد الطعام ولا الغسيل.

- أنا موافق على ما ترينه مناسبا لي.. فقط لا أريد أن أشرف على عمال حظاير الخنازير، إن ديننا يحرّم علينا لحمه وأنا لا أرغب في مجرد رؤيته.

- لا بأس هذا أمر هين.. سكتت برهة ثم قالت: لا سأختار لك وظيفة أخرى تتعلّم منها مهنة تمتهنها في مستقبل الأيام. وظيفتك ستكون مساعدا لمتعهد الحديقة المحيطة بالفيلا، هو رجل برتغالي طيب سيعلّمك كل شيء.

- أنا أعرف أنك لا تودين لي إلاّ الخير.

- تلمع في ذهنها فكرة - تقول له: سيكون لك كل الخير - في سرها لم ترفض ما يعرض عليك - وتضيف أنت رجل طيب وتستحق الكثير، وأنا لن أبخل عليك بشيء.. أنت شهم شجاع.

- وأنا لا أنسى كرمك واهتمامك بي، وعاجز عن شكرك.

من الغد أمرت مدام روجيه السكرتيرة بتمكين عزوز من عمله كمساعد للمتعهد بالحديقة وأوصتها أن يعلّمه فنون تشجيب الأشجار والغراسة

والسقي وما يتعلق بالبستنة من تسميد ودواء ضد الحشرات وغيرها.

صحبت السكرتيرة عزوز إلى مكان العمل ونفذت ما أمرت به وهو يتبعها كانت عينه عليها، يقيّم مقوماتها بعين فاحصة ونهمة، وأماني تراوده في صمت.. قال في نفسه: أخدم واتفرّج يا عزوز، ذات يوم في ساعة الضحى خرجت المدام كعادتها كل يوم تستنشق الهواء المتجدد في جولة بين مربعات الحديقة المحيطة بالفيلا.. راقبت عزوز وهو يتحرك وبيده مقص تقليم الأشجار يتبع الخبير البرتغالي، كانت عينها على عزوز بقامته التي تزيد عن المعتاد طولا وعرضا، وملامحه الإفريقية القاسية والمميزة، وخشونته الفارقة وحتى صوته الأجش، وافتقاره للمسحة من جمال الوجه، بسنيه البارزتان حين يبتسم أو يتكلم، لكنها رأت في ذلك لمسة نادرة، والنادر عادة ما يكون مرغوبا.

جىء لها بكرسي من كراسي الحديقة وجلست تراقب سير العمل كانت عينها على عزوز.. قادها النظر إلى خيالات وتصورات أخرى. انعكست في نفسها أشياء، قرّرت أن تبدأ العمل، أخذت في التدبير، وما ذلك إلا وليد إعجاب، إعجابها بشخصية عزوز النادرة كما أقنعت نفسها، لابد من التضحية في سبيلها.. سألت نفسها هل تحبّه؟! لا إنها معجبة به وترغب فيه.. كيف الوصول؟! لابد من الحيلة.. نصب الحبائل.. الإغراء.. بماذا؟ بالشباب والجمال؟ هذا قدوتي.. بالمال؟ ربما.. وقرّرت قرارها: الوصول إلى الهدف.. هدفها عزوز.. كيف؟!.. الهدف يطوّر الدافع كما يقال.. عليها أن تطور دوافعها لتصل إلى

هدفها.. الرغبة الصامتة أحد الدوافع.. لكنها دافع سلبي، عليها أن تطوّر دوافعها في اتجاه الإيجابيّات.. الرموز والإشارات.. التلميح أولاً ثم التصريح إذا لزم الأمر.. المبعوث الواسطة قد لا يفيد في مثل هذه الحالات.. معه يصبح الأمر مكشوفا.. قد تفسده الإشاعة وتداول الأخبار. إن الرغبة في الحب تفقد رونقها حين يعلمها الناس، خاصة في سن كسن مدام روجيه، أخذت تظهر مودّة زايدة تجاه عزووز.. مودة أحيانا تقرب من الاهتمام الخاص.. تطورت فأصبحت نوعا من الغرام الصامت. لم يخطئه فهم عزوز هذه النظرات المركزة على شخصه، وهذا الوجه المنبسط حين تقابله عرضا، وأحيانا ابتسام مسروق تغطيه بسؤال ما.. عما إذا تعلم سر العمل، أو استفسار مفتعل عن شيء آخر يتعلق بالأشجار والورد والسقاية والغرس.. كان عزوز يجيبها ربما عن غير معرفة، وهو ليس بغافل عن نواياها لكنه كان يتغابى، وهي تطيل الحديث وتمعن النظرات وتتفحصّه من رأسه إلى أخمس قدميه.

بدأت تقترب أكثر تبسطا وحديثا وفرحة بوجودها معه كل صباح، ولم تكن هذه عادتها دايما قبل أن يحل عزوز بساحتها ويستلم عمله كمساعد للخبير البرتغالي في الحديقة.

كان للمدام خادمة من كورسكا - جزيرة في البحر الأبيض قريبة من سردينا - تعد لها الطعام وتهتم بشأنها الخاص. الخادمة في العقد الثالث من العمر لم تكن جميلة ولا جذابة.. كانت تتحرش بعزوز في

حذر.. أما هو فكان ذات مرة تحرّش بالسكرتيرة التي لم تعره اهتماما فهي مخطوبة وخطيبها جار لأهلها في قرية قريبة من مزرعة المدام، وهو يأتي إليها كل يوم ليصحبها معه إلى دار أهلها.. ولمّا أيس عزوز من نيلها وتيقن أنها تحب خطيبها ولا تلتفت إليه ظل يردد بيتا من الشعر من محفوظه قاله شاعر قديم:

«أنا اللي بغيته ما بغى يبغيني   واللي بغاني ما ملالي عيني»

هكذا كانت لعزوز نية.. وللخادمة نية وللسكرتيرة نية أخرى. والمدام غافلة عن نواياهم جميعا.. ولها نيتها السابقة لنواياهم، فشيطانها كان أسبق من شيطان الخادمة وعزوز، أما السكرتيرة فليس لها مأرب إلا ماهيتها التي تحصل عليها في نهاية كل شهر لتبني عش الزوجية بالتعاون مع خطيبها الحبيب.

لاحظت المدام بحدسها الذي لا يخطئ أن الخادمة تحاول أن ترمي بشباكها حول عزوز، وحتى لا يقع والنفس أمّارة بالسوء وهو شاب ومرغوب قرّرت أن تتخذ خطوة استباقية فتقطع خط الرجعة على الخادمة دونها ضجة ولم تشاء أن تطردها بلا ذنب ظاهر ولا ذريعة تبرّر ذلك.

ذات يوم طلبت من الخادمة أن تعد وليمة فاخرة وتستدعي عزوز تضيف مبرّرة ذلك بأن هذا الشاب هو من الجنود الذين دافعوا عن الوطن، ويجب تكريمه وإشعاره بأنه محل تبجيل وتقدير لتضحياته الغالية. وكانت الخادمة غير غافلة هي أيضا عن اهتمام المدام بعزوز

وملاحقته في الحديقة وعن المرتب الكبير الذي كانت تدفعه له، نظير لا شيء يقدمه لها.. هو يتعلّم ليس إلا. انصاعت الخادمة لطلب المدام وحضرت الوليمة كما طلبت منها، وجاء عزوز ليشرّف مائدة المدام وكانت الخادمة تقوم بالخدمة، وتغمز بعينها مستنكرة فعل المدام الذي صنفته في حكم التصابي الذي لا يليق بمن في سنها.

كانت المناورات دائرة من طرف المدام، تلميحا بالإشارة وحديثا، واهتماماً ومودّة سلوكا، وحضوراً مكثفاً قريبا من عزوز أثناء عمله في الحديقة وفي مرات كثيرة حين تستدعيه ليتناول معها طعام الغذاء أو قهوة المساء، وكان هو ليس بغافل عن تلك المناورات المتكررة.

ذات مرة وهو جالس معها في التراس يشربان القهوة.

قالت له: عزوز هل تزوجت من قبل؟

- لم يحدث ذلك.. فأنا التحقت بالجيش وعمري عشرين سنة بعدها جرحت وبقيت في المستشفى، ولم أعد بعد إلى بلادي لأتزوج.
- وماذا كانت علاقتك بجانيت الراهبة؟!
- علاقة راهبة متطوّعة للخدمة الإنسانية بمريض جريح.
- ألا ترغب في الزواج؟
- إذا واتتني الفرصة سوف أفعل.
- الفرص مواتية لك وأقرب ممّا تتصوّر.
- كيف؟ هل عثرت لي على زوجة ترضى بي، وأنا الإفريقي المسرح من

الجيش ولم يستقر لي قرار بعد؟!

- ماذا لو رشحت لك زوجة تكفيك مؤنة العمل طول عمرك؟ بل تجعلك ترفل في النعيم، وتنعم بالرفاهية والحياة الرغدة كأنك سلطان زمانك.

- وهل يرفض هذا عاقل؟!

- أنا سألتك.. وأنت عليك أن تقرّر.

- أنا قررّت من الآن.. أن أفعل.. هل لك أن تقولي لي من هي هذه الزوجة التي تقدم لي كل هذا النعيم على طبق من ذهب؟!

- إنها قريبة منك.. وأنت رجل تستحق كل تقدير.. لأنك وطني مخلص قدمت دمك في سبيل الوطن.. دافعت عن شرفه ورايته.

- كان ذلك من واجبي.. والجندية ضريبة ندفعها عن طواعية للوطن.

- عزوز ألم تلاحظ أن العاملين معي هنا في المزرعة يتهامسون بسيرتي وإياك؟ أنا أحتفي بك لأسباب كثيرة: منها الإنسانية والوطنية، وربما الاستلطاف.. وهذا يعرضني أكثر منك إلى الانتقاد والكلام الذي يقال في غيبتي يلوك عرضي ويرميني بالسلوك الشاين الذي لا يليق بي كواحدة يجب أن تربأ بنفسها عن الصغاير كما يقولون، ونسوا أنني إنسانة لي قلب ومشاعر وعواطف ومن حقي أن أمارسها، وألّا أحرم نفسي من متع الحياة المشروعة كسائر الناس.

- نعم من حقك أن تتمتعي بمالك وجاهك وشبابك أيضا، ولا ينكر

عليك أحد كائن من كان الحق المشروع ومتع الحياة الغير محرّمة.

- أنت تتفهم هذا.. أنت نصير الحق.. لكنهم حاسدون كارهون، وطامعون أيضا وخاصة تلك الخادمة الكورسيكية، وعامل الحديقة البرتغالي، وحتى السكرتيرة لا يخلو قلبها من حسد وطمع.. لذلك قرّرت أن ألجم أفواههم عن قول السوء، وأن أخطو خطوة في طريق الزواج، وهذا من حقي.

- قلت لك من حقك ولا ينكر عليك أحد ذلك.

- لكنك لم ترشح لي زوجا.. وقد رشحت لك، ولم تسألني من هي.

- لعلك رشحت لي السكرتيرة؟!!

- إنها مخطوبة.. وهي لا تليق بك.. هي متعالية ومتحرّرة ومنحلة أيضا.

- أو ربما الخادمة الكورسيكية، وليس فيها ما يجذب وليست جميلة.

- هي كما قلت ليست جميلة وغير جذّابة، (وسوفاج): همجية متوحشة.

- اذاً لم يعد هنا في المحيط من نساء غير المدام.

- ما رأيك؟

- إنها ودودة ومحترمة وطيبة القلب وقدمت كل الخير.. لكن..

- ماذا تريد أن تقول؟ تكبرك بالسن أليس كذلك؟

- لا ليس هذا الذي خطر ببالي.. إنما أخشاه عليك القيل في حقك؟

- وماذا يقولون؟ متصابئة؟ تلاحق مخدومها لتتزوجه؟! أنت من اليوم

لم تعد مخدومي.. ستكون زوجي، إلا إذا كان لك رأي آخر.

- زواجي منك شرف لي لكن ديني يمنعه.. أنت مسيحية وأنا مسلم.
- ألا يتزوج المسلم بمسيحية؟
- يتزوجها بشرط.
- ما هو؟
- أن تدخل الدين الاسلامي.. تعلن إسلامها.
- لكني أعرف رجلا مسلما تزوج من هندية.
- ربما كانت مسلمة.. هناك مسلمون في الهند.
- لا هي كانت بوذية.
- لا تحل لنا في الدين الإسلامي.. نحن تحل لنا الكتابية: المسيحية واليهودية بشرط أن تسلم.
- دعني أفكر في الأمر، هذا أمر يحتاج فيه القرار إلى رؤية وتأني.
- وأنا أيضا دعيني أفكر، وإن كان الأمر محسوما بالنسبة لي شرعا، وهناك بعض الفتاوى ربما نجد فيها حلا.

بدأ التقارب يلوح في الأفق.. هي قرّرت أن تفكر في الأمر.. ربما وجدت حلا، إما بأن تقنع نفسها بالدخول في الإسلام لتحقق رغبتها، أو أن تقترح عليه أمرا آخر.. كأن يكون الزواج شكلي أمام الناس فقط.. تدخل وإياه الكنيسة لأداء المراسم الكنسية الخاصة بالزواج، ويبقى كل

منهما على دينه.. فهو زواج غير شرعي لا في دينها ولا في دينه ولكنه زواج مدني أمام الناس فقط.

هو يعرف أن الزواج بالكتابية لا يكون حلالا إلا بعد دخولها في الإسلام، لكنّه كان يأمل أن تجد هي حلا ما وأخذ يفكر في عرضها المغري، فهو فرصة ثمينة، وعليه أن يذلل الصعاب من جانبه، وإن لزم التغاضي عن بعض الإشكالات فلا بأس، هو باقي على دينه لا يتزحزح، أما عن تعليقات المتواجدين وغمزاتهم وإنكارهم لما سيقدم عليه عزوز والمدام من فعل يرونه هم فعلا شائنا ما هو إلا حسداً له على الحظوة التي فاز بها لدى المدام دونهم جميعا.. وتواردت عليه خواطره وكلّها تصب في خانة الوسائل التي تبرّر الغايات.

ماذا سيحدث لو أنه اقترن بها بشكل مدني؟!.. هل هو خائف من الوقوف معها عشر دقائق في الكنيسة؟ هي لابد ستصرّ على ذلك ليكون الأمر شرعيا وقانونيا، وما يضير ذلك؟ هو سيقف معها جسما فقط.. أما النية فلا.. وردّد في نفسه قول الناس: «اللي في القلب في القلب يا كنيسة». سيعاشرها معاشرة الأزواج على شكل مبرّر ومعترف به.. على الأقل أمام الجميع.. هو يعرف أنّ هذا حرام لأنه مخالف للشرع الإسلامي.. لكنه أفضل مما كان يفعله مع جانيت واليهودية نيسة.. ذاك يمارس سرا وهذا معلنا أمام الجميع ومعترف به، وإن كان الفارق فقط وقفة الكنيسة لمدة قصيرة.

كانت قهوة المساء تجمعه هذه المرة مع المدام في تراس الفيلا الغربي حيث تلقى الشمس بأشعتها الدافية ترسلها عبر خيوط ذهبية ساعة الأصل، وكان التراس مؤمنًا ضد تجسس الخادمة التي كانت طالما تسترق السمع في أحيانان كثيرة عند اجتماع المدام بعزوز بدافع الفضول لتحصل على معلومة تشيعها بين العاملين وخاصة السكرتيرة المتواطية معها على التشنيع بالمدام، وتشويه سمعتها، لأنها تعاملها بتعال، وتعنفهما في بعض المرات حين ترتكبان أخطاء ولو بسيطة، بخلاف هذا الوافد الجديد.. عزوز.. الذي هو ليس من جنسها ولا من دينها، لكن تصابئها ورعونتها، وقد تجاوزها الزمن هي التي تملئ عليها تلك المعاملة مع هذا القادم الغريب، كانت الغيرة والحسد تحرّك الخادمة، سيما وقد تحرّشت به ذات مرة فلم يستجب لها، والمرأة عندما تهان في كرامتها تكيد الكيد العظيم، أما السكرتيرة فهي تريد أن تسمع المزيد من تهافت المدام على عزوز، لتتسلّى وتتندّر.

بادرت مدام روجيه بالكلام بعد أن رشفت رشفة من قهوة ساخنة صبتها في فنجان من إناء كبير. قالت: ماذا تراءى لك بخصوص اقتراحي أمس، والذي قلت أنك ستعمل فيه الرأي؟

- اقتراحك وجيه.. وأنا مرحب به.. وأنا لا يفوتني أن أشكرك عليه وأحسبه فضل ومكرمة عليّ منك.. فقط ما زلت غير متقبّل للدخول معك في الكنيسة.. لو تعفيني من هذه الطقوس التي لا تقدم ولا تؤخر.

- وهل إذا وقفت في الكنيسة ربع ساعة تكون قد تنصّرت؟ نحن اتفقنا أنت على دينك وأنا على ديني.

- هذا في ديننا لا يجوز.

- حتى للضرورة؟

- الضرورات تبيح المحرمات في مواطن.

- ليس هذا منها؟

- لا.. هذا له شرط لابد منه وأنت لم توافقي عليه

- ما هو؟ اذكره لي نسيت.

- أن تدخلي في الإسلام.

- كيف؟

- تقولي: أسلمت وتنطقي بالشهادتين.

- سأقولها.. أسلمت.

- والنطق بالشهادتين.

- لا أعرف كيف أنطق بالشهادتين.

- سأعلمك.. النطق بالشهادتين أمر سهل، لكن مع العقيدة والإيمان.

- أنا أسلمت وخلاص.. المهم أن يتم زواجنا اليوم قبل الغد.

- وأنا قبلت الوقوف ربع ساعة معك في الكنيسة.. و«اللي في القلب في القلب يا كنيسة». ولا مانع لدي في هذه الساعة.

ورغم ما تحصنت به من رزانة وتعقّل إلا أنها قامت في خفّة وصافحته بحرارة عربونا على الاتفاق الذي تم في فترة وجيزة، وجلست وجلس بعد وقفة قصيرة ووجهها يشع سعادة، أما هو فما زال في نفسه شيء من الكنيسة.

صادف أن كان اليوم التالي للاتفاق يوم أحد فقصدت مدام روجيه الكنيسة تصحب عزوز وتعمدّت أن يكون المدعوون عددا محدودا تجنباً لقيل الألسن بخصوص هذه الزيجة الغير متكافئة فهي قد تزوجت شابا لم يكمل العقد الثالث من عمره وهي قد تجاوزته بعشرات السنوات، لكنها حرصت على أن يكون ضمن الحضور الخادمة والسكرتيرة ومتعهد الحديقة وهم الثلاثة المناوئين لها دايما ويتداولون فيما بينهم عليها التشنيعات.. ربما تشفيا فيهم أو لأنها قد فازت به من دون الخادمة التي تعرف أنها تناوشه وتتحرّش به، كذلك اقتصر حفل الزواج الذي تم في الفيلا على عدد محدود من المدعوين كلهم أجوار بالمزارع وبعض من وجهاء القرية: (النيلاج).

قصدت الكنيسة القريبة وتم الزواج في وقت وجيز باركه راعي الكنيسة وشهد عليه الشهود، بعدها عادت تتأبط ذراع عزوز الذي بدأ بجانبها عملاقا مهيبا، وهي لا يكاد رأسها يصل إلى مستوى إبطه.. عادت بهما (كرّوسة) خاصة حافلة بالورود تجرها ثلاثة خيول مطهمة بأنواع الزينة وانتهى كل شيء في سرعة ودون ضجيج. وفي الفيلا الكبيرة ذات الأثاثات الفخمة كانت الليلة الأولى. تركها هامدة كذبابة أصابها

رذاذ من مبيد وانسل يتأفف من فعل لم يعرف مثله من قبل، ولولا أنها هي التي طلبت إطفاء النور لما استطاع أن يفعل شيئا على الإطلاق.. ارتمى منهكاً فوق فوتيل كبير كان من أثاث غرفة النوم الفخمة، وأشعل سيجارا كوبيا فاخرا كانت قد قدمته له حين دخلا الغرفة فهي تحب رائحة هذا السيجار ولا تدخنه ثم قام على وهن وانتقى قنينة خمر من نوع راق وصب له كأسا تبعته كؤوس حتى غلبه النعاس فاستغرق فيه، ولا يدري أكان ذلك بفعل الخمر الذي أفرط فيه أو بسبب الإجهاد الذي ترك على أثره العروس جثة هامدة لولا نفس فيها ينم عن الحياة.

في الصباح جاءت الخادمة كعادتها تقدم إفطار الصباح للمدام في فراشها كما تعودت.. غير أن الخادمة حسبت شخصاً آخر في هذه المرة هو عزوز الذي كان خادما في مزرعة المدام فأمسى عريسا وزوجا لها وهي مالكة الفيلا والقصر والمزارع والأموال الطائلة، فسبحان مغير الأحوال، كانت المدام مطروحة فوق السرير كخرقة من قماش لا حراك لها ولولا النفس لحسبتها ميتة، وكان هو يمتد بقامته المهيبة فوق الفوتيل يتوسّد مخدة صغيرة وضعها بين رأسه والمسند، ولحظت الخادمة فوق الطاولة الصغيرة قنينة الخمر وقد تناقصت إلى النصف وكأسا به بقية.. وعقب السيجار الفاخر وصطل كان فيه ثلج فأصبح ماء.. خرجت الخادمة ثم عادت، وحاولت أن توقظ المدام.. لكن لا حياة لمن تنادي.. تركتها وتحوّلت إلى عزوز فقرصته في ذراعه التي كانت تحاذي جسده وهو لا يزال في عز نومة الضحى، ظلت واقفة تتفحصه.. فتح عينيه

بصعوبة، وجد الخادمة أمامه.. نظر إليها مستفسرا. أجابته وهي تشير إلى المدام في اشمئزاز وكأنها تلومه على هذه السقطة المريعة، مظهرة احتقارها لها - للمدام - وكأنها تقول له: كيف لا تقارن بين عجوز تجاوزت العقد السادس من عمرها، وانتهت صلاحية عمرها المفترض وبين شابة مثلها في الثلاثين من عمرها.

لم يجبها بشيء ونهض في كسل وقصد الحمام.. أما هي فحاولت مرّة أخرى أن توقظ المدام.. طلبت منها بصوت واه أن تتركها وشأنها.

خرج عزوز من الحمام فنظرت إليه الخادمة مرّة أخرى نظرة شماتة وتشفى واحتقار وأشارت إلى طعام الإفطار. وخرجت ثم التفتت عند الباب ورمته بنظرة إنكار.

أيقظ المدام العروس بعد جهد، وساعدها على النزول من السرير تكاد تنحل أوصالها وتسقط بين يديه من شدة الإعياء والإنهاك. ساعدها على الدخول إلى الحمام.. بعدها خرجت وجلست تشاركه طعام الإفطار وكان حديثهما لا يمت إلى تلك الليلة بصلة كأنهما يتبرآن منها، ثم ارتدى كل منهما ملابسه وخرجا هي على وهن وهو يساعدها إلى الحديقة وجلسا في فضاء أشعّت فيه شمس الربيع دفئاً حين قارب منتصف النهار.. كان حديثها معه حول أملاكها المختلفة: فيلات وعقارات، وسندات وأموال سائلة في البنوك وعن المزارع والحضائر وعن أسهم في شركات، وتحدثت عن جزء من سيرتها الذاتية.. أما

هو فلا حديث له يلفت النظر، أو عن شيء يباهي به.. اللهم إلاّ أنها تلك المعركتين التي شارك فيهما ضد القوات النازية وأبلى فيهما البلاء الحسن.. أظهر شجاعة نادرة في الأولى الأمر الذي استحق عليه وسام الشجاعة، وفي الثانية كان إقدامه فيها وقتله لبعض من جنود العدو وأسر البعض سبب في جراحه البليغة التي على أثرها نقل إلى المستشفى الميداني في الخطوط الخلفية ومنه إلى المستشفى العسكري القار في مدينة بعيدة عن خط النار.

بعد جلسة في ذلك الدفء سرت الحميمية بينهما وشعر كل منهما بإنسانيته تقربه من الآخر، حدث تعاطف وإشفاق ورحمة عند كل منهما.. هي أحست بأنها تكافئ رجلا عن شجاعته وهو غريب ولا مال له وعندها الفضل.. ثم وقد أصبح زوجها ولا شك أنها تضحية منه تعترف بها بينها وبين نفسها، وهو تعاطف معها وأشفق عليها وشملها برحمته لأنها الأرملة التي تجاوزها الزمن وتقدم بها العمر وأصبحت غير مرغوب فيها إلا من الطامعين وما كان هو طماعا في يوم من الأيام.. كان يعيش ليومه، بوهيمياً أحيانا يسرف في ملذات الحياة من طعام وشراب وجنس كما كان حاله مع جانيت وأخواتها واليهودية نيسة.. وما جعل في يوم من الأيام قيمة للمال، ولا حلم بالثراء الواسع ولا جدّ في سبيله، وحتى اليوم وهو زوج لامرأة غنية جداً، وعلى أطراف العمر الأخيرة، ما خطر له أن يؤول إليه بعض من مالها، كان يؤمن بأن الرزق مقدر من عند الله، ويتذكر قول سمعه من بعض فقهاء القرية: «إنك

لا تنال إلا ما كتب الله لك» لذلك كان يحتقر أولئك الطامعين أمثال البرتغالي متعهد الحديقة، والخادمة الكورسيكية، والسكرتيرة الذين يسيل لعابهم طمعا في مال المدام، وحسدهم لها وتغامزهم وإنكارهم لتصابئها وإطلاق الإشاعات حولها، وهم الذين تدفع لهم أجورهم وتنشلهم من ضايقة الحاجة. كان يؤمن بأن الحسود لا يسود... ورزق الحاسد عند المحسود.. والحسد نار تأكل قلب الحاسد.. كما في الأمثال. وأن الحسد من ذميم الصفات.. فالحاسد محتج على فضل الله الذي يؤتيه من يشاء.. وكأن الله سبحانه وتعالى يقول.. ها أنا أزيد في العطاء لمن أنت حاسده.. وأحرمك أنت أيها الحاسد، فما كان لك سيكون للذي أنت حاسده.. هذا هو معنى رزق الحاسد عند المحسود.

ظل عزوز قرابة ثلاثة شهور زوجا للمدام.. وكان خالي البال من مراقبة سرية أحكمتها المدام حول السكرتيرة والخادمة الكورسيكية وصاحب الحديقة البرتغالي.. اكتشفت فيها أن الخادمة لها علاقة مشبوهة بمتعهد الحديقة. والسكرتيرة التي تدعي أن الذي يرافقها كل يوم من مكان عملها إلى بيتها هو خليل لها وليس خطيباً وظلت تحتفظ بهذا السر الثمين في نظرها لوقت الحاجة إليه، وفي نفس الوقت لم تهمل مراقبة عزوز فهو زوجها ومن حقها ذلك خوفا عليه من السكرتيرة والخادمة اللعوب التي كشفت علاقتها أكثر من مرة بالبرتغالي وبشكل مؤكد لا يرقى إليه الشك.

هي الآن لا يهمها مسلك الخادمة مع البرتغالي ولا السكرتيرة والخطيب المزعوم.. هي تريد إحكام المراقبة على عزوز فهو.. كما عرفت.. صاحب نزوات من قبل، وأنه لم يتقبلها هي ويقبل عليها برغبة كما لاحظت في كل مرّة، وأنه يطيل النظر إلى الخادمة حين تقوم على خدمتهما أثناء الوجبات وأنه يخرج أحيانا - عزوز - ليتابع الخادمة بالنظر ولو من بعيد، وخيل إليها ذات مرّة أنه يشير إليها بإشارات تبعث على الريبة والشك والخادمة تعرفها مستهترة لعوب، ولا شك أن بينها وبين عزوز اتفاقا ما يخططان لفعله أو فعل فعلاه وانتهى.

ظلت مراقبتها لزوجها عزوز شديدة ومحكمة، حتى كان يوما مسكتهما فيه متلبسان بالجرم المشهود.

ادعت أنها ستدخل (الساونا) وطلبت من عزوز ألا يدخل عليها أحد لمدة ساعة كاملة.. اغتنم هو الفرصة وأخبر الخادمة أن توافيه في غرفتها الخاصة وسبقها إلى هناك.. خرجت المدام بعد عشر دقائق من حجرة الساونا ولم تنزع ملابسها وبحثت عن عزوز فلم تجده.. هنا راودها هاجس أن ما شكت فيه يقع الآن بالفعل.. دخلت المطبخ تبحث عن الخادمة.. لا أثر لها خرجت إلى فناء الفيلا لا يوجد أحد.. قصدت غرفة الخادمة الخاصة.. وضعت يدها على مقبض الباب برفق.. الباب مقفل من الداخل.. الآن عليها أن تنتظر فلابد من خروج أحد.. بعد وقت قصير خرج عزوز شيعته بنظرة ذات معنى ولم تكلّمه.. برهة وخرجت الخادمة تصلح من شعرها الذي تبعثر في فوضة ظاهرة، وكان

أحد أزرار قميصها قد احتل غير مكانه لأنها كانت في عجلة من أمرها.. انهالت عليها المدام بشتائم مقزعة مثل: يا ساقطة ويا قذره.. يا عاهرة العاهرات.. حوّلت غرفتك إلى دكارتي: (المحل العام).. أنت كلبة ولكزتها بعصى كانت تتوكأ عليها في قبلها.. فهاجت الخادمة وهجمت على المدام فأسقطتها أرضا واعتلتها وأخذت تعجنها حتى كاد أن ينقطع نفسها.. ولولا أن سمع عزوز الضجة وصراخ المدام فعاد مسرعا إليها لقضت عليها.. خلّصها منها وحال بينهما.. فكان من الخادمة الا أن أخذت تسب المدام وتعيّرها بألفاظ مثل: يا عجوز.. يا متصابئة.. يا من تزحف إلى القبر على ركبتيها.. ماذا بقى لك من أيام حتى تتزوجي شابا أصغر منك بأربعين سنة.. ردت عليها المدام: أنت يا كلبة يا من تنتقلين من كلب إلى كلب.. بالأمس كان البرتغالي واليوم هذا الكلب الذي هو من طينتك.. صحيح أن الكلبة يتبعها الكلاب، والتفتت إلى عزوز.. وانت ياكلب.. اخرج من ساحتي أنت وهذه الكلبة.. ملعون أنت وهي.. من هذه اللحظة لا أريد أن أرى وجهيكما الصفيقين.. نعم اخرجا من الآن، واعترتها حالة هستيرية فظلت تهذي بكلام لا رباط بينه.. ثم صرخت صرخة مدوية وانصرعت في نفس المكان.. تحرّكت في عزوز مروءته وفزمّها بين ساعديه وأدخلها الفيلا إلى غرفتها.. وضعها على السرير وطلب لها الطبيب.. قال الطبيب عندها حالة عصبية شديدة نتيجة غضب أو فرح كبير.. قال عزوز في نفسه: يا له من فرح لو تعلم يا دكتور.. ثم دفع له أجرة الكشف من جيبه الخاص وأخذ منه وصفة

الدواء.. كان الدواء به جرعة قوية مهدئة.. عجل بها عزوز فسقاها لها دون أن تدري.. فنامت حتى الصباح.. فتحت عينيها فلم تجد أحدا.. نادت على الخادمة لم يجبها أحد.. جاء البرتغالي سألته أين الخادمة؟ قال لها: خرجت الكلبة يتبعها الكلب منذ الصباح الباكر.. عادت إليها الذاكرة.. تذكّرت بعض ما حدث في ضحى الأمس.. أرسلت البرتغالي يبحث لها عن خادمة أخرى.

رحل عزوز من ساحة مدام روجيه الثرية التي مكث زوجا لها ما يقرب من ثلاثة شهور.. رافقته الخادمة الكورسيكية التي طردت وإياه بسبب جرم واحد، ولأنهما شريكان في قضية واحدة صار بينهما نوع من التضامن والتآزر.

أخذا وسيلة نقل أوصلتهما إلى أقرب بلدة بها محطة للسكة الحديد. في الطريق تشاورا في أمرهما: إلى أي مدينة يقصدان ؟ وهل يفترقان أو يظلاّ مع بعضهما حتى يتحصلا على عمل لكليهما أو على الأقل لواحد منهما، ثم بعد ذلك ينتظران ماذا سيكون..اقترح عزوز.. أن يذهبا معا إلى ليل فهو يعرف والد جانيت ولابد أن يساعده في الحصول على عمل.. ثم عدل عن رأية بالنظر إلى أن جانيت ستعرف بأمره وهو يريد قطع صلته بها.. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى سينفضح أمرهما لأن المدام لها معارفها وعلاقاتها الواسعة في مدينة ليل.. هنا طلب من رفيقته.. هل عندها من رأي؟

قالت: أنا رأيى أن نذهب إلى باريس فهي مدينة كبيرة وفرص العمل فيها أوفر ولي فيها صاحبة تعمل نظافة في فندق في حي بيجال وسنجد عندها المأوى إلى حين..هي تسكن في غرفة واحدة صغيرة في عمارة، وحمام كل طابق فيها مشترك.. وضع فيه صعوبة، وسيكون إلى حين بعدها ندبّر عملا ونبحث عن سكن يليق.. ما رأيك؟

كما ترائين.. رغم أن باريس يصعب الحصول فيها على سكن لائق، وبسعر معقول، وإن وجد فهو في الأطراف بعيدا عن مراكز العمل.

نحن الآن في حالة اضطرار.. لابد أن نقصد صاحبتي هذه كحل مؤقت ثم نرى بعد ذلك ما يكون من أمرنا.

واستقل عزوز وصاحبته القطار إلى باريس، وفي المحطة الرئيسة نزلا فوجدا طوفان من البشر يموج بين خارج وداخل.. بيض وملونون.. شباب وكهول.. نساء ورجال وأطفال.. حقائب تجرجرها الأيدي وكلاب يقودها أصحابها.. صفير قطارات داخلة وأبواق تعلن عن انطلاق قطارات.. ودخول أخرى.. أضواء تسطع في فضاء المحطة. أكشاك تبيع الصحف والدخان والخردوات وأخرى تبيع السندوتشات المجهزة.. عربات للباعة المتجولين تقدم المشروبات بأنواعها.. ضوضاء يحاول الإنسان أن يهرب منها ما أمكنه ذلك.

خرج عزوز والخادمة المطرودان.. لا أمتعة لهما إلاّ حقيبة صغيرة دست فيها الكورسيكية بعض الملابس على عجل.. أما عزوز فلا متاع

له إلا ما يلبسه فوق ظهره.. خارج المحطة لمح عزوز (كوشة) في أسفل إحدى البنايات يقدم أصحابها الفطائر ساخنة.. أسفنج فطير، زلابية، محشي وحلويات.. وكان الجوع قد بلغ منهما أشدّه.. قصد وإياها المحل.. وقف ينتظر دوره ليأخذ شئ من تلك الفطاير يسدّان به الرمق.. حين وصل فيه الدور.. نظر إليه البايع، وكان معه رفيقه والاثنان من الجنوب التونسي: (غمراسن) قال الغمراسني يأمر صاحبه وكانا يتبادلان دايما عبارة لاذعة وأحيانا نعوتا خبيثة ومستهجنة يتندّران بها على الزبائن.. وفي ظنهما أنهما غير مفهومة إلاّ بينهما.. هما يستخدمون تلك العبارات والنعوت للترويح عن النفس جراء ضغوط العمل والبيئة والمحيط وإراحة للملل ووحشة الاغتراب.

قال الفطائري لصاحبه: اشبح ها الفقد شن يبض.

استشاط عزوز غضبا من العبارة التي قالها الفطائري، وهو يعرف معناها، وهجم على الرجل بسيل من عبارات السب والشتم بدأها بقوله: غق أمّك.. يا طحان.. يا بطيحة.. يا مرضى.. يا بولذان.. يا مشقق.. يا غمراسني.. يا زوفري.

خاطب الرجل مساعده: كهوه.. هذا عارف القاموس كلّه.. بربيّ منين أنت؟ هذه وحده.. ولخره كيف عرفتني غمراسني؟!

أنت كأنك ماك غمراسني.. حووي من بني خداش.. والا كرشاوي من السّحار.. كان ما هاذا دبابي والا شهيدى من تطوين..

كان ما هذا عزوز ما يعرفش.

والله إلا قلت الحق.. أنا من غمراسن وصاحب هذا حدّادّي من قصر الحداده.

- طينة واحده.. ما فيكمش فرق وهاذي صنعتكم فطيره وسفنز.
- بالله أنت امنين؟ وبالحرام ماك دافع فرنك في اللّي تطلبه.
- أنا عيّاري حر.. من عرش أولاد عيّار أهل المكحلة والحصان. أنا ولد عم على بن غذاهم.. شن عندك ما تقول؟!
- تريس عز.. وفرسان ما عندي ما أنقول.
- باهي أمّاله هات خمس سفنزات يا بولوذان.
- مساعد السنفاز يحتج: ريت.. ريت وما زال إعايب.. من كلامك يعطهولك بالعسل.

عزوز: تسكت أنت يا مقطش.. يا (بافابو) :- اسم لوعاء معروف بنقل فيه حب الزيتون على الظهر ويصعد به إلى أعلى حيث يفرّغ في حوض الطاحونة، ينحت به الشخص على سبيل الحقارة والوضاعة.

يضحك صاحب محل السفنز ويقول لمساعده: أركح أنت موش شغلك بالحرام ما ياخذ اللا اللي يبي.. هذا راجل ونصف.

كانش بالجهامة.. أهو طلبك خمس سفنزات.. تقول عاقب من أولاد هلال

يستاهل والله ما يأخذهم إلا بالعسل كيف قلت الترس مش زي بعض.

عزوز: أهو اللي يقول في الحق موش زيك يا نسنوسة المانيين.

وهالسلوقيه اللي أتبع فيك.. بالله أمنين؟! قال صاحب المحل.

المساعد: بالك حتى هي عيارية.

- عزوز: تسكت هالفار والا أنحش أنهرسلة عظامه.. هاللي لسانه زي المحشة.

- يستاهل طريحة.. هذا حشاك واحد قبيوع.

- طبّه عندي.. بوكان غير ماجي بيني وبينه كالكنتوار.

- ماقلتليش.. منين رفيقتك؟

- هاذي يا سيدي ابن سيد.. وحده قاورية.. صارت على غريبة أنا وإياها.. الله لا يوريك كنا في بلاد وتوّه خشينا بلاد ما عارفين وين يرمينا المكتوب.

- شنو تلوّجو على خدمه؟

- ماذا بينا.. لكن توّ قاصدين شور تشونو شنو ثم والاّ ما تماشي.. بعدين أدير ربك طريق.

- والله انت راجل خشيت خاطري.. بره لشورك أو كان ما عجبكش الحال تعالى هوني.. أهو المحل معروف تو. اندبرلك بلاصة تخدم.. ومانا إلا أولاد بلاد.. حقنا على بعضنا.

- الله يرحم ولديك.. انت ينظهر لي ولد ناس.. كان غير يخطاك هالقيبوع.
- ما عليك فيه.. هذا ديما هكي فم ما يسكتش وانت سامحني في هاكي الكلمة.. حتى كأنك رديتها لي ثاني ومثلت . لكِن صحة لأمك كلمتك ما تردهاشي.
- مدّه بما طلب: خمس سفنرات بالعسل وزاد بعض المحشي.. وقال له بالشفا والعافية.
- سأل عزوز عن الذي أعطاه له مع السفنز وكان ملفوفا في ورق قائلاً: هذا شنو؟
- هذا محشي من اللّي نودك بالفستك والعسل.
- نشهد ونعلم أنك غمراسني حـق.. موش كيف هالحدادي الكمسوع.. هذا حتى شربة الماء ما يمدهالك وانت عطشان.

ضحك الجميع وخرج عزوز تتبعه الكورسيكية واستقلا المترو ثم غير وسيلة أخرى حتى وصلا إلى حي بيجال حيث تشتغل صاحبة الكورسيكية نظافة في فندق وضيع يؤجر غرفة بالساعة طيلة الليل وشطرا من النهار وخاصة بعد الظهر.

سألت هي صاحبة الفندق عن صاحبتها.. أفادتها أنها خرجت منذ سنة وأنها تسكن في نفس الحي وتمتهن نفس المهنة السايدة في أغلب الفنادق والدور في ذلك الوسط.. بائعة هوى.

أخبرت الكورسيكية رفيقها عزوز بما قالت لها صاحبة الفندق.

قال عزوز: تخرجت من مدرسة كبيرة بعد أن حذقت المهنة.. فتحت محل لحسابها لا بأس.. «أربط الجحش حذا الجحش يعلّمه الشهيق والنهيق وتطنيش الخشوم».

سألته الخادمة المتورطه معه في فضيحة ما زالا تلاحقهما تبعاتها.

ما معنى قوله الأخير.

قال: وماذا تريدنها أن تتعلم؟! ثقافة المحيط.. وجدت غيرها ينخرط في هذا العمل.. هذا ما فعلته.. هي حرّة تفعل ما تشاء.. هوى.. بائعة هوى.. حرفة من الحرف.. يعيبها الناس ويفعلونها.. يجيزون لأنفسهم الفعل وينكرونه على الطرف الآخر وهم شركاء معه.

هي: ألا ترى أن هذا الفعل الذي يمارس في العلن هو أفضل من نفس الفعل يمارس سراً؟!

- لا شك.. خصوصا وهو فعل مصرح به قانونا، ومراقبا صحياً.

- لذلك منحت له النظم الحاكمة في بعض الدول التراخيص وراقبته من الناحية الصحية، وحصرته في أماكن معروفة، فهو من هذه الناحية بضاعة لا تباع في السر (أنوار) ولا تقدم مغشوشة.

- هو ما قلت تماما.. والآن ما العمل وصاحبتك لابد الآن تعرض بضاعتها في حانوتها الخاص.. والليل قارب أن يداهمنا ولم ندبّر مكانا نبيت فيه في هذه المدينة الساخبة التي تموج بالبشر في الليل والنهار، مختلط فيها الحابل بالنابل، وكل لاه في شأنه.. ما العمل الآن؟

- لابد لنا من الاتصال بصاحبتي، لا مناص من ذلك.. ستدبّر لنا الليلة كيف نبيت وغدا سيكون لنا شأن.
- وكيف الاتصال بها؟
- أخذت من المدام صاحبة الفندق، كارت بعنوانها.
- قريب من هنا هيّا إليها.
- وسارت خطوات في الحارة التي يقع فيها الفندق ومعها عزوز ثم حادا يمينا ودخلا في شارع طويل تتفرع منه شوارع صغيرة تكوّن في مجملها الحي بكامله.. في غرفة على الشارع كأنها حانوت واجهته (فترينة) كبيرة من زجاج ملمّع تحمل رقم 12 كانت صاحبة الكورسيكية تجلس على كرسي تعرض اللحم.. وقفت ووقف بجانبها عزوز بقامته المهيبة ووجه المتجهّم وملامحه الإفريقية المميزة لم تخطى عين المرأة في الداخل صاحبتها التي لم تراها منذ سنة مضت، لكن من هذا العُتل الذي يرافقها.. لم تطق صبرا ونقرت على الزجاج من الداخل تطلب من الكورسيكية أن تدخل من الباب على يمينها.
- دخلت يتبعها رفيقها الجلف رحبت بهما المرأة بعد أن دخلت وإياهم الغرفة وجلست وصاحبتها على طرف السرير وجلس عزوز على كرسي وحيد في الغرفة.. قدمت لهما القهوة.. تحادثت الصاحبتان حديث ذا شجون شمل الحديث حاجتهما إلى إمكانية الحصول على مادي ولو ليلة واحدة.. ثم تحدثتا بشأن العمل لها ولرفيقها.. حلّت

المشكلة مؤقتا فالمرأة لها شقة صغيرة بها غرفة نوم واحدة وصالة كافية لثلاثتهما لمدة وجيزة.. أوقفت المرأة العمل وخرجت وإياهما مشيا على الأقدام إلى شقتها في حي مجاور.. هناك جدّدت ترحيبها بصاحبتها ورفيقها، وأخذت تعد الطعام.. وجلس عزوز تقابله صاحبته يشربان أقداحا من الجعة الهولندية قدمتها لهما مضيفتهما، وظلت تتبادل معها الحديث عن بعد وهي مشغولة في المطبخ المفتوح على الصالة.

- قالت المرأة تخطاب صاحبتها: أنا أعرف أنك كنت تشتغلين في قصر سيدة ثرية في ليل، ما الذي جعلك تتركين مثل هذه الخدمة؟ ولا شك أنها مريحة ومجزية.
- لهذا قصة طويلة سأحكيها لك فيما بعد.
- عزوز: ستفضحينا أمام المرأة.. وستنشر هي خبرنا.
- لا إنها ليست امرأة ثرثارة وتحفظ السر.
- إذا لم تحفظي أنت سرك فلا تلومين أحدا على إذاعته. وهل هناك امرأة تحفظ سراً؟!
- ومن ستخبر به هنا؟! زميلاتها في المهنة.. وكل منهن دخلت ذلك الوسط بفضيحة كفضيحتنا أو أثر منها، ومن يعرف منهن أهلنا فليخبرهم. أنت من بلد بعيد.. من أفريقيا، وأنا من جزيرة في البحر.. لا تخف.
- وحضّرت المضيفة الطعام وقدمته لهما وشاركتهما فيه أعقبته جلسة

شراب وسجائر وسهرة لم تطل.. بعدها تنازلت المرأة لضيفيها عن غرفة نومها.. ونامت هي في الصالة حيث جعلت من الفوتيه سريرا.

- قبل أن تغفو سمعت: حركة وأصوات، وصرخات مكتومة، وكلام لم تتبيّن معانيه، ضجّة استمرت نصف ساعة أو تزيد بعدها عم السكون. لم تر المشهد عيانا لكنّها تصورته بالسماع.. نامت وفي مخيلتها الفعل، كما تصورته.. عند الفجر تكرر الفعل مرّة أخرى، وفي هذا الوقت كانت مضيفتهما مستيقظة، فاستوعبت ذاكرتها كل شيء: تأوهات صاحبتها وفحش القول الذي كان الرجل يصبها في سمعها، وهزهزة السرير والشهقة الأخيرة حين الرعشة الكبرى وما تلاها من موات شمل الاثنين. تواردت عليها خواطر شتى.. هي تمارس مثل هذا الفعل الذي عاشته بالسماع، وأحست به فكان له طعمه الخاص.. قارنته بما تفعله مرات عديدة كل يوم ومع أغيار، ووجوه مختلفة، وأمزجة متباينة.. كان الفرق شاسعا، بل أقرت أن لا وجه للمقارنة..خلصت إلى نتيجة أن الأمر بالنسبة لها لا يعدو أن يكون مهنة.. بيع وشراء.. عرض وطلب.. شيء خال من المشاعر والأحاسيس.. تنتهي العلاقة بين الزبون وعارض البضاعة بعد دقائق معدودة.. بعدها كأن شيئا لم يكن. سألت نفسها إلى متى هذه الحال؟!.. أليس الحياة الطبيعية أفضل؟: زوج وزوجة يربطهما رباط مقدس شرعا وقانونا.. أو حتى عشيقين اثنين يمارسان الحب ولهما حياتهما الخاصة يعمل كل منهما عمله مهما كان نوعه، عامل

أو موظف، صانع أو تاجر أو فلاح، يساهم في صنع الحياة العامة ضمن المنظومة الاجتماعية وفي إطارها؟ ويخطر ببالها سؤال آخر: أليس الجنس أو قل الدعارة هي مهنة قديمة منذ بدء الخليقة، وأنها تكوّن الثالوث المتلازم: حياة، جنس، موت. انتشلها من هواجسها خروج صاحبتها وصاحبها من الغرفة وكل منهما على وجهه فرح وسعادة ونشوة ظاهرة.

- حيتهما تحية الصباح فردّا التحية.. قالت: كان نومكما عميقا وهاديا عدا البداية وعند الفجر: كانت العواصف والرعد والبرق، وتبسّمت لتصل الرسالة ويكتمل المفهوم.
- إنه موسم هطول المطر، والخصب، ولابد للعواصف من رعود وبروق قالت: صاحبتها.
- المناخ شاتي والأرض بور ستنبت الأعشاب وتتفتح الأزهار: ويكون الربيع. قال عزوز.
- ضحك الجميع وجلسوا حول القهوة وفطر الصباح.

قالت المضيفة: أنا قررت أن أهجر مهنتي وأبحث عن عمل آخر وأن أتزوج، أو حتى أتخذ خليلا وأعيش عيشة طبيعية من الآن.

صاحبتها: ربما يكون أفضل، وإن كنت أعتقد أن في مهنتك كسبا أكثر.

- إنه كسب حرام لا يربأ.. أنفقت كل ما حصلت عليه طيلة سنة ولم يبقى لي إلا الخسران والحسرة.. والساعات التي قضيتها معكما منذ

الأمس وحتى هذه الساعة غمرتني بالألفة والسعادة والفرح.. شعرت بطعم الحياة ولذة العيش بعيدا عن بؤرة الانحطاط والفساد، ووسط الرذيلة والانحراف.. لقد قرّرت من الساعة الإقلاع عن هذا المسلك، والانحطاط في الوسط الاجتماعي السوي والنظيف سأبحث مثلكما عن عمل، أي عمل يكفل العيش وأنا راضية عن نفسي، مطمئنة البال، لا أبيع جسدا باردا كما كنت أفعل، لكل طالب شهوة عابراً، وأنا فاقده كل شهوة، وأعود في آخر الأمر متعبة منهكة تنهشني الهواجس، والأفكار السوداء، ولا أجد في هذه الشقة معي إلا الكآبة والحزن. البارحة أنتما في حال من السعادة والفرح، مارس كل منكما حياة طبيعية ونام قرير العين، وها أنتما عازمان على الخروج إلى الدنيا الواسعة تبحثان عن عمل شريف ومأوى نظيف وكل عن نفسه رضيٍ أليس هذه هي الحياة الفضلى؟. إن ايام العمر تنصرم يوما بعد آخر ويوم واحد يعيشه الإنسان راضيا عن نفسه لهو أفضل من عام يعيشه متذمّرا منكرا الحياة يراها منحرفة عن الصراط المستقيم.. نعم أن الفضيلة ولو مع شغف العيش لهي نعمة كبرى، والسعادة في الرضا عن النفس والقناعة هي كل شيء في الحياة.

قرّرت تلك المرأة المهتدية أن تخرج مع عزوز وصاحبته تبحث عن عمل شريف مثلهما. في الطريق قبل أن تبتعد عن الحي الذي تسكنه التقت بواحدة من معارفها أخبرتها أنها مستخدمة في مصنع للخياطة وأنه على بعد خطوات منها وستزورها بعد أن تنهي عملها.. سألتها

وهل ما زال المصنع في حاجة إلى مستخدمات؟.. أفادتها أنها على معرفة طيبة بمدير التشغيل وستجد لها فرصة لا محالة وطلبت منها أن ترافقها في الحال. ودّعت ضيفيها وطلبت منهما الرجوع إلى الشقة إذا لم يجدا عملا، وهي تحت تصرفهما في أي وقت وذهبت مع صاحبتها.

في التو حصلت تلك المرأة التائبة على عمل في المصنع كمصنفة للملابس وبأجرة تزيد عن أجرة بقية العاملات على الماكينات، وفي قسم التغليف.. كان عملها سهلا استوعبته بسرعة وتكيفت معه ولم تشعر بتعب ولا ملل، ووجدت في صاحبتها معينا لها ورفيقة تقدّرها وتحترمها وتجالسها في المقصف أثناء وجبات الطعام.

أما عزوز وصاحبته أثناء تجوالهما بحثا عن عمل وجدا مكتباً للاستخدام، وبالسؤال أفادهما بوجود وظيفة مربية أطفال لدى أسرة تسكن في نفس الحي، وبماهية سماها لهما على أن تكون الإقامة دائمة مع الأسرة وأجازة يوم واحد في الأسبوع، والأسرة لها طفلان: بنت في سن المدرسة وولد في طور الحضانة.. وافقت الخادمة الكورسيكية فرحة بهذه الفرصة الثمينة.. عمل مريح وفي مدينة باريس التي تحلم بها دائما. واستلمت العمل فوراً بواسطة مكتب الاستخدام.

أما عزوز فقد ظل يجوب المنطقة سيرا على الأقدام من الصباح وحتى المساء دون طايل، عند منتصف النهار عضه الجوع فجلس في مقهى صغير وطلب (كسكروت) وعصير فواكه جاء على خاطره: أين

يبات الليلة إذا لم يجد عملا يضمن فيه السكن، كأن يكون حارسا في عمارة أو مصنع أو قاراج وما شابه ذلك؟ تذكّر أن المرأة الطيبة التي استضافته وصاحبته ليلة البارحة طلبت منهما: أن يعودا إلى شقتها في حالة لم يجدا خدمة أو مأوى.. ارتاح إلى هذا الخاطر لكنه: الآن الآن وحده فصاحبته تحصلت على عمل مع أسرة تبيت عندها فهل تقبله وحده؟ لعل في الأمر إحراج لها. لا مفرّ له من ذلك - قصد الشقة.. وجد المرأة قد عادت من عملها.. طرق الباب.. رحبت به.. سألته عن صاحبته.. قال لها: إنها تحصلت على عمل كمربية أطفال مقيمة مع إجازة يوم الأحد.. فرحت لها وطمأنته..أنها ستسعى معه في الحصول على خدمة بمساعدة صاحبتها وقالت له: هذا بيتك إلى أن تحصل على عمل وإن شئت لتبقى معي في بيتي ولا داعي للبحث عن سكن إذا وجدت عملا قريبا من هنا.

شكرها ممتناً وطلب منها أن تسعى معه في الحصول على عمل وبعدها يرى ما يكون. كانت تعرض عليه المساعدة بعيدا عن أي مآرب في أريحية صادقة وبكل ود فتلك طبيعتها.. محبة الناس ومساعدة أهل الحاجة. أما هو فظن أن المرأة ربما تنوي نوايا أخرى والظن بعضه إثم، والنفس يوسوس لها الشيطان.. تناول معها الطعام وطلب منها بعض الشراب فقدمت له قدحا من الجعة وامتنعت هي عن مشاركته لأنها ستقوم باكرا للالتحاق بالعمل وتريد أن تقدم انطباعا حسنا للمشرف على عاملات تصنيف الملابس والالتزام بالمواعيد وحسن الأداء..

فالمرأة قررت أن تغير حياتها رأسا على عقب، فبعد أن كانت تقوم الضحى أصبحت تنهض عند الفجر وكانت تسهر الليل، أصبحت تنام باكرا بعد العشاء.

طلبت من عزوز أن ينام في غرفة نومها التي بات فيها الليلة الماضية مع صاحبته، وأن تنام هي في الصالة على الفوتيل الذي يتحول إلى سرير لشخص واحد.

قل لها: غرفة نومك من خصوصياتك، فدعيني أنام في الصالة وتعالي إلى غرفتك حتى أكون مرتاح الضمير ولا أثقل عليك في شيء.

- أنت على السعة والرحب.. لا تثقل عليّ أبدا، بل أنا مسرورة جدا بوجودك.
- هذا من كرمك وطينتك الطيبة.. لكني والله محرج من احتلالي لغرفتك الخاصة.
- لا حرج عليك.. ثم إن سرير الفوتيل لا يسعك وأنت بهذه القامة المهيبة.
- وتبتسم وتضيف أنا أمدحك ولا أعيب هذا الطول الآسر.
- لكنّه طول حرمك من النوم في سريرك وغرفتك الخاصة كرماً منك وتبجيلا.
- لا عليك نم هنيئا.. ولا تنسى أن تأتي عند منتصف النهار.. فأنا قادمة إلى البيت لأن عملي قريب من هنا وسأعد لك الطعام فلا تأكل في القهوة. وعدها بالقدوم ودخل إلى غرفة النوم بعد أن أخذ حاجته من الطعام والشراب، وقبل النوم تحاور مع الشيطان.

ش: إنها تريدك.. تشتهيك وقد سمعت حركة وصوت الفعل ليلة البارحة حيث نمت في سريرها مع صاحبتك.

لم تظهر لي ما ينم عن رغبتها كما تقول.

ش: (يتمنعن وهن راغبات) هي تعمدت ذلك: حتى لا تبدو في عينك رخيصة. وهي الآن تتقلب على أحر من الجمر في ذلك الفراش الذي لا يليق بها وتتمنّى في رغبة شديدة أن تكون في حضنك فوق هذا الفراش الوثير.

هي نامت فعلا.. لقد لاحظت أنها تغط في نوم عميق حين دخلت وتركتها في الصالة.

ش: هي تناومت فقط..ولكنّها الآن مستيقضاة تنتظر في مبادرة منك.. وأنت تعرف أن النساء قليل منهن المبادرات.. فقط تلميح منك أو إشارة وترمي بنفسها عليك.

المرأة أكرمتني.. واحتضنتني، ووعدت بمساعدتي في الحصول على عمل كيف أدنّس علاقتي بها لمجرد نزوة عابرة أفكر فيها الآن؟!

ش: هل تسمي قضاء وقتا سعيدا في حضنها: تدنيس علاقة؟! هذه العلاقة هي تتمناها من كل قلبها.. بل تعتبرها مكافأة منك لها على حسن إكرامها واستضافتك.. وماذا ترجو منك من جزاء، إن لم يكن رغبة فيك قم يا رجل وخذها من يدها وادعوها إلى أن تنام إلى جانبك إنها تنتظر.

هم أن يقوم بها وسوس له الشيطان، وفعلا نهض من الفراش وجاء على حذر حتى اقترب من المرأة وهي تنام هادية في الصالة، اقترب حتى دنا من وجهها فوجدها تتنفس نفسا مطمئناً مستغرقة في سبات عميق. تراجع خجلا من نفسه ولعن محاوره ونام حتى الصباح.

خرجت المرأة دون أن توقضاه فهي: ملتزمة بوقت العمل وهو لا يزال نائما، لكنها أعدت له قبل أن تخرج قهوة ساخنة وشيئا من حلوى وكوبا من عصير الفاكهة، وضعت كل ذلك على طاولة صغيرة في الصالة وتركت معها ورقة كتبت فيها: صباح الخير.. هذا إفطارك ولا تنسى أن تأتي في منتصف النهار لعلني أبشرك بالحصول لك على عمل.. إلى اللقاء.

تناول إفطاره وأخذ الورقة معه وخرج، كان قد أصبح يتكلم اللغة الفرنسية بالقدر الكافي للفهم والإفهام، مع الكنة الواضحة في اللسان، لكنه لا يقرأها مكتوبة. دفع بالورقة لصاحب كشك يبيع الصحف ليقرأ له ما احتوته من معنى.

قال له الرجل: صاحب الورقة يصبّح عليك بالخير ويطلب منك أن تكون في البيت عند منتصف النهار.. شكره ومضى في طريقه يبحث عن عمل.

لم يقم بجولة كبيرة في تلك المنطقة القريبة من البيت الذي خرج منه، فقط سأل أكثر من مكتب للاستخدام ولمّا لم يضافر بطايل جلس في مقهى وسحب من جيبه علبة سجاير وأشعل واحدة في انتظار ما طلب

.ز تذكر صاحبه الغمراسني صاحب كوشة الفطاير الصغيرة قرب محطة القطار الرئيسة.. بحث عن عنوانه في جيبه.. وجد الكارت الذي يحمل رقم الهاتف.. تكلم معه بالتلفون.

- الو.. صباحك بالخير يا..

- يا أشكون؟ يا غق.

- أهه راحت والقيناها.. هاذي الكلمة اللي بعد شوي أد أصمت أنا وإياك عليها.. صاحبي الغمراسني؟!

- منين جاتها الصحبة.. وأنت تقود بعد أنداحمنا؟

- ما هي الصحبة الباهية اللي تقعد ديما تكون بعد عركة.

- بربي أنت أشكون؟.. أنا نقول هالسان موش غريب عليّ.

- أنا يا سيدي صاحبك. اللي بعد شبكت بينا كلمتك بالإمارة قاعدش معاك هاك البوكشاش.. نسنوسة المانين.

- وراس أوخي ما زال ما عقلتكش.. يجذاني زازه برشه.

- أتناي: العياري اللي من تبرسق.. وانت يومها عطيتني خمس سفنزات بالعسل وباكو محشي بالفستك وحلفت ما تاخذ منه حتى فرنك.. والكسوع اللي معاك ما طابش على خاطره.

- الله يفكرك في الشهاده.. كيفئك يا راجل.. وين طاح حيك راجيتك ياسر ماكلمتنيش.. هي إن شاء الله لا باس ما فاتك إلا السوء.

- ما تراش سوء إن شاء الله.. أنت ما ولا بأس.
- الله لا يوريك بأس.. ننشد على حالك.. يا راجل القيتلك. خدمه إن شاء الله اتساعدك.. هي هكاك وبره.. لكن خير من بلاش حتى نلقو ما خير منها.
- ربي إيباركلك إن شاء الله وينزع عليك هاكة الممسوخ.
- يضحك الرجل: راهو شنتي ما ينزمش غير انت ما فهمتاش
- ما فيه بركة.. غير انت ينظهرلي راجل تعاشر حتى الكلاب.
- خلينا منه يارا.. تو دبر كيف أطق خي تشبح الخدمة بالك حتى ما تعجبكش.
- غدوه إن شاء الله انكون عندك جيانا الحي.

لاحظ خروج المستخدمين من المكاتب في الشارع الذي يوجد فيه المقهى وهو جالس ينتظر منتصف النهار حتى يعود إلى بيت المرأة القريب، وقد أصبح يعرف الزقاق المؤدي إليه.. عرف أن الساعة قاربت الموعد الذي ضربته له المرأة وقت الغداء.. سأل النادل عن الساعة.. عرف أنها الثانية عشر ظهرا.. نهض وأخذ طريقه.. دخل البيت فوجد المرأة تعد مائدة الطعام، قابلته بفرح طافح على وجهها.. وكان هو من جهته مسرورا عن ذي قبل.. قال لها : صاحب لي وجد لي عملا.. لا أعرف ما هو حتى الساعة، ولا كم هي الأجرة في الأسبوع، وعلى كل حال فرجت إن شاء الله.

ولكني أنا وجدت لك عملا مريحا، وبأجرة لا بأس بها، وقريبا من

هنا، تذهب إليه مشياً على الأقدام، وفي هذه الحالة أنت ضمنت العمل والأجر المجزي.. والسكن معي في بيتي كما اقترحت عليك من قبل حتى توفر نقودك، ولا تكلّف نفسك أعباء إعداد الطعام والغسيل وما شباه ذلك من خدمة هي من شأن المرأة.

لكني سأكلفك مشاق كثيرة هو أنا لا أرضى لنفسي أن أكون ثقيلا عليك.

أنت لن تكون عليّ ثقيلا.. وأنا مسرورة بأن تعيش معي.. أنت أنس لي في وحدتي، وستجدني خادمة لك.. أنت رجل طيب وتستحق كل خير وعون.. وربما مقدمك عليّ أنت وصاحبتي في ذلك اليوم الذي قررّت فيه تغيير حياتي وسلكت مسلكا آخر كان فال حسنا لي. لا تفكر في مغادرة هذا البيت لأي سبب إلا إذا كانت الخدمة التي وجدها لك صاحبك أفضل وأجرها أجزى فلك الخيار.

لا أعتقد ذلك.. وحتى لو كان أجرها أجزى.. فإنني لن أجد راحتي في السكنى وحدى، وستكون هناك مصاريف إضافية.. صحيح كما قلت الوحدة قاتلة.

إذاً قررت أن تبقى هنا اذا كانت الخدمة التي وجدتها لك أفضل وأجرها مناسب، وحسب ما قيل لي أن الأجر معقولا جداً.

أنا من حيث المبدأ سأبقى هنا.. فلا أضمن أن الخدمة التي وجدها لي صاحبي أفضل، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: الوسط هنا أرقى وأنظف بكثير من هناك.. صاحبي مكانه في محطة القطارات الرئيسة،

حيث أجناس من البشر من كل لون داخلون خارجون لا استقرار لهم فهم مسافرون قادمون ومسافرون ذاهبون.

دع عنك هذا.. إنه وسط مختلط ومشبوه ومراقب دايما، وكم تحدث فيه من جرائم سرقة وأعتداء وتدليس وتزوير، وممنوعات تباع في السر والعلن يطارد أصحابها البوليس.

فقط سأذهب غدا كما وعدت صاحبي، وسأعتذر له وأعود سأكون هنا قبل موعد الغداء.

حسنا تفعل.. تعالى الآن الى مائدة الطعام.. بعد ذلك استرح في غرفتك.. خذ قيلولتك.. أما أنا فإني سأنام ساعة وقبل المغرب خارجة إلى الحمام البخاري قريبا من هنا فهذا يومي المعتاد، وسأعود حالا لنتعشى ونسهر الليل فغدا عطلتي الأسبوعية.

جاء إليه شيطان صغير آخر، بعثه الشيطان الأكبر الذي لم يفلح معه في المرّة الأولى، وأوصاه.. الشيطان أوصى الشيطان.. أن يحاصره من كل مكان وأن لا يجعله يفلت من قبضته، لابد من إيقاعه، إنه فريسة سهلة، فقط يريد من يزين له النزوات، هو يحب النساء.. والمرأة معه في بيت واحد، وهي جانحة، وتدعي التوبة.

دخل عزوز غرفته التي ألفها ليأخذ قسطا من الراحة كما طلبت منه هي بعد أن أكمل الطعام، وظلت هي مستلقية على الفوتيل في الصالة ساعة من زمان، حتى جاء ميعاد الحمام فخرجت تصحب معها حقيبة صغيرة بها

فوطة كبيرة للتجفيف ومستلزمات أخرى وأقفلت وراءها الباب.

ظل الرجل يتقلّب في الفراش يحاول النعاس، فيسحب اللحاف على وجهه ويغمض عينيه، لكن الشيطان المبعوث يحاصره بخواطر شيطانية واحدة بعد أخرى.. أولا لماذا قالت له خذ قيلولة تريح بها أعصابك؟ ألم تسمعها تقول الليلة سنسهر بعد العشاء وغدا هي في عطلة من العمل؟! ذهاباً للحمام البخاري أليس فيه تلميح وإيماء لما تريد وترغب؟!

إصرارها على أن تبقى معها في البيت.. تعد لك الطعام وتقوم على خدمتك ألا يدلك على نواياها التي لم تفصح عنها ؟ إنها المرأة لا تبدي رغبتها إلا إيحاء وإيماء.. وهي دائما لا تبادر لكنها لا تمانع.. ما عليك إلا أن تبدأها بكلمة أو مجرد لمسة أو همسة أو إشارة منك، وستجدها طوع أمرك.. كن جريئاً يا رجل، فلا يفوز باللذة إلا الجري الجسور.

عادت نظيفة معطّرة فرحة، تسبقها ابتسامة مشرقة حين أطلت من فرجة الباب داخلة إلى شقتها، كان هو جالسا في الصالة يدخّن سيجارة وقد بيّت في نفسه نية، كانت من وحي الشيطان - أن يكون جريئا جسورا فاللذة يفوز بها الجري الجسور - قرّر أن يبادر فهي الوسيلة الناجعة للوصول إلى الغاية.

- مساء الخير.. أنا داخلة حالا إلى المطبخ لإعداد وجبة خفيفة وبعض الميزات التي تناسب الشراب والسهرة.. لا أستغرق وقتا طويلا.. انتظرني.

- أنا منتظرك منذ ساعات.. في سره.. إن شاء الله يا بنت قلبك عامر..
لا يضرني مزيدا من الانتظار.. خذ راحتك.

- ماذا تشرب الآن ؟!.. عجّة ؟ دعك منها.. أنها تثقل المعدة.. حالا سآتيك بشراب من نوع آخر ومميزات.

- هات ما عندك وما تختارين.. أنا الليلة لي رغبة في الشراب وفي غيره.

- خذ هذا : براندي من نوع فاخر، وهذه جبنه (سرمار جانو) نوع فاخر من أجبان بارما الإيطالية.

- وسوس له الشيطان: ألم أقل لك أنها راغبة؟ وتنتظر منك فقط في أن تخطو خطوة جسورة.. لا تترك الفرصة تفلت منك.

كانت خفيفة نظيفة معطّرة فرحة، تنتقل بين المطبخ والصالة كأنها فراشة في خميلة مزهرة تبحث عن دفء الشمس.. ارتدت بلوزة برتقالية اللون فوق جيب لبني، ووضعت على صدرها: (سرفيتة): طابلية واقية من رذاذ الماء وعوالق المطبخ، وفي رجلها نقال بيتي خفيف زاد من قامتها سنتيمترات، كان وجهها مشرق يطفح بالفرح، ومن درجة حرارة الحمام العالية تورّد خداها وتألقت بشرتها صفاء ونقاء.

بين وقت وآخر لا يطول فاصل بينهما، تأتي فتصب له كأسا وتأخذ كأسا كان هو يستعجل الشراب ليتزود بشحنة من جرأة وإقدام، فيفصح عما في نفسه، وما يحس به تجاهها من رغبة مكبوتة منذ أيام.. أما هي فكانت ترشف من كأسها على مهل.. سريرتها نقية، وقلبها

طيب، وبالها خال من كل أمر مريب، تحادثه حديث الأنس والاحتفاء والفرح، وتقدم له الطعام والشراب بود وكرم، وتجالسه جلسة الصداقة والحميمية والمؤانسة والتقدير.

أعدت الطعام ووضعته مع المقبّلات والميزات وبدّلت الشراب بآخر كانت قد انتقته لهذه المناسبة من أفخر أنواع الشراب، وجلست تنادمه منشرحة القلب تحتضنه بودها وحسن ضيافتها.

أخذ منه الشراب مأخذا.. فقد نوّعه وأفرط فيه، بدأه بالعجة وتوسطه بالبراندي وختمه بالنبيذ الأحمر الفاخر والثقيل، وعندما بلغت النشوة ذروتها، أضاف إلى ذلك كله كأسا من الكونياك ماركة نابليون كلفوازير مع حبة شكلاته تقليدا معروفا في المائدة الفرنسية الأرستقراطية حين تطول السهرة.

كان هو يشرب ضعفها من كل نوع، ليتغلب على الخجل والكلفة التي لا زالت تشكل سدا بينه وبينها.. يريد أن ينطلق في الكلام.. يصرّح.. يزيل الحواجز، يرغب في الإفصاح عن نواياه دون مواربة، أوتلميح قد لا تفطن هي إليه، قال له الشيطان عندما حاوره: لا تتردد.. هي راغبة لكن تظهر لك التمنّع... هكذا هو طبع المرأة.. لا تسألني عن المرأة ومكرها.. لقد قالت ذات مرة: «أنا التي ولدتُ الشيطان» فكيف بامرأة تفوقت على الشيطان وتدبيره؟! فهي والدته كما قالت.

الليلة فرصتك فاغتنمها.. ولا تدعها تفلت منك.. أنت الآن في

كامل ليقاتك واستعدادك لاقتحام الحصن المنيع.. لا تتصور ذلك.. إنه وهم.. هش لين لا يقاومك.. كلمة منك أو إشارة أو إيماءة، تصريح أو تلميح، تجدها في حضنك.. هي المرأة تحب المناورة والدوران.. تعشق مراسم الاصطياد.. لتكن: هدفا، ثم باغتها.. شل حركتها على غير توقع منها.. لحظتها لن تقاوم.. تستسلم طائعة، وتضافر أنت بالجائزة بلذة الانتصار.. كما قلت لك إنّه لا يفوز باللذة إلاّ الجسور.

كان يستمع إلى ذلك الصوت الداخلي يحثه على الفعل، والفعل بدايته قول.. وقد بلغ ذروة النشوة بفعل الشراب فاستخف بكل الأحكام، ولم يعد التفكير فيما يترتب عليها من نتائج ذا بال.. ها هي أمامه تناديه متألقة ومتفتحة، لا يظهر عليها أي حذر أو تحفظ.. بل يظهر أنها تنتظر منه أن يأخذ يدها عندما تغيّر، أو ترتب الأطباق، أو تتناول الكؤوس لتصب الشراب. يأخذ يدها البضة بين راحتيه ويرفعها إلى شفتيه ويقبلها قبلة سريعة ثم يعاود أخرى تطول حتى تنظر إليه مستعطفة أن يحرّر يدها من راحتيه لتستأنف ترتيب الأطباق وتبادل الكؤوس.. انظر إليها وهي مشرأبة بعنقها وفي عينيها تظهر الغبطة.. هي تنتظر منه هذا الفعل منذ وقت، لماذا لم يتبعها إلى المطبخ حين كانت تعد الطعام ويتناولها كأسها فترشف منه ويتقدم في حركة تلتف حولها ويجذبها إليه ويرشف من شفتها رشفة كما رشفت هي من الكأس قائلا لها: واحدة بواحدة وتضاحُلها.. لن يحدث شيء.. انه مفتاح من المفاتيح.

هي بعد أن جهزت الطعام وكل مستلزمات المائدة، وقبل أن تضع السفرة فوق الطاولة الصغيرة في صالة الجلوس التي قررت أن تكون مكان السهرة حيث يجلس الضيف.. دخلت إلى غرفة نومها. وأخذت تعتني بزينتها: صفّفت شعرها بطريقة تفضلها دائما حينما تكون في أبهى هيئة لها، مرّرت الأحمر على شفتيها وأضافت حمرة في خديها إلى حمرتهما الطبيعية زججت حاجبيها وكحلّت عينيها بالأسود.. زيّنت عنقها بعقد ثمين من حجر صناعي كريم كانت قد اشترته مع فستان من حرير فخم خصيصا للسهرات، لبست كعبا عاليا كأنها خارجة لحفلة عرس، أو سهرة خاصة من سهرات الخلان والأصدقاء.

خرجت من غرفة النوم إلى الصالة الملحقة بها والتي لا يفصلها عنها إلا ممرا صغيرا ليس به سجاد.. كانت خطواتها القليلة تحدث صوت مسموعا.. كأنها تقول للضيف: أنا قادمة وفي كامل زينتي إذانا بالسهرة التي وعدت.

شيّع الرجل فيها نظره الذي مسح به جسدها وقد بدأ له كأنه أطول من ذي قبل.. لفتت نظره تلك الزينة الباذخة وذلك العطر الذي ملأت رائحته الشذية الصالة الصغيرة.. نظرة واحدة أجملت كل مظاهر الزينة والبهاء التي كانت عليها السيدة، فصدرت منه شهقة : أوه.. تتبعتها تصفيرة خفيفة إعجابا واستحسانا، ثم بسمة فرحة واحتفاء.

دارت حول نفسها وهي واقفة قبالته كأنها تستعرض الزينة

واللباس والقوام المشوق.

- ما رأيك؟ أرجو أن أكون قد رقت لك.. فأنا الليلة محتفية بك، وأريد أن تفصح عمّا في نفسك وتعبّر عمّا ترى.

- أنت في قوامك عارضة أزياء بارعة، وفي جمالك ممثلة سينما مشهورة، أما في البهجة والسرور البادي على محياك.. فكأنك عروس تزف إلى عريسها بين أحبة يصفقون لها ويهنيؤوها.

- هذا من أجلك كصديق مخلص حميم.. عربون صداقة دائمة ومخلصة من صديقة تكنّ لك الود والمحبة والتقدير والاحترام.

- أما الود والتقدير والتبجيل والاحترام فهذه أشياء لمستها منك من يوم دخلت فيه بيتك برفقة صاحبتك.. لكن الصداقة والمخلصة بين رجل وامرأة هل تعتقدين أنها واقع وموجود وستستمر كصداقة فقط؟!

- ولماذا لا تكون ؟! الصداقة.. هي الصداقة: قيمة وسلوك محمود تجب المحافظة عليه.. هي: ارتياح طرف للطرف الآخر، ومعاملته بمودّة، هي: أنس ومشاركة وجدانية بين الاثنين وتضحية وأثرة وإنكار للذات.. وحتى مساعدة وخدمة إن لزم الأمر.

- ألا ترِ أنك مثالية في تصوراتك هذه، وتبتعدين عن الواقع وتلغين من ذهنك الثنائية الجنسية، وأن صحبة الرجل للمرأة أو الصداقة كما تقولين، لا تكون ناصحة، أو هي ضربا من المخيال.. إلاّ في حالات نادرة، قد يكون أحد الطرفين غير سوي في جنسه.

- لا اعتقد ذلك.. خذ مثلا: أنا وأنت أليس هذا الذي نشأ بيننا في أيام قلائل هو: صداقة مخلصة لا تشوبها شائبة، وناصعة البياض ومن جانبي مسرورة بها أيّما سرور.. وكل منا سوي في جنسه كما أعتقد: فأنا من جانبي أمرأة غير غائب عنك سيرتي السابقة وما أقلعت عنها إلا يوم قررّت سلوك مسلكا آخر، وتو صارحتكم به. أما أنت فقد أخبرتني صاحبتي بقصة طردكما من خدمة المرأة الثرية في ليل، وكانت بسبب الجنس، وقد تأكدت أيضا من ذلك حين بت أنت وصاحبتي في غرفتي تلك الليلة وكنتما في حالة شبق حتى الفجر.. إذاً فأنا وأنت كل منا سويا جنسياً.. فقط من جانبي كان العزم والإلارادة التي لا تقهر في التمسك بما عزمت عليه وقرّرت.
- وماذا قررت.. وعزمت عليه؟!
- عزمت على أن أعيش حياتي الباقية نقية من كل دنس، وأن لا أعود إلى الرذيلة مرة أخرى.
- قرار لا رجعة فيه؟!
- نعم.. لا رجوع ولا نكوص.
- وكيف لك ذلك وأنت شابة لم تتجاوزي الثلاثين كما أخبرت صاحبتك.. والجنس حاجة بشرية.. يطلبها جسم الإنسان كالطعام والشراب؟!
- هناك: استغلاء الحاجات.. مزاولة الرياضة، الاندماج في مؤسسات

المجتمع المدني.. الخيرية منها: رعاية الأيتام والمرضى والعجزة، وهناك القراءة ومعالجة الكتابة، أو ثمّ الرهبنة وملازمة الدير، وخدمة رعاة الكنائس.. ممارسات كثيرة نجدها في الحياة هي: استعلاء محصّن ضد الوقوع في حقارات كثيرة يرتكبها الإنسان.

- قلت الرهبنة؟! ملازمة الأديرة وخدمة رعاة الكنائس؟! ربما تخصّين البعض.. لكن الأكثر: هن على شاكلة جانيت وسوزي وغيرهما ممّن عرفت.. يفعلن أنكى وأكثر جرماً ووقوعا في الرذيلة وسوء الخلق.. إذا كنت تحسبين الجنس سوءاً ورذيلة.

- وماذا تحسبه أنت؟! ثم أن التي تلتزم بتعاليم المسيح لا تقع في الرذيلة وسوء العمل.. كما قلت عن صاحباتك.. وهل هن حقا راهبات؟!

- قمة الرهبنة.. وخاصة جانيت.. فهي ناجحة بإمتياز من مدرسة الراهبات وخدمت في الدير.. ثم تتلمذت على يد اكثر من راعي للكنيسة، ويعلم الله كم تلقت على يديه من دروس خصوصية. هذه لو أخبرتك بجزء من سيرتها، لعرفت العجب العجاب، غير أننا في أمثالنا نقول: «ستر الله باقي».

- لكن من تلتزم بتعاليم المسيح وتكون صادقة مخلصة لا يمكن أن تحيد عن الطريق المستقيم.

- هيهات من يلتزم، سوى كانت راهبة أو راعي كنيسة.. وأنا لو حدثتك عن أكثر من واحد منهم.. كانت لي معهم صحبة في مرسيليا

لاستغربت ما حدثني به اعترافا منه صريحا بما فعل غير نادم.

- حدثني عنهم جميعا للتعلم فقط.. ولن أغير رأيي فيما عزمت عليه.
- أنت حرة في رأيك.. وحياتك ملكك.. ولن يجبرك أحد على تغيير قناعاتك.. لكن الأيام وظروف الحياة ربما أجبرتك على اتجاه آخر.
- طال حديثنا في مناحي شتى.. ربما ترتب عليه في أيام قادمة أشياء أخرى.. والآن طالت السهرة.. الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل ألا تقوم إلى النوم؟
- وهل يرغب أحد في النوم وأمامه هذا الجمال والأناقة والحضور الحميم، في جو من الأنس والسعادة والسرور، وحتى الصداقة المخلصة والود كما تقولين؟!
- حقا أنا جميلة؟!
- أنت آلهة الجمال.. أنت فينوس الإغريقية.. أنت الملكة المتوجة على جميع جميلات الدنيا حاضرا وغابرا.
- وأنيقة؟!
- قلت لك من قبل أنت كعارضة الأزياء التي تقدم تقليعات مختلفة لجمهور من العجايز الثريات وأنت أكثر امتلاء منهن وأشهى.. العارضات..
- لعلك تجاملني وأنت ضيفي.. واللياقة ربما تفرض عليك ذلك.. رغم أنك الآن أصبحت ليس في حكم الضيف.. أنت الآن صاحب

البيت كما أخبرتك من قبل.. وأنا أخدمك طائعة وممتنّة وهذا جزء من برنامجي الذي قررت أن أقوم به في حياتي الجديدة.

- مع الاحتفاظ بالإرادة والعزم الذي أكدّت الإصرار عليه؟!

- أي عزم وإرادة ؟! التي أنا مصرّة عليها؟!

- نسيت بسرعة.. قلت سابقا إن حياتك مستقبلا ستكون رأسا على عقب.. ذكرت الرهبنة وملازمة الدير وخدمة راعي الكنيسة. وإلغاء الجنس الذي هو حاجة بشرية وذكرت الاستعلاء وما شابه.

- ذلك أصبح مبدأ ثابتا لن أحيد عنه، مهما كانت الظروف والأحوال.

- ربما.. أن الثبات على المبدأ هو: مبدأ في حد ذاته، والتمسك بالإرادة من عزم الأمور.

- وأنا عزمت وإرادتي لا تقهر، وفي حياتي لم أتخذ قرارا إلاّ عن قناعة.

في تلك الأثناء والجدال بين عزوز وميري - اسم المرأة - الذي لم ينتهي بعد، رن هاتف البيت الموضوع في ركن من حجرة الجلوس على مقربة من عزوز، سارعت ميري بالرد. فإذا هي تتبادل التحايا مع صاحبتها الكورسيكية التي قدمت مع عزوز من مدينة ليل قبل أسبوع، إثر طردهما من قبل مدام روجيه العجوز الثرية، التي كانت الكورسيكية خادمة عندها وعزوز زوج لها.. تقدم ذكر الواقعة - سمع عزوز ميري تقول لها: تفضلي نحن في انتظارك.. لم ننم بعد وغدا الأحد ويمكننا أن نسهر معاً فما زال من الليل شطرا كبيرا، وعزوز أصبح مدمناً سهرا، فهو

لم يحصل على عمل بعد ففي النهار ينام وفي الليل يسهر.

قالت الكورسيكية: أنا قادمة حالا ووضعت سماعة الهاتف.

- صاحبتك قادمة، قالت ميري.

- أفسدت كل شيء، إنها شكّاكة، غيورة، سترين بنفسك. بينه وبين نفسه ولي تدبيري.. سوف لن تنال شيئاً.

- أعتقد أنها ظنت بنا الظنون.. إنها صاحبتي منذ زمن.. وأعرف بعضا من طباعها، هي فاقدة للثقة في نفسها وتنافس حتى صاحباتها في أبسط الأشياء. هي ضعيفة الإرادة شكاكة كما قلت.

- استغرب أن تاتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

- هي المرأة عندما تريد أن تعرف السر تركب الصعاب، وتدفع عمرها في سبيله.

- سوف لن تنال شيئا، اللهم إلا كأسا إن رغبت أو بعض مجاملات.

- دعني أقللّ من هذه الزينة الباذخة كما قلت أنت حتى لا تذهب بها الظنون كل مذهب.

- لا عليك منها فلتمت بغيظها، أما أنا فلن أعيرها اهتماماً.

- لا بأس من المحافظة على مشاعرها، هي ضيفتي على كل حال، وكانت لك معها علاقة في يوم من الأيام، لا تنسى هذا.

- كانت لنا علاقة ولن تعود.

دخلت ميري الحمام فأفسدت بعضا من مكياجها، وعبثت بشعرها بعد أن كان مصفّفاً بطريقة أنيقة ونزعت الكعب العالي وارتدت قميصا واسعا فضفاضا.

قالت: ما رأيك؟ هكذا أفضل وأبعد عن الشبهات.

- أنت الآن أكثر إثارة في هذا القميص، وتهيؤاً إلى الجنس، إنه الرداء الروماني الذي نسمع عنه، هو الحافز والمثير، والمعين على الفعل.
- هذا إذا كانت لها هذه الثقافة.. لكني أشك أنها تتوفر على هذه المعلومة.
- خذ كأسك، لقد قلبت برنامجي رأسا على عقب هذه المرأة.. صاحبتك.
- ألم تكن صاحبتك أنت؟ وعلى الأصح خليلتك.
- كانت نزوة.. دفعت ثمنها طردا على رؤوس الأشهاد وفقداناً لوظيفة تدر عليّ راتباً كبيرا، وكانت هي السبب.
- كيف تلقي باللائمة عليها وحدها فتقول هي السبب، وأنت تقرّ أنها نزوة ارتكبتها.. أليس أنت شريك في الفعل؟!
- ذاك عهد مضى وانقضى.. لماذا تلاحقني الآن؟!

أنا لم أعد أرغب فيها.. إنها ملحاحة والملحاح يعرض نفسه للزهد فيه، ثم إنني في ضيافتك، لماذا لا تحترم مشاعرك وتحافظ على علاقتها بك نظيفة لا تشوبها شائبة الغيرة والشك؟!

لكل تفكيره وسلوكه في الحياة والطباع تختلف والعقول كذلك.أما أنا فسأجامعها حديثا ومجالسة فقط، وسأنام على هذا الفوتيل، وأنت

دبري أمرك مع صاحبتك.

دع الأمر لي، لا عليك في هذا حرج.. وأنا أعرف كيف أتعامل معها، وهي ليلة على كل حال وستصبح مفارقة.

إن غدا الأحد ولن تفارقك إلا في المساء، هذا إن لم تمدّد إقامتها.

- وليكن..لا ضير في ذلك.. أنا يوم الاثنين سأكون في عملي باكرا كالمعتاد، ولتبقى هي معك اذا شاءت أو شئت أنت.
- أنا سأغادر قبلك يوم الاثنين إن لم يكن هذه الليلة بالذات.
- وماذا تقول عنك، وأنت لا شغل لك يشغلك؟ ستفسر الأمر هروبا منها.
- فلتفسّر الأمر كما يتراى لها، وأنا غير ملزم بالمجاملة التي ليس في محلها.
- امسك عن الكلام.. هي تطرق الباب.. سأفتح لها.

وتدخل الكورسيكية صاحبة ميري قديما، وصاحبة عزوز سابقا، حين كان وأياها مستخدمين عند مدام روجيه في منطقة ليل. دخلت ترتدي معطفا ثقيلا فالوقت ما زال منتصف الربيع والبرد قارسا وخاصة في الليل وكانت تضع مكياجا غير متقنن وضعته على عجل، وفي يدها حقيبة صغيرة بها لوازم الزينة وبعض العطور وعقد من الأحجار الاصطناعية اشترته حديثا وأرادت أن تريه لصاحبتها ميري.

رحبت بها ميري وصافحتها وجهاً وبالغت في الاحتفاء بها، أما عزوز فقد كلّف نفسه أن يقوم من مقعده ويمد لها يده في غير احتفال بها ثم جلس.

أخذت المرأتان تتبادلان عبارات الود والتحايا التقليدية المتعارف عليها، وأيضا المجاملات التي لا تخلو من نفاق وزلفى، وكان عزوز يستمع دون تعليق ولا مشاركة، فقط أشعل سيجارة وسحب كأسه فرشف منه رشفة ثم وضعه وهو يتابع حديثهما صامتا، ويرمي صاحبته المقتحمة عليه ليلته التي منى بها نفسه بنظرات مختلسة، أما هي - الكورسكية - فقد اغتنمت فرصة غياب ميري في المطبخ تحضّر لصاحبتها كأساً فارغة وبعض اللوازم، وأخذت تحدّق في عزوز متفحصة وفي جعبتها أسئلة حائرة تبحث عن جواب، لم تتلفظ بها لكنها تعني بها: كيف أنت مع ميري طوال هذا الأسبوع الذي قضيته في بيتها، وكيف بدأت لك؟ وهل نشأت بينكما علاقة من أي نوع: حب، أو نزوة عابرة؟ وماذا تنويان بعد؟ هل تريد أن تتزوجها أو تتخذها عشيقة فقط؟ لكنها أقلعت عن سيرتها الأولى، وقرّرت أن تغير مسار حياتها، وقد أصبحت تنشد الاستقرار والحياة الطبيعية كما قالت منذ أيام، وأنت ما رأيك فيها؟ هل راقت لك، وأسئلة كثيرة أنهالت على خاطرها في دقائق معدودة غابتها ميري في المطبخ، وكان عزوز ينظر إليها من طرف خفي، ولا يرفع إليها نظره متحاشيا أسئلتها الصريحة إذا عنّت لها، وهو ما يدور في خواطرها ساعتها لأنه اكتسب خبرات سابقة من تجاربه مع جنيت وسوزي ونيسه اليهودية وحتى مدام ريمون تلك التي وشت إلى زوج نيسة وكانت سبب في الفراق بينهما.

عادت ميري من المطبخ تحمل صينية بها مزيدا من المكسرات

والميزات وكأسا فارغة، وأخذت جلستها قبالة صاحبتها وبجانب عزوز، وأخذتا في الحديث عن العمل وفي شأن الحياة دون أن يشترك عزوز معهما لكنّه تولى صب الشراب في الكؤوس، كانت الكورسيكية تسرقها خواطرها بين الحين والآخر فتسرح مع تصوراتها لما توقعت أنه حدث فعلا بين صاحبتها وعزوز خلال الأيام والليالي التي كانا يعيشانها مع بعض، وقد عرفت أن عزوز لم يحصل على عمل بعد، وأنه رجل له في النساء كما عرفته، فكانت تراقب صاحبتها في حديثها وتصرّفاتها علّها تضفر بالدليل القاطع، سيما وأن عزوز لم يحفل بها، وكان منشغلا عنهما في شبه هروب من مواجهتها الأمر الذي يؤكد لها وجود علاقة مع صاحبتها، وأنه كان يتحاشى النظر إليها والحديث معها إلا حين يمد لها بكأسها، أو عندما تسأله عن الصحة أو ماذا فعل بخصوص البحث عن العمل. انتهت السهرة في ساعة متأخرة من الليل فاغتنم عزوز دخول الضيفة الثقيلة إلى الحمام، وامتد على الفوتيل حيث كان يجلس وأشار إلى ميري بأنه سينام في مكانه وألا توقضاه، وعليها أن تأخذ صاحبتها إلى غرفة النوم وتناما معاً، وان تقنعها بأنه نام فعلا واستغرق في النوم بفعل الشراب، بعد أن غطته بلحاف.

ظلت ميري وصاحبتها قليلا من الوقت في نفس المجلس ثم سحبتها بطريقة دبلوماسية ودون أن تحدث إزعاجا لصاحبها وهي تشير إلى عزوز بأن يتركاه في مكانه، فهو دايما كان ينام في نفس المكان طيلة المدة التي قضاها مع ميري.. وهي صادقة في ذلك.. وأنه أبى أن

ينام في غرفة نومها رغم إلحاحها عليه.

- وأنت أين كنت تنامين؟!
- في غرفتي، بعد أن رفض هو النوم فيها.
- عجيب أمره.. ألم يتحرّش بك، وقد عرفته زير نساء؟!
- لم يحدث هذا من قبل، وهو يعرف ما حزمت عليه أمري.. رغم أنني لاحظت هذه الليلة قبل أن تأتي أنت.. أنه كان يناور، ويبدي شيء من الإعجاب بي، وربما صارحني برغباته فيما بعد، لو لم تأت أنت.. لكنني لن أحيد عن مبدأ اتخذته عن قناعة وعزيمة وتصميم.
- لكنّه مذهل.. انك لم تجربيه.. أنا لم أرى في حياتي فحولة رجل مثله.. إنه خبير بفن الحب رغم صغر سنه.
- لعله اكتسب خبرة منك، وأنت المتفوقة بمهارتك في الحب كما علمت منك ومن حديث أصحابك السابقين.

كانت بينهما ممازحات وصبوات وحديث الصراحه في مجال الحب والجنس حين كانتا تعيشان معا في وقت سابق، عندما كانتا عاملتان في مصنع للنسيج في مدينة لايجون على الحدود السويسرية وتعيشان في غرفة واحدة مع أخرى من إيطاليا كانت من بائعات الهوى.

قالت الكورسيكية تخاطب صاحبتها ميري: كيف نجوتي من شباك هذا الإفريقي الآسر بقامته المهيبة، وسحر نظراته المتوحشة، وعنفوان شبابه الأخاذ، وقوته الجسدية وجبروت شخصيته؟! إنه شخصية لا

تقاوم وهو يتحدث بلكنته الفرنسية التي تعلم مفرداتها شفاهة وحين يمزجها بالإشارات عن طريق عينيه ويديه يصبح له طعم خاص.

هذا صحيح.. هو: متميز بذلك، ويلفت انتباه محدثه ويستولى على اهتمامه، وكم من مرّة حاورته إلا ووجدته فطن تلقائي وعلى سجيته التي فطر عليها علاوة على صراحته المباشرة. حاولت استدراجها إلى اعتراف ما، لو بذلة لسان عما كانت تضنه قد تورطت فيه معه من فعل، أو حتى غزل ومداعبات لفظية ومحاولات أو تلميحات بشأن الحب.

قالت: لو جربتي قُبله الحاره، وضمته العنيفة، ولمساته الحانية الرقيقة الناعمة، وفعله المدمّر في لحظة الانسجام وعند الذروة، لقلت عليه شيء آخر، انه رجل بمعنى الذكورة لا يبقى ولا يذر، يبعثر الأنوثة ويترك من تشاركه الفراش خرقة مطوّحة على السرير، يا له من فاعل ماهر لا ينسى، بل يلاحق بشتى الوسائل.

عرفت بعض هذا حين كنتِ معه في تلك الليلة وعلى هذا الفراش، وكان صراخكما وتشيجكما مختلط بكلام مبهم، يصل إلى وأنا في الصالة نائمة ومستيقضاة، وكنت أكتم ضحكاتي وأستغرب من حالكما.

- أذاً: أنت عرفتِ كل شيء في تلك الليلة.. يا لك من متجسّسة على ضيوفها.. لكنك كنت مشاركة لنا بالسماع.. هو ذاك صاحب الفعل المتميّز الذي عشت معه أول تجربة حين كنت وإياه في خدمة مدام روجيه في ليل، وطردت أياه على مشهد من الآخرين، ثم تبعته

مسلوبة الإرادة حتى وصلنا إليك في تلك الليلة، وها أنا ألاحقه، وكنت أمنيّ النفس بقضاء هذه الليلة معه، لكن لم آنس منه الرغبة، ونام كما قلت غير راغب في أو ربما في حياته أخرى لا أعلم.

- لا.. لا أعتقد انه زاهد فيك، لكنّه هكذا هو دايما حين يفرط في الشراب، وفي كل الليالي التي قضاها معي هذا هو حاله، يشرب إلى حد غير معقول ثم ينام في مكانه.

- غريب أنه لم يتحرّش بك، وأنت بهذا الجمال والشباب والحضور الذي يغري الرجال ويلعب برؤوسهم، ثم أنه شبق دائما وأعرفه زير نساء كما أخبرني مع كثيرات حين كان مريضا في المستشفى العسكري، وعندما ذهب إلى مرسيليا.. ألم يحك لك قصته مع اليهودية وغريمتها مدام ريمون؟!

- لم يتحدث معي إطلاقا حديث الحب والجنس، فقط كان حوارنا في شؤون حياتية أخرى.. حدثني عن سيرته الذاتية منذ بلغ سن الإدراك وحتى جنّد في العسكرية ورحل إلى الجبهة، وحدثني عن المعارك التي شارك فيها.. معركتين فقط جرح في الثانية بعدها أدخل المستشفى بسبب جروح خطيرة وكسور، وحديث عن أهله وقريته الصغيرة في تونس قريب من الجزائر، هذا كل ما حدثني به.

- وأنت عن ماذا حدثتيه؟.. هل ذكرت له شيئا عن حياتك السابقة، ومغامراتك الغرامية حين كنا معاً في ديجون أيام الحرية والانطلاق،

وحكايتك مع سيمون سائق التاكسي الذي هربت وإياه إلى جزيرة بالما في البحر المتوسط وتغيبت عن العمل شهرا كاملا؟

- حدّثته عن بعض من حياتي السابقة، لكن لا أذكر أنني تطرّقت إلى حكاية سيمون، ليس خجلا من فعل فعلته وأنا في كامل وعيي، فقط ربما لم أتذكرّها، وأنا لا أستنكف عن ذكر فعل فعلته بكامل إرادتي، وهو قد عرف عني أكثر من ذلك، أليس في علمه أنني كنت أمتهن الهوى في المحل العام (الكارتي) في أول يوم جئت أنت وإياه إلى باريس وقصدتما مكان عملي في حي بيجال؟ أين وجدتماني؟ أليس في محل عملي غرفة صغيرة لبيع الهوى في ذلك الحي، وقد شاهد كل شيء بأم العين؟ ثم هو يعرف ماحزمت عليه أمري بخصوص الإقلاع عن تلك المهنة.

- نعم هو يعرف ذلك، ويعرف من خلال حديثي معه أنك كنت المرغوبة بيننا جميعا من قبل الشبان، وكيف غارت منك الإيطالية، وحاولت منافستك لكنها لم تفلح، غير أنني أستغرب كيف لم يرغب فيك؟!

- ومن قال لك أنه لم يرغب في وربما حاول وناور لكنّي أفهمته أنه ضيفي فقط، وأنني أكتفي بصداقته، وقدمت له كل خدمة وعون وأنا بصدد البحث له عن عمل.

- انا أتوقع أن تتطّور علاقتكما في المستقبل، وأنه شغوف بك فقد لاحظت ملاحقته لك بالنظر حين كنت تذهبين إلى المطبخ وتخرجين،

وحين تتحدثين كان يتابعك باهتمام وكان يحاول الحديث معك ويحرس على فهم كل كلمة تنطقين بها رغم صعوبة اللغة بالنسبة له، ويبتسم دائما في وجهك عندما تجلسين، ويبالغ في الاهتمام بك، ويبدى رضاه عن كل ما تقومين به نحوه بامتنان زايد.

- وماذا في هذا؟ أعتقد أنه ردّ للجميل، أو هو من التأدب وحسن المعاملة.. أنا لم ألاحظ على الرجل اهتماما خاصا بي كما تقولين.
- لكني لاحظت.. وسيكون لك معه شأن.
- أي شأن تعتقدينه، أو أنك تجدفين في أوهام لا وجود لها إلاّ في خيالاتك.
- أنا حدسي لا يخونني، وإنّ غدا لناظره لقريب.
- إنّه رجم بالغيب.
- ستثبت لك الأيام صحة ما أقول.
- أنا لا أعلم ما ستأتي به الأيام، والأقدار تفعل ما تشاء.
- وهذا هو الذي أعنيه.. الأيام حبلى وستلد الحوادث.
- دعينا ننام.. قارب أن يطلع الفجر.
- غدا يوم عطلة، وسننام حتى الضحى.
- أنا أفكر في ماذا سأطبخ غدا من طعام.
- ألا تفكري في ضيفك العزيز عزوز؟!

- أنت لا تنسي سيرة هذا الرجل الذي لا يمثل لي إلا ضيفا يجب إكرامه والاحتفاء به، والطيف مفارق لا محالة اليوم أو غدا.
- ومن يدري ربما يكون قرين مدى الحياة.
- لعلّ وعسى ما دمت مصرّة على هذه الأوهام.
- هه.. أنا نمت ولن أعود إلى هذه السيرة.
- تصبحين على خير.

كان الصباح فاستيقظا عزوز في الموعد المعتاد لأنه قد نام باكرا.. بعد دخوله الحمام دخل إلى المطبخ فأعد قهوة كان قد تعود أن يعدها بنفسه لأنه أصبح في حكم صاحب البيت، حيث طالت إقامته أكثر من عشرة أيام، وكانت صاحبة البيت تخرج مبكرا.. في أيام العمل العادية، وتتركه يدّبر أمره ويتصرف في البيت كما يشاء.

جلس في الصالة يرشف قهوته ويشعل سيجارة كالعادة وينتظر ميري وصاحبتها لتأخذا إفطارهما معا.

قامت ميري من النوم في وقت متأخرا نسبياً وظلت صاحبتها مستغرقة في نوم الضحى، لأن النعاس فارق عينيها إلى ما بعد الفجر، بسبب أنها كانت تفكر في تحوّل عزوز عنها كما لمست منه ذلك، حيث لم يحفل بها ولم يعيرها اهتماما كما كان في السابق، وعزت هذا التحول والصدود إلى ما قد يكون وقع بينه وبين صاحبتها ميري من ألفة وانسجام وربما أكثر من ذلك الأمر الذي حاولت أن تحصل عليه

باعتراف صاحبتها به، ضمنا أو تصريحاً، لكنها خسرت ما راهنت عليه، ولم تفلح في استدراجها إلى التصريح بشيء، ولم يزلّ لسانها بسقطة تستجلي منها الحقيقة. ظلت نائمة في فراش صاحبتها الذي تقاسمته وإياها في تلك الليلة، بينما التحقت ميري بعزوز بعد أن أخذت دش الصباح، ثم أعدت طعام الإفطار للجميع وجلست تتناوله مع عزوز دون صاحبتها النائمة التي تركت لها نصيبها على السفرة حتى تستيقظ.

قال عزوز يخاطب ميري: صاحبتك لا زالت تغط في نوم عميق.. هي لم تنم البارحة الاّ قبيل الفجر.

كيف عرفت ذلك؟ وأنت الذي نمت نوما عميقا بفعل الشراب الذي أفرط فيه.

هي خرجت من عندك ثلاث مرات وأخذت في كل مرّه تحوم حولي علّها تجدني مستيقظا، وكنت في كل مرّة ألجأ إلى الهدوء التام لأشعرها بأنني مستغرق في نوم عميق، وكانت هي تهم بأن تلمسني بيدها لكنها تحجم، وتتأخر خطوة فتظل واقفة وأنا أرقبها من تحت اللحاف بعين نصف مغمضة، بعدها تعود إليك ممتلئة حنقا وغيظا.

- هل فعلت هذا؟

- نعم.. إنها لم تنم إلاّ عند الفجر.

- يا لها من امرأة لا تعقل أبدا.. كانت هذه عادتها مع كل الرجال الذين تتعرّف عليهم عندما كنا في ديجون.. تلاحقهم بإلحاح، فكانوا

يهجرونها ولم تحتفظ بواحد منهم أبدا.

- نزو وطيش.. وقلة ذوق.. بل سوء خلق.
- وربما مرض شفاها الله منه.
- ماذا في برنامجك اليوم؟.. أنا سأخرج ولن أعود إلاّ في المساء حين أطمئن إلى أنها غادرت.
- لماذا؟ أين تذهب؟ إنك بهذا تؤكد جفاءك لها وهروبك المتعمّد منها.
- ليكن ذلك، أنا لست رهينة لها، أو هي تفرض عليّ نفسها قصرا.. أنا حر.. أذهب حيث أريد.
- لا شك في هذا.. غير أنها رافقتك إلى هنا من ليل، وللرفقة اعتبار، ولو على سبيل المجاملة.
- رافقتني هذا صحيح.. بل عرفتني بك فآويتيني شاكرا لك، وهذا صنيع تشكر عليه هي أيضا.. لكنها، أتدرين ما فعلت بي؟
- ماذا فعلت؟!
- أخرجتني من الجنة.. مثلّت دور أمها حواء مع أبي آدم.
- تضحك ميري وتقول: كيف حدث هذا؟! ماذا فعلت ؟ّ
- ماذا فعلت؟!!.. ألم أكن زوجا لأغنى امرأة في مدينة ليل؟! وكنت أسكن قصرا كبيرا تحرسه الكلاب والخدم، وكانت حياتي مرفهة باذخة. آمر فأطاع، طلباتي مجابة ورغباتي تنفذ على وجه السرعة، وأنا

سلطان عزّت فيه السلاطين.

- لكن حسب علمي خرجت أنت وإياها من تلك الجنة بسبب خطيئة كنتما مشتركان فيها، فلا لوم عليها وحدها.

- أيمكن أن يخطئ الرجل خطيئة كتلك الخطيئة، إن لم تكن المرأة هي المشجعة عليها وبرضاها؟!

- في هذه معك حق.. لكن قل لي ما الذي أغراك فيها؟!

- أغراني الشيطان.. شيطانها الرجيم الذي زينها لي فصوّرها كأنها ملكة الجمال المتوّجة، وغطى على جميع مساويها بما فيها غوايتي بأسلوبها الذي لا يقاوم، فوقع المحظور وكان الطرد.

- كانت ميري تجادل عزوز في أمر صاحبتها التي مازالت تغط في النوم على سريرها وفي حجرتها الخاصة، وفي الوقت نفسه كانت خواطرها تأتي لها بهواجس وأفكار ما كانت في حسبانها، مثل ماذا لو عرض عليها عزوز الزواج؟ أو حتى العيش معها دونما رباط؟.. وخاطر آخر يقلقها إلى حد ما.. هو يعرف ماضيها وماذا كانت تمتهن بل شهده بأم العين.. هو الإفريقي المحافظ.. هل يتجاوز عمّا يراه غير لائق في عرفه بل في جميع الأعراف.. إنه الفعل المشين : الدعارة.. لكن أليست هي مهنة قديمة عرفتها البشرية منذ بداياتها الأولى؟ هو ثالوث اجتماعي معروف: الولادة والموت والجنس بصرف النظر عن موضوع الجنس وتنظيمه بين الجماعات والنظر إليه من كل زاوية خاصة.

- كانت ميري تحاصرها هذه الهواجس والأفكار، وهي تحاور عزوز في أمر صاحبته وصاحبتها، وهو يستعد للخروج كما أخبرها قبل أن تستيقظ الكورسيكية فيحرجها ويحرج نفسه.
- قالت ميري: متى ستعود؟
- ليس قبل المساء، وبعد أن تغادر صاحبتك البيت.
- أصبحت صاحبتي وحدي؟! أليست هي من جاءت بك إلى هنا؟!
- هي مشكورة على ذلك.
- بسبب أنها جاءت بك إلى هنا؟
- بسبب أنها عرفتني عليك.. هذه هي حسنتها الوحيدة.
- يا لكم أنتم الرجال من ناكري الجميل.
- جميلها عليّ أنني عرفتك، وأملي أن يكون لي على يديك خير.
- أتعتقد ذلك؟
- يقين ومن كل قلبي.
- أسمعها تكحّ.. هي خارجة لا شك.. اخرج قبلها.
- أنا خارج ولن أعود إلاّ متأخرا.
- لا تنسى.. وإياك أن تقضي الليلة مع صاحبك صاحب المخبز في محطة القطار ذلك حي مزعج.
- أنا لا أنسى ميري مضيّفتي الكريمة جزاها الله عني خيرا.

- أنت ضيف مبجل، وعلى الرحب والسعة.. أنت في بيتك.

خرج عزوز مسرعا قبل أن تخرج الكورسيكية من غرفة النوم فأخذ سيارة أجرة أوصلته إلى محطة المترو الذي سيصل بواسطته إلى محطة القطار الرئيسة، حيث يوجد مخبز صاحبه الغمراسني الذي كان بينهما لقاءات سابقة وتواعد وإياه على اللقاء في ذلك اليوم.

عندما استيقظت الضيفة الكورسيكية وخرجت إلى الصالة لم تجد عزوز فقط وجدت صاحبتها جالسة ترشف قهوة وتدخن سيجارة، نظرت إليها شذرا ودخلت الحمام، أخيرا ارتدت ملابسها على عجل وتهيأت للمغادرة، أشارت إليها صاحبتها أن تأخذ إفطارها الموضوع فوق الطاولة، فأبدت حركة رفض من يدها وتحرّكت نحو الباب تريد الخروج وهي مغاضبة لصاحبتها حاقدة عليها ظنا منها أنها هي السبب في إبعاد عزوز من طريقها.

ميري تخاطبها: لماذا لا تأخذي طعامك؟

- لا أريد منك شيئا، ولن تريني بعد اليوم.
- لماذا هل أساءت إليك؟ أنت بالنسبة لي ما زلت صاحبتي كالسابق.
- وأنا لم أعد صاحبتك.. أنت خائنة.
- أنت حرة في أمرك.. لكن ظنك ليس في محلّه فيما يتعلق بعزوز.
- ومن غيّره عليّ إذا لم تكن أنت؟!
- أنا بريئة مما تتهميني به.. وظنك ليس في محلّه.

- لم يعد بيننا ود ولا حتى كلام... مع السلامة وخرجت.
- تلقين الخير مع السلامة.

عاد عزوز في المساء متأخرا حتى يضمن أن الضيفة الثقيلة - كما سماها - التي أفسدت عليه ليلته السابقة كما كان يدبّر من جانب واحد، وجد ميري تترقبه منزعجة خوفا عليه من بعض الطوارئ أو ربما يضلَّ الطريق أو حتى يغير رأيه فيبقى عند صاحبه ليضمن مغادرة الكورسيكية قطعاً، فهو كما أخبر ميري لم يعد يطيق وجودها ولا أن يرى وجهها.

طرق الباب.. فتحت له ميري متلهفة فرحة.. كادت أن تقبّله.. استدركت موقفها تداري رغبتها وتغطي على مشاعرها نحوه بأن سحبت ابتسامتها العريضة.. قالت وهي تتصنع الجدية كنت أخشى أن تضل الطريق.

- الطريق لن أضلها أبداً مهما تشعبّت مساربها.. هناك رائحة طيبة شذية تهب من صوبك أتشممها حتى أصل، ولو كنت في آخر الدنيا.
- أغزل هذا؟!
- ما قلته: مشاعر صادقة.. وأنت فسريه كما تشاءين.
- اجلس أولا.. سأعد لك القهوة وهناك أخبار عن صاحبتك
- ليس عنها شيء يفرح.. ولا أن يأتي منها خير.. الحمد لله الذي لم أجدها.
- أعدّت له ولها قهوة وجلست قبالته تحدّثه عن صاحبتها.

- كيف تخلّصت منها؟ إنها كالغراء اللاصق.. أشهد أنها لزجة لا تطاق.
- بالنسبة لي ليس جديد عليّ سلوكها، وغباءها أحيانا وسوء تصرفها، وحتى حمقها وظنونها الفاسدة.
- أنا أعرف: أنها إن أحسنت مرة تسيء عديد المرات وتتصرف في أغلب الأحيان بغباء وجهالة، هي : (سوفاج)
- تصور اتهمتني بأنّي أفسدك عليها، وظنّت بي الظنون.
- ليتها صدقت في ظنونها.
- هل أنت راغب فيما ذهبت إليه؟
- أمنيتي التي ما بعدها أماني.
- كيف يكون ذلك وأنت تعرف عني ماضي بعيدا أخبرتك هي عنه، وقريبا شاهدت أنت طرفا منه؟!
- الماضي: فات وما فات مات، وما هو آت آت، كما في المأثور المتداول.
- وما حزمت عليه أمري مستقبلا أنت تعرفه أيضا.. كما خبرتك.
- تعنين الاستعلاء الذي تنوينه؟ الرياضة والتطوع والخدمة في دور العجزة والمعاقين، والأطفال اليتامى والمشردين، والرهبنة والصلاة، وما إلى ذلك من نشاط اجتماعي وإنساني؟!
- نعم هذا ما أعنيه، تكفيرا عن حياتي السابقة، والانخراط في أعمال الخير التي ذكرتها.

- في إمكانك أن تقوم بهذه الأعمال الخيّرة. أو غيرها من الأعمال التي تساهم في بناء المجتمع والحياة، وأن تأخذي نصيبك من الدنيا بما فيه الزواج.
- الزواج؟! هل أحلم بالزواج بعد ذلك الماضي الحافل بالرذيلة وسوء السبيل؟!
- أنت لا تريدين نسيان الماضي – سوف لن تستقيم لك الحياة ما دمت تلتفتين إلى الوراء دايما.. انسي ما فات.. فكري في المستقبل، لعلّ لك فيه اطمئنان وراحة بال، انظري بتفاؤل وأمل إلى أيام عمرك المقبلة، الأمل قرين الحياة، ولا حياة دون أمل، السعادة والبهجة والفرح مع الأمل.. أنت طيبة كريمة ودودة تحب الخير للناس وتؤثر فيهم على نفسك، وتقدمين لهم العون والمساعدة.. أنت من أصل طيب ومعدن كريم، كوني راضية على نفسك ولا تذكري مساوئ سابقة مضت وانقضت إلاّ بقدر ما تستفيدين منها عبر وعظات.
- أنت قلت لي تزوّجي.. هل هناك من يتزوجني ولي ماضي أنت تعرفه، ومن يتقدم لي للزواج ألا يسأل عن ماضي؟! لقد قضيت سنوات من عمري حرّة، أنا غير راضية عنها الآن، بعدها مارست الرذيلة علنا، وكان لي زبائن كثر، وهؤلاء لهم معارف، فأمري يكاد يكون مفضوحا للجميع في هذا الحى وفي أحياء كثيرة وربما في مدن وقري الدواخل، وفي الأرياف، كيف أتزوّج وهذا حالي؟!
- أنت متشائمة جدا، وتنظرين إلى الدنيا بمنظار أسود.. هل تتزوجيني؟

- أنا؟!.. أنت تتزوجني؟!.. وتعرف عني ما تعرف؟.. هل أنا في حلم؟! أوفي غياب وعي؟!
- أنت في كامل وعيك.. تتحدثين معي حديثاً سويًّا.. وأنا أعرض عليك جادًّ، الزواج منك.
- الزواج؟!
- نعم.. وإن شئت الليلة.
- كيف شكله زواج هذه الليلة؟! لعلّه نزوة كما فعلت مع صاحبتك الكورسيكية في ليل.
- أنا أعرض عليك زواجا كما هو متعارف عليه بعقد أمام الشهود معمّدا في الكنيسة إن شئت وإن كان في نفسي شيء منها.
- الكنيسة؟
- نعم.. أنا أرى الوقوف فيها لمدة عشر دقائق لا يقدم ولا يؤخر، هي تراتيب وطقوس شكليّة ليس إلاّ.
- دعنا من هذا كله الآن.. أنا ما زلت تحت وقع هذه المفاجأة الغير متوقعة، فهي بالنسبة لي كحلم، أو وهم خارج عن المعقول.
- وأنا أومن دائما بالمقادير تجري بما تشتهي.. ولا غرابة فيما عرضته عليك ولا هو بحلم أو وهم كما تقولين.
- عزوز.. أنت رجل شهم.

- أرجو أن أكون كذلك.. وأنت صاحبة مروءة خيرة وطيبة كما عرفتك في أيام قلائل.. أنت سريرتك نظيفة.

قامت ميري تغالب التأثر والشعور بالامتنان من موقف عزوز تجاهها، ومن الصفات التي وصفها بها كامرأة خيرة، وصاحبة مروءة، وذات سريرة نقية ومعدن طيب، وأنه عرف لها الجميل، وكافأها شكرا جميلا أثّر فيها أثرا كبيرا. قامت ودخلت المطبخ تعد طعام العشاء، وهي تراجع نفسها وما فعلته لعزوز، حتى تضافر منه بالإشادة وحسن الثناء، فوقر في نفسها أن الرجل شهم عزيز وذا محذر كريم.

كان عزوز جالسا في الصالة مكانه المعتاد حين يسهر مع ميري، أشعل سيجارة ثم عنّد له أن يأخذ كأسا من شراب، فنادى ميري، وهي مشغولة في المطبخ قائلا من بعيد: ميري أريد كأسا، أطلت عليه من فرجة الباب وقالت: حالا آتيك بزجاجة كاملة وكأساً ماذا تفضل أن تشرب؟

- شرابنا المعتاد الذي يسبق الطعام.. ثم بعد ذلك ننظر في ماذا يكون الشراب الآخر.

- أقبلت ميري تحمل بين يديها صينية فيها ميزات من المخللات والمكسّرات وكأسين وزجاجة براندي.. وضعتها أمامه فوق الطاولة وصبت له ولها كأسين، وعيناها تنطقان بفرحة كبرى مع ابتسامة رضى، ورفعت كأسها قائلة: في صحة الشهامة. ضحك عزوز ورد قائلا: وفي صحة المروءة.

- قالت ميري: عزوز.. أنت رجل نادر.

- ربما بجسمي وحجمي.. أعني طولي وعرضي.

- بمعدنك.. يعزّ الرجال مثلك في هذا العصر.

- نقول في تعابيرنا : اللهم اجعلنا كما يظنون.

- هذا حقيقة وليس مجرد ظن، وخطت نحو المطبخ قائلة.

- دعني أفرغ من إعداد الطعام.

- قال: لا تتأخري عن جلسة سنقرّر فيها المصير.

- التفتت: أما زلت عند وعدك؟!

- وعد الرجال دين.

- سبحان مغيّر الأحوال.. أيحدث حقا ما أصبحنا نفكر فيه؟!

- قلت لك لا تتأخري.. الحر إذا وعد أوفى.

دخلت هي المطبخ مرة أخرى وانهمكت في إعداد ما لذ وطاب من طعام تفنّنت في أصنافه وجادت بأجوده، وكان فكرها مشغولا بعرض عزوز الذي لم يخطر لها على بال من قبل.

أما هو فقد انبعث في نفسه شعور بالراحة والأمل في المستقبل ورضاء عما قرّر من مسلك في الحياة يغاير تماما ما كان عليه من لا مبالاة، وقل حتى استهتارا أوبوهميةً، ولذّات ونزوات عبّ منها الكثير مع كثيرات في أماكن كثيرة، مثل المستشفى العسكري مع جانيت

وغيرها وفي نيس ومرسيليا مع نيسة وفي مدينة ليل.

جهزّت ميري الطعام وأتت به مع شراب النبيذ الفاخر إلى الصالة حيث تقام السهرة كل ليلة كالعادة، ثم دخلت غرفة نومها فارتدت لباسا فاخرا وأصلحت من زينتها وتعطّرت، وجاءت فرحة ودودة لتجلس مع عزوز فتبدأ السهرة بالعشاء يتبعه الشراب كأسا تلو كأس وسيجارة بعد أخرى.

- لباس فاخر وعطر جديد قال: عزوز ونظر إلى ميري مبتسما.
- احتفاء بالضيف العزيز
- أما زلت ضيفا؟
- إلى أن تكون لك صفة أخرى.
- أنا ممتناً منك على كل حال: الآن وبعد.
- خذ من هذا الطعام أعددته لك خصيّصا لأول مرة.
- سآخذ منه.. وهذا أيضا لذيذ جدا.. شكرا لك.
- لا تشرب كثيرا الليلة.. ستنام مبكرا، من أجل العمل.
- غدا الاثنين سأذهب لعملي، وستذهب معي، صاحبي أخبرني أنه وجد لك عملا إذا أعجبك.
- ولك صاحب في العمل؟: سألها عزوز بخبث.
- لا تذهب بعيدا: هو مدير المجمّع الذي أخبرتك عنه سابقا وقد

وعدني بالبحث لك عن عمل فالرجل خدوم طيب.

- سؤال برئ فقط أريد المشاكسة.. لا تغضبي.
- أنا لن أغضب من ضيفي العزيز، وأعرف أنها مزحة خذ كأسك هذا ولا تزيد.. حانت ساعة النوم.
- ادخلي غرفتك ونامي.. تصبحي على خير.
- هي غرفتك ما دامت الكورسيكية غير موجودة.. وأنا هذا مكان نومي على الفوتيل، أنسيت عادتنا؟
- ليكن كما تشاءين إلى أن يبدّل الله حالا بحال.
- لعل يحدث أمرٌ ما كنت أفكر فيه، ولا خطر لي على بال.

نهض عزوز ودخل غرفة نومها التي اعتاد النوم فيها أكثر من عشرة أيام هي المدة التي قضاها معها منذ قدومه إلى باريس، أخذ معه كأسا وبقية من شراب ومسّ عليها بالخير.

هيأت ميري فراشها على الفوتيل وسط صالة الجلوس واستعدت للنوم.. حاولت النعاس فاستعصى عليها بسبب هواجس متقاطعة انهالت عليها فحالت بينها وبين النوم.. ظلّت تقلّب الأمر على وجوهه.. كيف طرأ هذا الطارئ فجأة؟! ولم تفكر فيه من قبل لا من قريب ولا من بعيد.. زواج ما خطر لها على بال عرضه عليها رجل هو نفسه طارئ غريب، ظهر فجأة، كضيف رفقة صاحبتها التي كانت زميلة لها في العمل وفي الطيش والمغامرات منذ زمن مضى، والزواج أصلا كانت

قد ألغته من حياتها رغم أنها ما زالت في سن الشباب.. لكن كيف لها ذلك؟ وهي بائعة هوى سرا وعلنا، مارسته في سنوات الغواية والطيش على سبيل المغامرة والتجربة وإشباع الغريزة وامتهنته أخيرا في المحل العام الذي يؤمه أناس أغيار من أعمار وأجناس ومشارب مختلفة. إن أمرها عجيب حيّر عقلها وشوش أفكارها في تلك الليلة فأطار النوم منها، وظلّت تحت اللحاف مغمّضة العينين دون أن تهجع، تقلّب الأمر على كل وجه، ولا تضافر بحل يهديها إلى سواء السبيل.

هي حزمت أمورها من قبل على أن تقلع عن احتراف البغا العام المصرح به قانونا وأن تبحث لها عن عمل شريف تبذل فيه الجهد والعرق وتكسب منه الكسب الحلال الطيب، وقد كان لها ذلك، قيض الله لها سبيله ويسّره، حصلت عليه بسهولة وكان أجره مجزيا، وهذا أول جزاء على حسن النية والاستقامة.. كم في الدنيا من خير منحة من الله لعباده في كل زمان ومكان، وكم من سبيل للعيش الكريم، يا عباد الله الصالحين.. إنها العناية الإلهية شملك الله بها يا ميري من حيث لا تدري، وقد كنت سادرة في غيّك، غافلة عن ذكر الله، بعيدة عن الطاعات، غارقة في المعاصي يحيط بك الحرام من كل جانب..كان مالك حرام، وطعامك وشرابك، وملبسك وسكنك.. هل الناس جميعا حالهم كحالك؟ هل كل منهم مضطرب الحياة مشوّش الفكر، شقي تعيس؟ ظلت أفكارها تخوض بها في متاهات لا نهاية لها حتى قرب الفجر، في الصباح استيقظت في الموعد فأخذت ملابسها وزينتها على

عجل وخرجت تدرك وقت العمل حتى لا يسجل عليها سابقة تأخير، رقم الهاتف في العمل ليتصل بها عزوز عندما يستيقظ.

عزوز يستيقظ متأخرا كعادته، فيأخذ حمامه ويتناول إفطاره الذي وجده موضوعا على الطاولة وبجانبه الورقة المكتوب فيها رقم الهاتف. يطلبها عزوز على الهاتف.. تصبح عليه بالخير وتطلب منه أن يوافيها في مكان عملها، فصاحبها مدير المجمع وجد لعزوز عملا كحارس للبوابة بالتناوب مع آخرين، عمل مريح وبأجر لا بأس به، إلى أن يقدر الله ما في علمه من أمر جديد.

التحق عزوز بميري في مكان عملها فوجدها تنتظر.. قدّمته للمدير الذي مكنه بدوره من العمل، وصرف له سلفة على معاشه مقدما، كانت الأمور كلّها تتسارع في سهولة ويسر، كأن القدر أخذ يرسم لهما مسارا آخر، بفضل النوايا الحسنة، والرجوع إلى طريق الاستقامة والحق. طلبت ميري من المدير فضلا يتكرم به على عزوز من أجلها أيضا، وذلك بأن يجعل نوبته في الحراسة تتزامن مع عملها بحيث تكون بداية عملهما في وقت واحد وعند الخروج، فهي قد أخبرته عن عزوز من قبل، كونه جندياً من جنود فرنسا الشجعان الذي شارك في جبهات القتال ضد النازية دفاعا عن شرف فرنسا ومجدها وأنه من جرحى المعارك، وقد سرح بسبب عاهة خلفتها له الحرب، وأن الرجل جاد بدمه في سبيل الكرامة والشرف، وله حق على فرنسا الوطن والشعب، وأضافت لعلمه - المدير - أن الرجل في حكم الزوج لها، فهو الآن

خطيبها ويقيم معها في بيتها إلى أن يتم عقد الزواج قريبا.. استدرت عطف المدير وهو راض عنها من قبل، فنفذ لها طلبها ووعدها أن يساعدها كلما احتاجت إلى شيء كما قامت هي بواجبها نحو هذا الرجل الشهم الغيور على الوطن.

تنّفست ميري الصعداء وغمرتها فرحة وراحة نفسية كبيرة، إذ وفقها الله في مسعاها نحو الرجل الذي ارتاحت له منذ ولج بيتها، وتفاءلت به خيرا، حين هداها الله بعد أن عرفته واستضافته عندها، وما أن دخل بيتها حتى تغيّر حالها رأسا على عقب، وتبدّلت حياتها من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، فهي منذ ذلك اليوم الذي خرجت فيه رفقة صاحبتها وعزوز ودخلت بيتها لتقوم بواجب الضيافة لم تعد إلى المحل الذي تبيع فيه الهوى في حي بيجال، وكأن القدر وضع حدا فاصلا لا يمكن تجاوزه مرة أخرى بينها وبين حياة الحقارة والضعة والدنس.. كانت ميري تؤمن بالفال وقد جاءها بخير ما كانت تنتظره.. تطهرّت من أدرانها ولبست ثوب العفّة من جديد وأقبلت على حياة أخرى تأمل فيها المغفرة والثواب.

استلم عزوز عمله كحارس في الباب الكبير للمركب.. اقتسم العمل مع اثنين آخرين واحد من السنغال وآخر من مالي، وحدّدت له نوبته في الصباح بحيث تتزامن مع وقت عمل ميري بأمر من المدير.

كان عزوز ملازماً للباب إما جالسا على كرسي أو واقفا يلاحظ

كل ما يتعلق بشؤون البوابة، يرد على أسئلة المستفسرين من الزوار، أو يرشدهم إلى وجهتهم المقصودة أو يساعدهم في شأن من شؤونهم، كان يلفت نظر الجميع الداخلين والخارجين بقامته المهيبة، وجسده الضخم، وسحنته الإفريقية المميزة، باشا في الوجوه متطوعا للمساعدة دون أن تطلب منه وسرعان ما أصبح علما يعرفه الجميع وينعتونه بالحارس الطيب الودود.

كاد بعد دوام العمل ترافقه ميري التي كانت ممتنة جدا من مساعدة المدير لها بخصوص تمكين عزوز من العمل المريح وبمرتب مجزي وكذلك تكرّمه بأن عين له دالة عمله تتوافق مع وقت عملها، وهذا في حد ذاته اعتبرته ميري مكرمة أخرى ساعدها فيها الحظ الذي أصبحت تؤمن به بمقدم عزوز، وكان عزوز هو أيضا فرحا مستبشرا، ومؤملا نقلة جديدة في حياته، يكون له فيها شأن آخر سيقلب عنده الموازين، ويغير لديه المفاهيم ويبدّل السلوك والقناعات السابقة، هكذا كان يؤمل كما يحدّثه به حدسه، وأن هذه المرأة ناصية خير وسعد تنبأ به بينه وبين نفسه.

كانت ميري وعزوز يقطعان الطريق بين مكان العمل والبيت مشيا على الأقدام، لقرب المسافة، وهذه نفحة أخرى كفتهما أجرة التنقل وزحام المواصلات، ومنحتهما من جهة أخرى فرصة للرياضة يوميا إجبارياً، وكم للرياضة من فوائد وخاصة لأهل المدن المكتظة بالسكان، والحياة فيها سريعة الرتم ضيقة الوقت وضيقة المكان.

في الطريق دخلت ميري متجراً منوعًا فاشترت زجاجة ويسكي يفضله دايما عزوز وبعض لوازم المطبخ.

حين دخلت ميري الشقة صحبة عزوز، جلس هو في الصالة كعادته وقصدت هي المطبخ تضع الأشياء التي أحضرتها معها، ثم وضعت في صينية بعض الميزات وإناء به ثلج وكأسا واحدا وأحضرت زجاجة الويسكي، ووضعت كل شيء فوق الطاولة أمام عزوز وقالت له: خذ كأسك بالصحة والعافية.

- نظر عزوز في محتويات الصينية، افتقد كأسها قال: أنت أحضرتِ كأسا واحدا؟!

- هو كأسك.. ألا يكفيك كأسا واحدا؟

- وأنت أين كأسك؟!

- غاب.. أنا قرّرت أن لا أشرب بعد اليوم.. لقد انتهت كؤوسي منذ هذه اللحظة، ألا تعلم أنها محدودة ومعدودة ولها وقت تنتهي فيه، هي لا تزيد ولا تنقص كما قضت بها المقادير.

- نظر عزوز إليها مليا ولم يتكلم، ثم سحب كأسه وفتح قنينة الويسكي وصب فيه وعبّ وظل صامتا لا يتكلم.

دخلت ميري المطبخ تعدّ العشاء وانشغلنا ساعة من زمان. ثم عادت إلى عزوز تسأله إن كان في حاجة لشيء ما. أومأ لها بأن لا حاجة له، وسحب كأسا كانت مملوءة وأفرغها في جوفه ولاذ بالصمت..

نظرت ميري إلى قنينة الوسكي فوجدتها قد تناقصت إلى النصف، سألته بالإشارة تحذّره من الإفراط.. لم يرد.. عادت إلى المطبخ لتأتي بالطعام. صب عزوز كأسا آخر، حين عادت ميري تحمل الطعام.. قال لها: ميري سأحكي لك حكاية بعدها سيكون أمرا.

- احكي ولا تفرط في الشراب.
- صبرك عليّ.. اسمعي الحكاية.
- كلي أذان صاغية.
- كانت عجوز في قريتي بجوار دوّارنا في بلدي الأصلي تونس، وكان لهذه العجوز ولد تعوّد أن يخرج في ساعة معينة كل يوم ليلتحق بجماعة من أترابه يعقدون جلسة شراب كل يوم في موعد محدّد يديرون الكؤوس ويتنادمون. ذات يوم انشغل هذا الولد في أمر ما ونسى الموعد مع جماعته.. انتظرته أمه قليلا من الوقت.. استمر الولد مشغولا في عمله ناسيا الموعد.. جاءت أمّه إليه قالت له: قم يا ولدي أكمل كأساتك.
- انتبه الولد وهو ما زال ناسيا موعده مع جماعة.. قال لها: أي كأسات تتحدّثين عنها؟
- كأساتك المقدّرة لك.. هي يا ابني كأسات مقدّرة ومعدودة فإذا اكتملت لم يعد لك فيها نصيب.
- قال: يا أمي لقد استوفيت كأساتي فوالله لم يعد لي منذ اللحظة كأسا،

وأقلع من يومها عن الشراب ولم يقربها أبدا.

- إنه صاحب عزم وحزم..هكذا يكون موقف أصحاب الإرادة.

- وأنا أيضا يا عزيزتي ميري.. قد استوفيت كؤوسي ولن أعود إليها أبدا بعد هذا الكأس، وعبّه وقفل قنينة الوسكي.

ذهب عزوز وميري كل منهما إلى عمله، وكل منهما راض عن نفسه بما اتخذاه من قرار في ساعة واحدة، وكأنه إلهام هبط عليهم من السماء.. عادا إلى البيت معا.. كانت ميري وهي منشغلة بعملها اليدوي أثناء النهار قد لاذت بالصمت فلم تتبادل مع رفيقاتها إلا كلمات قليلة تفرضها الضرورة، كانت مشغولة بأمر آخر. ذلك الأمر هو ما توفّر عندها من مال اقتنعت بأنّه مال حرام، هو ليس بالكثير، لكنّه يشكل لها هاجس يؤرقها طول الليل والنهار، أيضا الشقة كانت قد اشترتها من مال حرام، حتى مقتنياتها وملابسها وبعض الحلي والتحف والكتب بما فيها الكتاب المقدس اشترتها بنفس المال.. لابد من التخلص من كل هذا.. هو قرار آخر لا رجعة فيه.. لا تريد الدنس بعد اليوم.. لابد أن تتطهّر وتترك كل ما تملك.. تقطع صلتها بماضيها كاملا، لتكون صفحتها بيضاء في مستقبل الأيام، كذلك تأمل أن يكون عزوز، فهي الآن أصبحت تفكّر جديّا في الاقتران به.

حين عادا من العمل وبعد تناول طعام الغذاء.. جلسا يشربان قهوتهما.. جاءت ميري بالصينية وفيها فنجانان للقهوة وإناء به ماء ليس

إلاّ، وغابت قنينات الخمر وتلك النوافر من صحون الميزات المتنوعة.

نظرت ميري إلى عزوز وقالت: أنا أحس أنك راضي عن صفحة فتحناها معا في حياتنا وستكون نظيفة ناصعة البياض بإذن الله.

- هو ما قلت، والفضل في ذلك لك بما حزمت من عزم وحزم وقوة إرادة، وكما قلت لك من قبل أنت من معدن طيب.

- عزوز.. أنا يشغل بالي شيء آخر يجب أن أصارحك به.

- هاته.. لم تعد بيننا إلاّ الصراحة.

- نعم.. إن الصراحة راحة للنفس، وتجعل الإنسان يتبين أمره بوضوح. فيرسم طريقه مستقيما واثقا من نفسه ثابتا على مبادئه.

- ميري.. أنا أصبحت أثق في كل ما تقولينه وتقترحيه.. أنت إنسانة حباك الله بعقل راجح يهتدي ويهدي إلى الحق، كما أعطاك الطيبة وحسن الخلق، والمروءة والكرم، وهذا كلّه ينم عن محتد كريم.

- اسمع إذا ما أقوله لك.

- سمعا وطاعة سيدتي.

- من اليوم سأجمّد كل مالي في البنك، وهو ليس بمال كثير، وهذه الشقة سأقوم ببيعها بما تحويه، وأحول ثمنها مع مدّخراتي إلى جمعية خيرية، وحتى ملابسي التي اشتريتها من قبل ومجوهراتي سأتخلص منها بأية طريقة.. ولن يكون مصروفنا منذ الساعة إلاّ من مرتبي ومرتبك وسنبحث عن شقة بالكراء، إلى ان يجعل الله لنا فرجا ونشتري شقة

من مال حلال، وأنا على يقين أن الله سيعجّل لنا بالفرج القريب.

- نعم الرأي.. ألم أقل لك أنك إنسانة خيرة ومن أصل كريم؟!

- يعيننا الله، ويعلم أنني عازمة على فعل ما قلته لك وهو المستعان.

في اليوم التالي بعد دوام العمل ذهبت ميري وعزوز إلى مكتب لبيع العقارات في الشارع الذي تقيم فيه وعرضت شقتها للبيع وطلبت شقة للكراء لمدة سنة قابلة للتجديد.

بعد ساعتين كان الشاري حاضرا من مكتب العقارات، فطلبها القيم في المكتب.. جاءت هي وعزوز.. تم بيع الشقة.. قبضت الثمن وتركته أمانة عند المكتب.. تحصّلت على شقة للكراء في شارع على بعد خطوات من مكان العمل..دفع عزوز أجرة شهر من السلفة التي استلمها قبل أن يبدأ العمل مقدما على أن تدفع هي باقي أجرة السنة من مرتبها الذي ستستلمه بعد أسبوع.. عادت فرحة مستبشرة بهذا التيسير من الله، وكان عزوز يشاركها فرحها ويحمد الله الذي مكنّه من اللقاء بهذه المرأة الصالحة التي ستكون معها الحياة مغايرة تماما لما كانت عليه من قبل.

قال لها: ميري أنت وفقك الله في كل ما نويته ويسرّ لك كل شيء دون مشقة ولا تعب، والآن عليك أن تعجلي بالتخلص من هذا المال الذي زهدت فيه وقلت أنه مال حرام، وبسرعة ليطمئن قلبك وترتاح نفسك.

وهذا ما أفكر فيه هذه اللحظة.. سنقسّم المال بين أكثر من جمعية،

والملابس سأضعها في حقائب وأدفع بها إلى مكاتب استلام الأشياء الدارسة والتي بدورها تبعث بها إلى فقراء دول كثيرة في العالم.. سأريح نفسي من كل شيء يذكرني بالماضي ومصدره.

- هكذا تكون قد هدأت نفسك، وارتاح ضميرك وعمك الرضاء.
- بعدها سنفكر في الزواج.. بل أنا فكرت ووافقت عن اقتناع تام.. وأنتظر كلمتك.. رغم أنك أنت الذي عرضت الأمر من قبل.
- وأنا عرضي ما زال قائما.. لكن زواجنا له شروط.
- كل الشروط مقبولة بالنسبة لي.
- هي شروط لابد أن تعلميها، وتوافقي عليها.
- أنا موافقة عليها دون أن أسمعها.
- اسمعيها واحدة واحدة.
- هاتها.. أنا أسمع.
- ميري أنت مسيحية كاثوليكية.. ومن أهل كتاب أليس كذلك؟
- أنا أعرف أنني مسيحية كاثوليكية.. ولا أعرف من هم أهل الكتاب؟
- أنت من قوم عيسى.. أهل كتاب كاليهود والنصارى الآخرين الذين اختلفت مذاهبهم.
- أنا أعرف فقط أنني مسيحية من قوم عيسى، ولم أذهب في حياتي إلى الكنيسة.
- وأنا مسلم.. أنت لك دين ولي دين.

- وهل في ذلك من ضير؟

- لا ضير.. إن المسلم لا يتزوج الكتابية إلا بشروط.

- قلت لك لا أعرف من هي الكتابية.. من قال لك أنني كتابية.

- أنت كتابية بالضرورة.. أنت مسيحية.. فأنت من أهل الكتاب.

- إذا ما هي شروط زواج المسلم بالكتابية؟

- أن تسلم..تدخل في دين الإسلام وبشروط كما قلت لك.

- وأنا دخلت في الإسلام وقبلت بالشروط.

- وشروط الدخول في الإسلام : شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

- سأشهد.. فقط علمني كيف أقول.

- وإقامة الصلاة.

- سأصلي عندما تعلمني.

- وصوم شهر رمضان.. فهذا فرض آخر.

- سأصوم كما يصوم المسلمون.. وقد سمعت بعضهم يقولون في الصوم صحة.

- والزكاة إذا بلغ نصابها.

- وهذه لا أعرف كيف هي.. لكن سأقوم بها كيفما تكون.

- والحج لمن استطاع إليه سبيلا.. وسأخبرك كيف تكون هذه الفرائض

كلها على الوجه الصحيح، ولابد لنا من الاستعانة بالإمام الذي عادة ما يكون في المساجد يلقي على الناس دروسا بالمجان وتطوعا لمن يسأله عن كل ما يتعلق بالإسلام.

- أنا مسلمة وطوع أمرك.. كيفما تريد، ان أردت أن تذهب إلى الكنيسة لتعميد زواجنا الآن فهيا بنا.

- أي كنيسة التي سنذهب إليها؟ أنت الآن مسلمة ولك المسجد إن أردت الصلاة فيه، وسنعقد قراننا هناك عن طريق إمام المسجد وبحضور الشهود.. أما الكنيسة فهي للمسيحيين يقيمون فيها صلواتهم وطقوسهم الدينية، والإسلام له شعائر أخرى أنت ملزمة بها.. وهناك أيضا بعض المحظورات على المسلمين. منها: شرب الخمر وقد أقلعت عنه بإرادتك بارك الله فيك ولحم الخنزير محرّم على المسلمين وبقية اللحوم لابد أن يذكر عليها اسم الله عند الذبح.. هناك في الإسلام المحرّم والمباح والمندوب ستتعرفين عليه فتأخذي منه المباح وتتجنبي ما يجب اجتنابه. إن الدين الإسلامي سمح ميسّر وفيه رخص كثيرة وخير كثير.

- أشكر الرب الذي هدانا إلى الطريق المستقيم.

- نحن المسلمون نقول: الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

- أريد أن أعرف أول شرط من شروط الإسلام لأطبقه فتحل لي زوجا

وأنا لك زوجة.

- أن تشهدي أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أمام الشيخ في المسجد وبحضور الشهود.

- فلنذهب الآن.. ألا يكون الشيخ موجود في المسجد هذه الساعة؟

- ربما يكون موجوداً.. لكن لا بأس أن أرتب الأمر في متسع من الوقت ونحضّر الشهود، ونشتري لوازم حفلة العرس.. ثم.. أنسيت أننا لم ننتقل إلى الشقة التي اكتريناها، وما زلنا في هذه الشقة التي تبرأت منها جملة وتفصيلا حتى أثاثها تنازلت عنه للشاري؟

- صحيح أنني في غمرة فرحتي بالتخلّي عما كنت فيه من ضياع روحي ومادي وما أقبلت عليه من حياة أراها سوية طاهرة بحول الله، أصبحت متلهفة على التحول من حال إلى حال بأسرع وقت وأحس أن الإسلام أضاء نفسي من الداخل. ولا تنسي فرحتي بك زوجا كريما جاء على يديه الخير والفضل.

- أنت أكرم وأكثر فضلا.. الآن علينا أن ننتقل من هذه الشقة وندبّر بعض الأثاث ولوازم الطبخ، ونبدأ حياة جديدة إن شاء الله، ونرضى بما نكون عليه من حال.

- ربنا كريم، هو الذي هدانا إلى الطريق المستقيم إن شاء الله، سيقيض لنا حياة نسعد بها ونرضى عنها ونحمده.

- له الحمد والشكر وهو المستعان على كل أمر.

في ما تبقى من النهار بعد الغداء، خرج عزوز وميري إلى الحي الذي توجد فيه الشقة المكتراة، فتكفّل عزوز بشراء أثاثا متواضعا.. عبارة عن سرير لاثنين وفراشا ولحافا وأغطية وسجادة صغيرة لغرفة النوم وكرسيين من خشب وطاولة، واشترى سجادتين للصلاة ومسبحة ورداء لميري وغطاء للرأس، أما هي فقد اشترت لوازم الطبخ وبعض المشتريات الغذائية والمنظفات، كل شيء كان في حدود الأدنى والضرورة. تم توصيل جميع الأشياء إلى العش الجديد، ورتبت بمعرفة ميري يساعدها عزوز وكان الاثنان سعيدان.. كل منهما يضحك في وجه الآخر في صمت.. يتبادلان كلمات قليلة في حياء وخجل، كعروسين قبل الزفة، ويبدي كل منهما للآخر الطاعة ولين الجانب.. ميري رغم حياتها السابقة التي بذرت فيها كثيرا من الحياء والحشمة قبل أن تقرر قرارها الأخير بالإقلاع عمّا هي فيه.. كانت حييّة خجلة كأنها فتاة غرّة أمام عزوز.

لم يستغرق منهما ترتيب الشقة وقتا طويلا، وعادا إلى بيت ميري الذي بيع ولم تسلّمه بعد إلى المشتري، ولأنهما لم يعقدا قرانهما بعد، فقد نام كالعادة عزوز في غرفة النوم، ونامت ميري في الصالة. صباحا ذهبا إلى عملهما وتقدمت ميري إلى المدير بطلب تستأذن فيه للخروج من أجل الاستعداد لحفلة الزواج التي تقرر إقامتها في المساء، وكذلك فعل عزوز بحيث أناب عنه أحد زملاءه في نوبة حراسته، تمت مراسم الزواج في وقت قصير، ذهبا إلى أحد المساجد في ضاحية قريبة، فأعلنت ميري إسلامها على يد الإمام وبشهادة الشهود ثم قرأ الفاتحة وحرّر عقدا ثبت

فيه اسميهما بتاريخ اليوم، تم كل شيء بيسر وعاد عزوز وميري كل منهما زوجا للآخر وقد اتفقا على تأجيل حفلة عرس قاصرة على عدد محدود من أصدقاء وصديقات ميري إلى وقت لاحق.

دخل عزوز بزوجته في أول ليلة في شقتهما الجديدة المكتراة بمال حلال، وناما معاً لأول مرة على فراش من حلال.. عندها شعرت ميري براحة نفسية وروحية لا توصف لأنها انتصرت على نفسها، حين قررت السير في اتجاه تتوق له روحها، وليس ألذ للقلب من الانتصار.. سارت نحو الفضيلة.. تخلصت من الموبيقات وتطهرت من الأدران، أحست لأول مرة بالتحرر من هوى النفس ورغبات الجسد.. كان شعورها فيّاضا بالرضاء.. عادت ملاكا طاهرا بعد أن كانت شيطانا تلاحقه اللعنات.. توحدت في ضمة حميمية إلى حد الانصهار في روح عزوز وجسده.. التصق وجهها بصدره.. سالت دموعها ساخنة.. في كلمات يخالطها نشيجها، قالت: عزوز.. أنت روحي عادت إليّ بعد أن كنت هائمة.. أنت حياتي الضائعة مني لسنوات تحوّلت من تعاسة وشقاء إلى جنة وارقة الظلال.. أنت فقط وبعدك الطوفان.

قال عزوز: وأنا وجدت ضالّتي صدفة بعد ضلال وتيه طويل.. لقد سلكت من قبل مسالك متعرجة وعرة أودت بي إلى قفر وخراب.. والآن اهتديت إلى طريق مستقيم أوصلني إلى عمار ترضاه نفسي ويفرح قلبي، فالحمد لله أنها هداية منه، وتوفيق من عنده.

- هي عناية الله شملتني وشملتك.. فسبحان القادر على كل شيء.. يغير من حال إلى حال.
- هو يغير ما بقوم حين يغيروا ما بأنفبسهم.
- ونعم بالله.. والحمد لله الذي غيرنا بعد أن تغيرنا.
- أنعم الله علينا بالهداية وحسبنا الله ونعم الوكيل.
- وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.
- نعم.. ما أكثر نعم الله على عباده لو يعلمون.
- هي في أنفسهم . لكن أكثرهم غافلون.
- لو نظر الصحيح المعافى إلى المريض العليل.. لوجد تاجا على رأسه.. ولو رأى المبصر إلى الأعمى وذو السمع إلى الأصم.. والذي ليس به عاهة إلى ذوي العاهات من أي نوع.. لعرف فضل الله عليه.
- انظري حالنا.. كيف كنا وكيف أصبحنا.. سبحان مغير الأحوال.
- بالأمس القريب كنت بائعة هوى في محل عام، وأعاقر الخمر، وأدمن السيجارة، وأستخف بجميع الأحكام، ولا أرعى خلقا كريما ولا ألتفت إلى ذي حاجة ولا أشفق على مسكين.. كنت هائمة في الضلال، متمادية في الغواية والفساد.. بوهيمية إلى حد بعيد دون تدبر ولا تفكير.. كنت بالأمس ليس كما أنا اليوم.. كنت في شقاء وأصبحت في نعمة.
- هذه واحدة فقط.

- وأخرى راحة الضمير.. الرضاء عن النفس والانتصار عليها.. خلو القلب من الضغائن والأحقاد.. التسامح والتدبّر في خلق الله. الرأفة بعباده والإشفاق على المستضعفين ومساعدتهم.. هذه كلّها كانت مغيبات عن الوجدان.. لا أقول إلا الحمد لله على هذه الصحوة.

- وعلى هذا الاعتراف بفضل الله.. جميل من الإنسان أن يحاسب نفسه ويلومها . ويقر بفضل الله عليه.. هي الرجعة الفاضلة إلى صاحب الفضل.. الاعتراف بالجميل، والثناء على مولى الفضل.

- اللهم ذكرنا بفضلك وارحمنا واغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا واجعلنا من عبادك الصالحين.. سبحانك الله.

- «سبحان ربك رب العزة عا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين».

- ما أحلى وأجمل هذا القولّ

- إنه: قول العزيز الحكيم.. قول الله رب العالمين.. إنه من القرآن. الذي أنزله الله على رسوله رسول الهدى للناس أجمعين.

- يا له من قول.. أريد أن أحفظ من القرآن.. شيئا من كتاب الله.

- إنه: كتاب لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه.

- كيف يمكنني ذلك؟

- بواسطة الشيخ إمام المسجد الذي عقد لنا الزواج.

- متى يكون هذا؟

- سأعلمك بعضا من قصار السور لتستقيم لك الصلاة.
- إن صلاة المسلم لا تكون صحيحة إلا بقراءة القرآن، بعض واجب وبعض مندوب.
- من الآن إن شئت وشاء الله.

أخذ عزوز يحفّظ ميري سورة الفاتحة الواجبة في كل ركعة، وبعضا من قصار السور التي يحفظها وهي قليلة، هو أيضا لم يصلي إلاّ حين كان مراهقا قبل العشرين من عمره، وحين جنّد في سلك الخدمة الوطنية انقطع عن الصلاة ونسى أغلب ما حفظ، لكنه استذكر سورة الفاتحة والكوثر والمعوذتين. كانت لميري نباهة وذاكرة حافظة، وشغف بما رغبت فيه من تعلّم وإقبال روحي على ما يتعلق بدينها الجديد.. فحفظت ما ردّد على مسامعها عزوز من قصار السور أولهم الفاتحة وطلب منها الاقتداء به فيما يفعل حين يقوم بتأدية فروض الصلاة ونوافلها.. كانت تؤدي الصلاة معه في كل وقت بنفس مطمئنة وروح مشرقة هادئة مقبلة محلّقة في رحاب الله مستغفرة عقب كل صلاة.

وكان عزوز يدفع لها بالمسبّحة بعد أن يتم وردا تعلمه من قبل، ويعلمهاكيف تقول في تسبيحها طالبة العفو والغفران، وكانت هي حريصة جدا على تعلم كل ما يقربها إلى الله، وما يتوسل به إلى رضاه سبحانه وتعالى.

ذات ليلة بعد صلاة العشاء بوقت طال ساعة أو أكثر دخلت ميري

إلى الحمام فتطهرت لأنها كانت جنب، فهي لا تنام إلا طاهرة.. أما عزوز فإنه تعوّد أن لا يتطهّر إلاّ قبل صلاة الفجر بقليل، عندها يوقظ ميري ليؤديا الصلاة جماعة.

قالت ميري: عزوز حبيبي.. خطرت علي فكرة هي مشروع اقتصادي تنموي سنبعثها معا على أرض تركها لي والدي في بلدتي الأصلي قريبا من هنا على بعد خمسين كيلو متر تقريبا من باريس؟!

مشروع؟!

- ما رأيك؟ إن الارض واسعة.. تمسح تقريبا خمسة هكتارات.
- وما هو المشروع؟ وهل يحتاج إلى تمويل كثير وعمالة مثلا.
- إنه لا يحتاج إلى عمالة.. في إمكاني أناوأنت إدارته ولا يحتاج في تمويله إلى مبلغ كبير من المال.
- كيف؟ وما هو؟ وهل أنا وأنت قادران على إدارته.
- نعم.. هو فقط يحتاج مراقبة ورعاية بيطرية هو عمل ميسور في إمكاننا القيام به.. إنه مشروع لتربية الأرانب.. فهي تتكاثر بسرعة ومطلوب لحمها في السوق وخاصة هنا في باريس وفي إمكاننا تسويق الإنتاج كل أسبوع حين ننظم لها دورات معينة تفصل بينها فترات زمنية معروفة، حيث نقوم بتسمين الذكور بعد عزلها عن الإناث في حظائر خاصة.
- أقول لك الحق.. إنها فكرة صائبة ومشروعا ناجحاً كما أرى، فقط

علينا أن ندبّر رأس المال، وندرسه بعناية ونعاين الأرض فربما تحتاج إلى إصلاح أو حماية وما شابه ذلك.

- هذا أمر سهل غدا إن شئت بعد دوام العمل نذهب لنرى الأرض، وهل هي في حاجة إلى إصلاح ولا أعتقد ذلك، رغم أنني لم أرها منذ سنتين.. لكنها كما أعرف هي مسوّرة ولا تحتاج إلاّ أن نعيّن مكان الحظائر وتجهيزها.. أما التمويل المالي فلا أرى أن يكون مبلغاً كبيراً.

كان يوم الأحد العطلة الرسمية لكل من عزوز وميري فذهبا إلى بلدتها لمعاينة الأرض ودراسة وضعها من حيث صلاحيتها للمشروع وما إذا كانت تحتاج لبعض التعديل والإضافات وغيرها.

كانت المزرعة تمسح خمسة هكتارات مسوّرة بالكامل متوّفر بها الماء وفيها مبنى قديم يحتاج إلى إصلاحات بسيطة قال عزوز: يمكن أن نحوّله إدارة للمشروع على أن نستقطع منه جزء نجعله مخزنا للأدوية والمعدات.. بينما اقترحت ميري: أن يحوّل إلى سكن خاص بهما بعد ترميمه وإدخال بعض التحويرات فيه، ويمكن الإقامة فيه إذا نجح المشروع، فيتفرغان للعمل به وترك كل منهما وظيفته في باريس فالحياة في الريف أنسب وأفضل من جميع النواحي.

قال عزوز: وهذا أيضاً رأي صائب، فالحياة هنا خالية من الضوضاء والهواء الملوث، وفوضى الزحام والعربات والحوارى المكتظة بالسكان.. هنا الخضرة والأفق الطلق، والهواء العليل، والسكان الطيبون البسطاء،

إنها الطبيعة والبيئة التي تصادق الإنسان.

عاد كل من ميري وعزوز مساء يوم الأحد، وقد استقر بينهما الرأي على البدء في المشروع فورا حالما يتوفر لهما المال اللازم لترميم المبنى وتحويله إلى بيت للإقامة وإقامة حظائر للأرانب وهذه لا تكلف كثيرا، مجرد مربعات مسوّرة بألواح.. من خشب ومغطاة بساتر من أعلى ولو من قماش سميك (قيطون)، ثم حفر في الأرض تأوي إليها الأمهات لتضع فيها الجراء.. وهذه طريقة بدائية..أو تبليط الأرض، وصنع حجرات صغيرة فوقها، تدخل فيها الأرانب الولودة بعد أن تعزل الذكور في مكان آخر حتى لا تؤذي الصغار.. عموما المشروع في بداياته لا يحتاج إلى كلفة كبيرة، وحين يتطوّر، ستكون الأموال قد توفّرت من خلال الإنتاج عندها يتوسّع المشروع وتدخل عليه آليات جديدة، وربما انبعث بجانبه مشروع آخر لتسمين الخراف والعجول.

- قالت ميري وتربية الخنازير.
- لا.. للخنازير.. لا تنسي أننا مسلمون لا نربيها ولا نأكل لحمها.
- اغفر لي لقد نسيت.. قطعاً لن نأكل لحمها.. فهي ما دامت محرمة في ديننا لا أريد أن أراها.
- لنبدأ بالأرانب أولا.. ثم نتبعها بالخراف والعجول وفي هذا كفاية.. والأهم.. الإخلاص في العمل والجدية والتوكل على الله، والرزق مقدّر من عنده فقط علينا السعي في سبيله.

- سنسعى إن شاء الله والله يعيننا.. فأنا مستبشرة خيرا من وراء هذا المشروع..وكذلك فرحةٌ جدا بعودتي إلى بلدتي مسقط رأسي وقد ظفرت بزوج حبيب يبادلني الحب،

- إميه – صحيح مسقط الرأس غالي.. لقد ذكرتيني به.

- عذرا حبيبي.. ما قصدت.. علني أثرت فيك بعض الشجون.

- لا عليك.. نحن الرجال خلقنا لنتغرّب.. نسافر.. نحارب ونقاتل، ونكابد الأهوال.. أما النساء فنواعم صاحبات خدر.. هن قوارير على الرجال أن يترفقوا بهن.

حين فرغ عزوز وميري من طعام العشاء جلسا يرتشفان قهوتهما التي تعقب الوجبة عادة، وأخذا في حساب ماهو متوفر عندهما من مال علّه يكفي للبداية ولو بأعداد قليلة من الأرانب.

قالت ميري: أنا عندي من المال الحلال ما تبقى من مرتبي الشهر الماضي ويمكنني أن أحصل على مرتب هذا الشهر مقدما إذا قدمت طلبا للمدير.

وأنا عندي ثلاثة آلاف فرنك هي مرتباتي من خدمتي في الجندية وعندي ألفان قدمتها لي مدام روجية كمكافأة دفاعاً عن الوطن حين علمت أنني أصبت بجراح خطيرة وكسور في إحدى المعارك.. هذا أيضا أحسبه مالا حلالاً.. أما المال الذي تبرعت به الصاحبات السابقات من الراهبات والممرضات عندما كنت في المستشفى العسكري فهذا

مغشوش ولابد من التخلص منه، وكذلك ما منحتني نيسة اليهودية.. إيه نسيت هناك مال آخر حلال، هو مالي الذي تحصّلت عيه من وظيفتي في خدمة مطلقتي مدام روجيه قبل أن تطردني من الخدمة ومن ساحتها مرّة واحدة.

- عليك إذاً أن تبدأ فرز حلالك من حرامك فنحن نريد أن يكون رأس مال مشروعنا من مال حلال ليبارك الله لنا فيه، ولا يجب أن يدخل فيه فلس واحد من حرام.
- هذا أمر مؤكد.. سيكون عملنا بإذن الله نظيفا لا تشوبه شائبة ليربأ ويزيد، وتنزل فيه البركات.
- ونحن في البداية أعتقد أننا لا نحتاج إلى أكثر من عشرة آلاف فرنك إذا بدأنا بتربية الأرانب فقط.
- عشرة آلاف؟ متوفرة عندي وزيادة.. لكن لا تنسي تكلفة ترميم المبنى إذا قرّرنا السكن في المزرعة.
- الترميم لا يحتاج إلى الكثير.. ربما التأثيث يشكل تكلفة إضافية.
- أرى أننا قادرون على بعث هذا المشروع بما عندنا من مال فلنبدأ على بركة الله.
- غدا نبدأ بإذن الله، ومن يتوكّل على الله لا يخيب.
- إذا حزم أمره وعزم، وصدق مع نفسه وأخلص النية.

وتسارعت الأيام، وانبعث المشروع سريعا.. بدا بيئة أرنب من

ذات الحجم الكبير والتي تنمو بسرعة ويكتنز لحمها، وكانت الدورة الأولى فأخذت تلد كل واحدة عدداً من الجراء، عزلت الذكور الفحول حين بدأ وقت الولادات. لأنها تؤذي الصغار، ثم بعد أيام أخرى تعزل الصغار من الذكور في حظائر خاصة للتسمين.. هكذاهي دورة تربية الأرانب وتتوالى بروتينية طوال وقت المشروع.

استعانت ميري في البداية بخبير في هذا الشأن هو أحد أقاربها يسكن قريبا من مزرعتها.. كان عزوز يرعى المشروع بكل عناية ويجتهد في العمل.. لم يستعينا بعمال عدا الخبير في الاستشارات فقط.. أما بقية الأعمال فكانا يقومان بها بأنفسهما.

في الربع السنة الأولى تم تسويق أول إنتاج.. حسبت العائدات وخصم منها المصروف على الأعلاف والأدوية والآليات والأدوات.. غطّى إنتاج الدورة الأولى جميع المصروفات وزاد فايض من المال تم به تحسين وتطوير المشروع.. وجاءت الدورة الثانية.. بربح وفير خصم منه ما صرف على إصلاح المبنى وفاض مبلغ أودع في حساب المشروع في البنك، وتوالت الدورات وعقب كل دورة يفيض المال وتضخمت الأرقام في البنك باسم ميري وعزوز.

شيّدت فيلا فسيحة وأنيقة في ركن من المزرعة من أجل السكن المريح وخصّص المبنى القديم كإدارة للمشروع وانتدب مديرا له يهتم بالحسابات وتدبير الاحتياجات والتسويق.. توسّع المشروع بأن بعثت فيه

حظائر خاصة بتربية الخراف وأخرى لتسمين العجول.. اشترى عزوز عربة يجرها اثنان من الخيول، من أجل استخدامها في التنقل حين يذهب عزوز وميري إلى أسواق القرى المجاورة من أجل الفسحة أوا لتسوق.

أصبحت ميري في حكم الأم فهي تحمل في أحشاءها طفلا أو طفلة سيحل بعد شهور، فهي الآن في شهرها السادس كانت فرحة جدا بهذا الحمل وكان عزوز أشد منها فرحا، فهو الولد الأول بالنسبة لكل منهما: وجاء الولد ذكرا فازدانت الفيلا بالزينات وحضرت المهنيات من جارات ميري تبارك المولود، وأقام عزوز وليمة للرجال والنساء من سكان المزارع المجاورة، كانت عامرة بصنوف الطعام والشراب، لاحظ الحضور غياب المشروبات الكحولية وأهمها (الفينو) وكذلك لحم لخنزير، الخمر المعتق على غير العادة التي ألفوها.. عرف الجميع السبب: أن الاسرة مسلمة ودينها يحرّم الخمر ولحم الخنزير ولأول مرة يعلم الأجوار: أن ميري أسلمت منذ أن تزوجت عزوز، وهذا شأن خاص لم يقف عنده الضيوف.

تفرّغت ميري للاهتمام بتربية الولد ورعايته في الشهور الأولى فلم تعد تخرج من الفيلا إلا في الأحوال القاهرة.. سماه عزوز: خالد تيمنا بخالد بن الوليد، بالاتفاق مع ميري بعد أن قدم لها بسطة عن حياة خالد، فقال لها: إنه قائد من قادة المسلمين في عهدهم الأول، وأنه فارس شجاع خاض وقائع كثيرة ضد قبائل العرب التي لم تسلم وبعدها حارب المرتدين وانتصر عليهم وأخضعهم للإسلام ثم تفرغ بعد ذلك

لحروب الفرس والرومان وانتصر عليهم جميعا وحدثها بمقولته الخالدة التي قال فيها: «لقد شهدت مئة موقعة أو تزيد وما في جسمي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء» كان ذلك حين حضرته الوفاة في مدينة حمص من مدن الشام.

امتنت ميري جدا باختيار عزوز لهذا الاسم، وتفاءلت كثيرا بأن يكون لابنها شأن، إن لم يكن في ميدان الحرب، ففي مجال آخر من مجالات الحياة.. أن يشتهر مثلا في العلم والأدب أو الفن وما شابه ذلك. توالت السنوات الأولى من حياة ميري وعزوز هنية سعيدة طاب فيها عيشهما ونعما براحة الضمير، وظفرا بالسعادة وانشراح القلب التي كان سببها الرضى عن النفس، والتمسك بالدين والاستقامة والفضيلة فاشتهرا بين الناس بحسن المعاملة والطيبة والخلق الكريم.

حين بلغ ابنهما السادسة من العمر أدخلاه المدرسة وكان ذلك اليوم عيدًا بالنسبة لهما.. لكن الحال لا يدوم، هي الأيام كل يوم في شأن، ومن لا يعرف المنغّصات في الحياة لا يستعذبها وتطيب له، حين تقبل بالفرح وطيب العيش والعسر بعده يسر، وكما في الأمثال «الأيام بخواتمها»: قد تلم بك عسرة بعد يسر لكن الفرج يعقبها فيكون اليسر: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ صدق الله العظيم.

ومن لا يوطن نفسه على تقبل المكروه، والصبر عليه، فهو ظالم لنفسه شاقا عليها، فليس في الدنيا عيش هنيء سعيد على دوام أيامها، وليس الحياة إلا بين مد وجزر، وإذا أقبلت يوما فإنها مدبرة يوما آخر.. هي الدنيا فراق واجتماع، حياة وموت، سعادة وتعاسة، تضحك في الوجه مرة وتكشّر عن أنيابها مرّة أخرى. صدفة كان عزوز يتسوّق في سوق أسبوعية يقام يوم الأحد في قرية مجاورة، فإذا به يلتقي بأحد معارفه من دوّارهم في تونس.. كان الرجل عاملا في إحدى شركات النظافة في باريس وكان في زيارة أحد أقاربه في المنطقة التي يوجد فيها عزوز.. كان بينهما السؤال والأخبار، فعلم عزوز أن الشاب الذي كان في عمره تقريبا ولم يلتقي به منذ عشر سنوات هي سنوات الحرب الستة وأربعة بعدها قضاها عزوز في الاغتراب.

سأل عزوز أول ما سأل عن أهله: والده والوالدة وأخوه الصغير.. أفاده الرجل وهو يعزيه قائلا: البقية في حياتك في والدك.. لقد وافاه الأجل منذ خمس سنوات، مضت أما الوالدة فهي لا زالت على قيد الحياة وإن كانت بعافية:- كلمة تقال لمن به علّة على سبيل التفاؤل.. وهي تذكرك دائما وتتمنى في عمرها أن تراك ولو يوما واحدا كما تقول.. أخوك يعمل في شركة الفسفات في المتلوى، ويزورها مرّة بعد شهور، وأضاف هذا علمي بما أخبرتك وكان منذ سنة تقريبا حين جئت إلى هذه البلاد بحثا عن العمل.. ثم سأله وكيف حالك أنت؟ وأين تقيم؟ وسأله عن عمله.

أفاده عزوز بوضعه، وطمأنه أنه في حال جيد، وسأله إذا كان في حاجة إلى مساعدة بخصوص العمل أو في حاجة إلى مال، فأبى الرجل أن يأخذ منه مالا، فقط رجاه أن يساعده على إيجاد عمل، غير الذي يعمل فيه في شركة النظافة في باريس.

وعده عزوز خيرا، وقال له تعالى عندي كلما وجدت فرصة للاتصال بي بهذا الخصوص، ربما وجدت لك عملا في إحدى المزارع فأنت كما أعرف أنك تحذق تقليم الأشجار فهنا كثير من مزارع الأشجار المختلفة يعمل فيها كثير من العمالة الجزائريين والأسبان.

اتفق الرجلان على الاتصال، وذهب كل منهما في سبيل حاله، عاد عزوز إلى البيت كاسف البال، مهموما حزينا، لاحظت عليه ميري حاله.. سألته منزعجة: ما بك حبيبي.. أخبرني أنت لست في حالك كما خرجت صباحا؟!

نعم.. حدسك في محله.. هناك خبر أفادني به أحد مواطني في بلادي.. مفاده أن والدي وافته المنية.. ووالدتي تتمنى أن تراني قبل وفاتها.. وهي الآن قاربت السبعين من عمرها. وتخشى أن تموت دون أن يجمعني بها الشمل.

- عليك إذاً أن تسافر حالا لتتقبّل العزاء في والدك وتطمئن على والدتك.. إن بر الوالدين من رضا الله.

- سأسافر حتما، حالما نرتب أمورنا بخصوص أشياء كثيرة ومن أهمها

الاطمئنان عليك وعلى خالد.

- عليك أن تسافر حالا، فأمري وخالد لا تشغل بالك به.. عليك أن تعجّل لتقبل التعازي في أعز شخص بالنسبة لك.

- سفري سيكون قريبا إن شاء الله ليس بسبب وفاة والدي، فهو قد توفي منذ خمس سنوات رحمه الله.. لكن بسبب والدتي التي هي على أطراف عمرها وترغب في أن تراني في حياتها.

- إذاً عجل حبيبي وكن مطمئنا عليّ وعلى خالد وسأطلب من قريبتي مشيل أن تبقى معنا نستأنس بها حتى ترجع.

- في هذه الحالة سأسافر مطمئنا، ولن أغيب عنكما طويلا، فأنا لا أقدر على فراقك وخالد، ولولا هذا الظرف الطارئ والمجبر لما غادرتكما أبدا، وأوعدكما بالعودة قريبا إن شاء الله.

- لا تخف علينا نحن في رعاية الله وسنترقب عودتك بفارغ الصبر.

- إن شاء الله.. وما تشاؤون إلا أن يشاء الله وهو الحافظ من كل مكروه، وبيده الأمر من قبل ومن بعد.

قرّر عزوز السفر إلى تونس بالاتفاق مع زوجته العزيزة ميري، وتعاهدا على المراسلة يوميا تكتب له ويكتب لها بالنظر إلى تأخر البريد في الوصول، فالوسيلة التي تنقل البريد كانت في تلك الأيام هي البواخر التي تقطع المسافة بين ضفتي البحر الأبيض ذهاباً وإيابا وتستغرق أياماً.

وكان يوم الرحيل قاسٍ، أثار الشجون بين ميري وعزوز، أما خالد

فكان صغيرا، لا يدرك كنه الفراق ومكابدة البعاد بين ألفين حبيبين. وحلّت ساعة الوداع، فلاحظ خالد دموعا تنسكب على خدي أمه وهي تكففها بيديها، وكان والده يغالب مشاعره، فقد ظهر على وجهه ألم فراق ابنه وزوجته الوفية، لكنه كابر فلم تنزل له دمعة وأخذ يلاطف زوجته ويوعدها بالعودة قريبا وربط على رأس ابنه وأخذ طريقه إلى باريس ليأخذ منها القطار إلى مرسيليا ومنها إلى تونس على ظهر إحدى البواخر التي تصل إلى أرض الوطن بعد خمسة أيام.. كانت باخرة لنقل البضائع بطيئة السير، تفتقد للمرافق النظيفة غير آمنة في كل الأحوال.

كانت الباخرة قد انطلقت من مرسيليا في طريقها إلى تونس عبر الجزائر بعد أن غيرت خط سيرها في اليوم الأخير قبل موعد الانطلاق، حيث ستفرغ حمولة من بضائع في ميناء الجزائر، ولم تشعر الركاب الذين على ظهرها إلا في الساعات الأخيرة، قرّر عزوز إلغاء رحلته لكنّه تراجع أخيرا معللاً نفسه بتأخر يومين عن موعد وصوله إلى تونس أفضل من انتظار أسبوع آخر حتى يجد باخرة أخرى قاصدة تونس رأسا.

عزم على الرحيل في نفس الباخرة رغم.. شعوره بشئ ما في نفسه... في اليوم الثالث والباخرة تمخر عباب البحر وعلى مقربة من الجزائر هبّت عاصفة قوية تسوق تيارات مائية من المحيط عبر مضيق جبل طارق (البوغاز) فأخذت تلعب بالباخرة كأنها ورقة في مهب الريح.. بعثت الباخرة بنداء الاستغاثة إلى المصالح البحرية الجزائرية.. جاءت النجدات من كل الموانى.. قبل أن تدرك الباخرة المشرفة على

الغرق أمر ربّانها الركاب بالنزول إلى قوارب النجاة.. قفز عزوز إلى أحد القوارب كان قد سبقه إليه ثلاثة من الركاب.. ابتلع البحر الباخرة بما تحمل بعد أن غادرها الربان ومساعدوه بدقائق معدودة.. ظل عزوز ورفاقه تتقاذفهم الأمواج.. كاد أن يغرق بهم الزورق بالنظر إلى صغر حجمه وثقل حمولته. كانوا أربعة.. الزورق لا يحتمل إلاّ اثنين، ظلت الأمواج تلعب به كالريشة تغطيه المياه مرّة ويطفو مرة أخرى والرجال يصرخون من هول الفاجعة.. لابد من تخفيف الحمولة، كان عزوز ضخم الجثّة تآمر عليه اثنان.. اتفقا في غفلة منه على دفعه من الزورق إلى الأمواج العاتية.. نفذا فعلتهما الشنيعة، دفعاه إلى أفواه أسماك القرش.. هو لا يجيد العوم.. لكن العناية الإلهية تولّته.. جاءت موجة عاتية دفعته مرّة أخرى إلى القارب تشبّث بطرفه تعلقاً بالحياة دفع نفسه فكان على ظهر القارب.. خاف المتآمران على حياتهم فحاولا مرة أخرى التخلص منه.. لكنه كان الأقوى.. أخذهما واحدا بعد الآخر ورمى بهما في البحر قائلا: واحدة بواحدة والبادي أظلم.. خاف الرفيق الثالث توسّل لعزوز ألاّ يلحقه بصاحبيه..طمأنه قائلا:

أنا لا أعتدي على من كان برئياً.. أنا وأنت في السرّاء والضراء إلى أن يقيض الله لنا مخرجا.. بعد صراع مع الأمواج والموت طال ساعة من زمان.. وصلت النجدات فنجا عزوز وصاحبه وبعض من الآخرين وابتلع البحر بعضاً، وتكسّرت الباخرة وضاعت الحمولة وحتى الربان لم تكتب له النجاة.

ظل عزوز شهرا كاملا في المستشفى في مدينة عنابة في الشرق الجزائري.. خرج بعد أن تماثل للشفاء ولأنه تونسي الجنسية، أوصلته السلطات إلى الحدود وتركته يقطع المسافة سيرا على الأقدام.. لم يكن معه مال ولا أي غرض آخر لقد ابتلع البحر كل شئ.. وصل إلى الأراضي التونسية منهك القوى على ظهره أسمال بالية تبرع له بها أحد أصحاب الخير في مدينة عنابة.. وصل إلى دوار للبدو قرب الحدود في منطقة جندوبة استضافه رجل كان ينتجع في جانب من المنطقة.. بات عنده ليلة ثم أصبح يسلك مسربا يفضي به إلى نجع أولاد عيّار قريبا من تبرسق.. هناك اتصل بأهله بعد عشر سنوات من الغياب.

قبل الوصول إلى الدوار صادف في طريقه أولادا صغارا يرعون قطيعا من الماعز غير بعيد عن مضارب الخيام.. سأل الأولاد عن خيمة مهذب بن عزوز : - اسم والده - أين تقع في الدوار؟

فأشار الأكبر فيهم قائلا: هي الثانية من اليمين.

قال أحد الأولاد: يا حيّك: لمهذب بن عزوز ما هو مات ليه برشة.

أنا ننشد على بيته.. ما هي عزوزه ما زالت حيّه؟

- ما أحناك حيبي.. أمكمله.. بالك في التسعين.. حتى شبحها ما ثماش شبح.. تبص وخلاص.

- هيا.. يرحم أبويك..وقصد البيت الذي أشار عليه الولد الأول.

قريبا من الخيمة المهلهلة التي يحميها رواق من شمال ويمين

عبارة عن أعواد من حطب وسباسبي الحلفاء... رفع صوته بالإذن في الدخول قائلا: الثنية يا أهل البيت : عبارة تقال للوافد على من في الداخل من رجال ونساء.. تأخذ حكم طرق الباب عند أهل الحضر أصحاب البيوت المبنية بالحجر، ولها أبواب للدخول.

أجاب صوت واه من الداخل لامراة عرف أنها أمه.

- أش تكون يا ولدي؟ خشى أنا أمك مريضة.. ما ثماشي حد الثنية اسرّحه.. أضافت بصوت خافت تخاطب نفسها.. زعمه عزوز؟! حسيت حسّه هو.. بالله يا أحبال العزايز وينه هو عزوز اليوم عشر أسنين نحسب فيهم بالنهار والليل.. لا خبر لا علم عليه.. خشي يا ولد ما ثماشي حد.

يدخل عزوز إلى الخيمة المتواضعة التي تجاور بيتا يظهر أن صاحبه ميسور الحال، وتبين صوت أمه، وحس بها وجدانه وأن لا أحد سواها في الخيمة.. تعيد هي السؤال أشكونك أنت.. يا وليدي.. عويناتي معادشي نشبح.. لا عاد في حيل ولا صحة.. انكمّل في أيامي باليوم..

- عزوز يحتضن أمه، والدموع تغسل وجهه قائلا أمي أنا..

- قبل أن يكمل كلامه تقول: عزوز.. شميت ريحتك يا وليدي من قبل ما أتنادي.. واليوم لحيه قداش يوم نحلم بيك.. حناني روحي اللي وليت لي.. عمري اللي ما بعده عمر.. الحمد لك يا رب اللي رجعت فيّ الحياة.. يا نهاري المبروك ويا فرحي وسعدي الكبير.. وأخذت

تعصر جثته الضخمة بذراعيها الواهيتين وتشم ريحه وتتحسس وجهه، وهي تهذي بكلام الوحشة والشوق دون أن تترك له فرصة للرد.. فقط كان يقول: أنا عزوز يا أمي أنا عزوز، فتزداد تشبثاً به ودموعها تنهمر.

- بعد وقت هدأت قليلا فخلّص نفسه منها برفق، وجعل يقول على سمعها الضعيف: الحمد لله الذي وجدتك على هذا الحال يا أمي. والتقيت بك في الحياة.. كان يرفع وتيرة صوته لتسمعه فكانت ترد عليه وأحيانا لا ترد.. وجدها ضئلة الجسم، منكمشة الأطراف ضعيفة البصر، تسمع بصعوبة وتقوم واهنة.. كان شعرها قد تساقط أكثره ولوّنته بالحناء أسنانها تساقطت وتخفّف جسمها من اللحم، وقد كانت فيها ملامح منه في قوة البدن وطول القامة.

- ظل طوال اليوم الأول والثاني يوانسها ويطيب خاطرها ويترفق بها ويملأ عليها حياتها بهجة وسرورا، ويضاحكها أحيانا ويذكر لها بعض الذكريات التي مرّت عليها السنون.

- ارتاح بالها، وهدأت نفسها، وطاب خاطرها حتى داهمتها لحظة سألت فيها عزوز.

- ماسألتيش على أبوّيك.. يا عزوز كبدي؟!

- الله يرحمه يا أمي ويغفر له ويوسع عليه.

- سمعت بيه ؟ يا كبدي عليه.

- سمعت يا أمي.. وسمعت بيك وبحالك.. خليت حتى أنا كبدي وجئت باش نشابحو في الحيا قبل الموت.

- عِرّست يا عزوز كبدي في بلاد الغربة؟ وما فرحتش بيك؟!

- مكتوب يا أمي.. وإن شاء الله تفرحي بي ديما.. أنا معادش أتغيب عليك.

- قلت خليت كبدك يا كبدي.. الكبد حرفه ما ألومك حد كان وليت

- شن خليك من صغار يا حناني أولاد والا بنات؟

- وليد أو حيد.. هذا ما عطى ربي.

- فيه البركة.. برشه اللي ما عنداش والعاطي حي.. واش سميته؟

- خالد.. على اسم سيدنا خالد بن الوليد.

- وليه ما سميته على باباك؟! هو مات وايقول إن شاء الله عزوز أجيب ولد ويسميه مهذّب.

- يا أمي عادي في البلاد اللي عشت فيها تصعب عليهم الأسماء اللي عندنا.. هم ممن.. يقول: مهمد.. حتى أنا يعيطولي: أزوز.. ما يقدروش يقول عزوز والّا محمد.. حتى خالد.. يقولو: كالد.

- بهناه.. إن شاء الله راجل عقب راجل.. وأمه واش هو سماها.

- أمه سماها ميري.

- قاورية؟!

- مسلمة يا أمي.. ما عقدت عليها إلا ما أسلمت على يد الشيخ

والشهود.. وتصلي وتصوم.. الله يخلف عليها ما ريب معاها كان الخير وسميتها فاطمة.

- منين هي استسلمت ربحت وربي أيباركلك فيها، يا أخي واش بيها ما جتش معاك؟

- أنا جيت مزروب.. حل ما سمعت قصه مات وسمعت بيك كبرتي ومريضة ما نجحتش نبطا.. إن شاء الله مرة أخرى تيجي معاي.

- إن شاء الله يا وليدي ويجيب لي وليدي خالد انراه في الحياه قبل الموت.. الكبد امثافيه.. وأعز الولد ولد الولد زي ما ايقولو

- بعد عمر طويل إن شاء الله.. ما زال الخير والبركة.

- كل جيل يمشي مع جيله يا كبدي..الدايم وجه ربي.

- يا أمي ما قلتيليش وينه هي طاحت محرزية أختي؟

- سأل عزوز عمن تزوّج بأخته التي افتقدها ولم تأت إليه وقد مر على قدومه ثلاثة أيام.

- أيه يا كبدي.. طاحت عند الفراشيش.. ما هي عرّست بعد ما هزوك للعسكر.

- يا أماه.. ضاقت عليها ما ألقت غير الفراشيش واحنا من أمته يد وحده معاهم؟!

- مكتوب يا ولد يغلب.. زي ما تقول الناس: صابح المكتوب غلب بوفاتحه.. كان واحد فرشيش سارح بالبقر عند عمّك الجيلاني..

صار من الأمر.. قال هي وبس.

- سارح بالبقر؟! فرشيش يسرح بالبقر نحسابه يحط مكحلة على كتفه.. دار فيده مشفيط ويعافر في البقر؟! يا خسارة على بن غداهم.
- الدنيا فيها وفيها يا كبدي.. البطن اتجيب الصباغ والدباغ
- لا غالب الله غالب.. وين ساكن بيها؟
- هوينا في دواوير فراشيش القصرين.
- عندهاش شناته؟
- ومن يدري عليها توّ عامين جت زارتني، وجت مرةْ وين مات باباها.. قالت وين جتني عندها شنتي وزوز بنات.
- ربي أهنيها.. اللي عنده البنات مرات يناسب لكلاب.
- يا ودي راجلها ما عندنا فيه ما أنقول.. كان فراغ ليد.. كيف ناس برشه.

تحلقت جماعة عزوز التي تعوّدت على حكاياته حوله في آخر ليلة يقضيها في المعهد الرمدي في باب سعدون حيث قرّر الطبيب خروجه بعد أن تحسن نظره، ولأن المستشفى أصبح يستقبل أعدادا كبيرة من المرضى الجزائريين من أبطال جيش التحرير إذ جرت معركة كبيرة في الشرق الجزائري ضد الجيوش الفرنسية كانت تضحيات جيش التحرير فيها كبيرة. تكبّد فيها الفرنسيون خسائر فادحة، انطلقت على أثرها مفاوضات أفيان التي عجّلت باستقلال الجزائر.. كان الجرحي الجزائريين موزعون على المستشفيات التونسية الأخرى، كمستشفى

الحبيب تامر وشارل ديفول، ومنوبه وغيرها وحين ينهون علاجاتهم السريعة يحوّل المصابون منهم في العيون إلى المعهد الرمدي ليتولى الأطباء التونسيون علاجهم وكان على رأسهم الدكتور الشهير الهادي الرئيس، وفي هذا السياق وجب التنويه بموازرة تونس للجزائر في حربها التحريرية على جميع المستويات، من إيواء اللاجئين من قرى ومدن وأرياف الشرق الجزائري، إلى علاج المرضى وجرحى المعارك وكافة التسهيلات اللوجستية وكذلك استضافة الحكومة المؤقتة والكوادر، السياسية على اختلافها، وهي مؤازرة أخوية واجبة على كل حال.

عودة إلى عزوز وجماعته التي رافقته أكثر من شهرين تتحلق كل ليلة حول سريره ليتحفها بسردياته المسلية التي سجّل فيها سيرته الذاتية طيلة عشرة سنوات أو تزيد قضاها في الاغتراب بين خدمته في الجبهة أثناء الحرب الكونية الثانية أو في (السركه) بين المدن الفرنسية حين تم تسريحه من الجيش بسبب إصابته في إحدى المعارك وعدم صلاحيته للخدمة العسكرية. قال حمّه: وهو المفتاح السري لعزوز إذا أراد الجماعة منه حديثا عن مغامراته أو حتى مقاسيه، وما طرأ عليه من غرائب وعجائب زمن الغربة في السنوات الرخية والعجاف، طلبوا منه أن يغلق الشكاره كما كان يقول في آخر ليلة سيقضونها معه، فهو خارج من يوم الغد حيث قرر له الطبيب الخروج.

قال الشنتي حمّه كما كان يناديه عزوز: هيا يا دمدوم أغلق آخر شكارة عندك.. ما تخبي حتى شيء.

- هيا هيالك شكاره وحده.. هم شكاير وغرائر ومعالف وقفاف.
- المولدي: نرغ جملة يرحم ولديك.
- واحد من الجماعة: نحيت علينا الغم والهم، الله لا يوريك هم ويفتح عليك
- احنا وين خليناها الحكاية؟ أنا خشت بعضها عندي.
- المولدي: من هروبك من المستشفى وين مشيت بعدين.
- من كبر أحبالي.. طبيت في نيس أغلا بلاد في فرنسا.. يا تعيش فيها أمير يا خدّام.. سكانها أغنياء العالم.. وإذا حصلت فيها خدمة راضين عليك ولديك.. الخدام فيها شهريته بالآلاف.. ما طولتش زي ما قلت لكم قبل منها مشيت لمرسيليا.
- صمّه: بدلتش هوايتك.
- شن معناها.
- تماشي خيش بيش.. زي جانيت وسوزي.
- خرّف يا صمه خرف.. من قلتهم وما تدفع حتى فرنك.. كان أمك كابه على أقدامك خوذ ما تبي وليك الجميل.. طق وخوذ فلوس.
- واحد: ساهله ماهله.. لا جرى لا تعب.
- عزوز: طق طريق
- صمّه: كيف؟!
- الكيف أكيف.. تبي نكتبلك بالرزام.. وآلا اشرحي برجي.

- المولدي: وشن صار معاك في مرسيليا؟

- لا في مرسيليا رضت حصّلت الترافاي وجرت فيدي لارجا.. خدمت بواب في عمارة وحده يهودية نيسه الله يخلف عليها ما دارت معاي غير المليح.. حتى كأنها في الآخر عيبت شوي.. تعاركت هي ومدام ريمون.. بعدين أنا خليتهم في حلهم ومشيت نبغت في ليل.. ماني حكيتلكم ما صار لي مع نيسة اليهودية ومدام ريمون.

- صمّه: أمته؟ ما سمعناهاش حكايتك مع نيسة.

- حكيتها غير أنسيتو.

- وشن صار لك في ليل؟

- خرّف عاد.. حكيتها لكم.. أنا ما انعادوش.

- المولدي: لا حكيتها لنا.. بالأمارة منين عطاتك مدام روجيه شيك فيه ثلاث آلاف فرنك

- لا وليت مرة ثانية، وخدمتني وبعدين رستلي عرّست بيها ويا ما صار حكاية طويلة.

- صمّه: وهي ما لاقت عزوز امكمله.

- واش بتقول لواحد بلا دماغ: ما طو.. كيفي أنا.

- هاذي حكاية ما هي احكاية؟

- الطرابلسي: حكاهالنا بالأمارة ليلة اللي كان معانا خونا الجزائري

اللي جابوه مجروح في عيون في معركة غار الدماء.

- المولدي: صح.. صح.. منين شدّاته العزوز مع الخدامة الكورسيكية وطرّدتهم هم الزوز.

- يا ما صار على عمك عزوز.. لكن هاكي الطردة جت معاه تبدل الحال.. وحن عليه ربي تاب .ز وطاح في مرا صالحة هداها ربي هي بعد ما كانت غارقة في الحرام للشوشة.. تابت واستسلمت وعرّس بيها عمك عزوز وصب الله عليهم الخير وجابو وليد.. ودوام الحال من المحال.

- صمّه : كيف صار؟

- روح عمك عزوز وين سمع أبيه مات جي أطل على أمه بيها بيها قعد جملة.. وها هو أخبر فيكم باللي جرى.

- المولدي: حكايتك مع داداي امباركة.

- هاذي نازله أخرى.

- واحد: احكيها لنا الليلة.. اختم بيها.. وما اهناك حد بلا حكاية

- نحكيها لكم.. لكن اسمعو وما تضحكوش.

- صمّه: يتظهر لي حكاية خاربة.

- وشنو اللي أضحك العبد غير الحكايات الخاربة؟

- خالتي امباركه هاذي عرّست بيها من بعد ميري؟!

- أي يا ولدي.. بعد السيف علق منجل.. أش جاب القمر للنجمة
- ومنهي القمر ومنهي النجمة؟
- أنت ماك فهيم برشه.. إش جاب ميري لمباركة.. القمر ميري.. ومباركة حتى نجمى أتجيش غير كلمة تنقال.. تمباركة بدرنة قتلك.. بدرنه هاك اللي يظهر في الربيع يلم في زبل البقر عرفته؟!
- المولدي: تسكت يا صمّه وانت ديما تلقم للراجل.. خلي الراجل يحكي.
- أشريله السكات بالفلوس.. وخفه العقل لمن أخليها.
- اللي صار من الأمر.. زي ما نحكيلكم.. وصلت في الدوار في عقاب الشتى قدوم ربيع.. ألقيت العزيز أمي على طرف أيامها.. نشدتني: عرّست؟ قلتلها عرّست.. قالت: أنا شادتلك أمباركة بنت أختي وكيف عرّست ربي أهنيك.
- قلتلها: مش ايقولو الناس لوّله: من كبر بختي جت كنت بنت أختي.
- قالت: لا امباركة مش زيهم: عرف وحذاقه، وزين وعين ويا سعد اللي تعمر له بيته.. وهي وروسكم جملة ما تسوى أربعة صوردي.. لكن القرد في عين أمه غزال.
- صمّه: حصلت فيها.. بعد الزهي والطرب مع قاوريات زي عنائق الغزال.. جابلك حضك ثعلب.. ليام بخواتها زي ما اتقول.
- ريت هالفلفوس؟ ديما خير منك.. ما حصلت هذا ولا هذا.
- ما زال عمري لقدام.. وكان عطي الحيي نشيح زيك وأكثر.

- تشبح كيف امباركة وأقل.. أنت وجهك ما هو وجه خير.
- الطرابلسي: الله يهديك يا صمّه.. ديما وأنت تخلوض.. أعطينا السكات.
- يعاد اللي انخبّر فيكم.. واحنا في ساعة زي هالساعة والساعة أبرك جاني بوسطاجي.. يرتل من تبرسق جاتبلي بريه.. عمك عزوز ما هو يرحم من قرّى لورىّ.. هزّيت هاكي لبرية لشيخ التراب حتى هو دوب ما أفرّز في الحرف.. خبرّني خبر مشؤوم أشوم من وجه صمّه.
- صمه: ريت.. ريت.. أنا وجهي مشوم؟!
- ما أنطّول هدره: قال يقولو في البرية عندك مرا اسمها ميري تقدمت على مولاها.. وين عاد ما زال تلقاني.. روحت نبكي من كل عين حفنه.. أمي: أش بيك يا حناني وجهك شين. قلتلها: المرا ماتت والغشير قعد ايزوح لا من بيه.
- الله يرحمها يا كبدي أكلنا ليها.. بغاها الله وأنت قصدك ربي.. يعوضك الله خير.. والله يا وليدي البارح بس حلمت بيها زي ما اتقول: أمعرسينها.. وأنا فسرتها مني لي مسكينة رافعينها للجبانة.. الدايم الله يا كبدي.. يا لبعتي هاك الشنتي اللي خلاته وراءها لا من بيه.
- عزوز: تبو الحق زادت على ما بيي وين ما ذكرت لي ولدي وهو قاعد صغير.. ولا بابا لا أم.. ما طولتش حتى أمي.. لحقت ميري.. قبل لا تموت. قالت: اسمع يا عزوز ما مات حي على ميت والدنيا فيها ياسر.. كان يا ولدي جي في بالك تاخذ مرا.. نخليك كله السماح

كان تخطي امباركة بنت أختي.. راني أمسيتها عليك من حيش هي صغيرة وها هي توّ قريب تضفر الشيب وهي تراجي فيك كان من الأمر لائمتها في رضا أمي.

- المولدي: وأنسيت ولدك ومالك واللي ثمة والململة؟!

- بالسيف عليّ.. تبي الحق.. كرهت الجبنه والميص زي ما إيقولو ما عادش عندي خاطر أنقبل قدي وين كنت بعد ميري الله يرحمها وإمبرد ثراها.. سلمت في ولدي ومالي واللي اجي منه

- هناك واحد يسلم في ولده؟! قال صمّه.

- راجل.. كان عاش وفيه ثمره هو اللي احيني.. زي ما انا جيب لباباي وأمي.

- شداتك خالتي أمباركة ونساتك في كل شيء.

- ريب هالاميره؟! تهميّ صباح أحرف.. إن شاء الله ما تشفهاش. وجهها أسود زي الحماس.. وعيونها دفر أو حول.. وسنيها واحدة راكبة على وحده وخشمها ناقص.. خلقه مشؤومه زي خلقة صمّه.

- اش بيك اليوم رامياتك الحملة علي.. شورك يا عمبنو اللي افارق على مليحة.. هكي يا عم عزوز وليت زي البقرة تحلب عشر ليترات وتكبّه بكراعها؟

- الطرابلسي: ابصر عليك عمك عزوز.. ما تيتناس نضحكو؟!

مش قلنا الليلة فراقها صبح.. وبنقلقو كل شيء اللي عنده اشكاره يغلقها.

المولدي: لكن المراش زين بركه.. ساعات اللي شينه فعلها زين.

عزوز: خالتك امباركة لا زين لا فعل.. رأس مربوط وخلقّه الله لا يوريك.. لكن وصية أمي وباباي.. أمي بيّ بنت أختها كنتها.. وباباي يبىّ ولدي انسميه امهذب.. أو هو ما هو ضنوه أقصير كتفه : (أشبير) زي أمّه وزي صمّه هذا أو يبيّ روحه يولي أبوكا.. مبعد مكّه علبو حمار.

صمّه: دوره.. دوره عمك عزوز ويشد رأس ما احنا بحذك غير أنا؟

عزوز: شنو تبيني أنتمنيك على هالطرابلسي اللي زي الغرنوق؟ اتقول ما لاقي ما يذوق.. رائح قبّه أطيح أش بيك يا بن عمي تقول ضارباتك زمة عام الشر؟!

الجميع يستغرقون في الضحك، فلسان عزوز انفلت ولابد أن يطال الكل.

عزوز: وحتى هالجزائري بعيونه زي ذئب ضاربه وجه بارود.. لكن هذا خاش نار حمره علجال أبلاده..نشهد أنه راجل وسيد الرجال.. وأش راك يا الخو ما تهدزش؟!

صمّه: دركه يهدر.. توّ اينوضنلك أطق العشره في قراجيمك.

يحفظنا الله منا: ذائق الدم في الفرنسيس ما تامنه ما ادير.

الجزائري: لا ما أتخاف يا انخو.. أنتم التوانسة عملتو معانا المليح.. لولاكم والطرابلسية وعبدالناصر رانا ما زال مقهورين من لستعمار اللي قتلنا مية وثلاثين عام.

أفزر الرجال اللي ماتنساش المليح.. يا صمّه يا نسنونه مانين النصاره مش أنت تعطي فيّ في كمشه حرابش وادور بي نهار كامل زي ذبانة لرواح.

صمّه: ريتو يا جماعة نساي الجميل.

واحد: ما زال ما عرفتش عمك عزوز.. يمزح.. قلبه ما فيه شيء.

عزوز: كمشه حرابش إمد لي فيهم مجمل بيهم.. ماك حرمتني من شاذليه كانت أتجيني كل يوم نصبح في وجهها ايمل العين المغمضة جيت بين وبينها زي الشيطان الرجيم خذيت منها واجبها.

صمّه: ريتو يا جماعة.. الجمل عينه في الكرمه.

الجماعة يضحكون، وكل منهم يغمز صاحبه لأنهم جميعا كانوا يتابعون بنظراتهم جميع الممرضات رغم عيونهم المريضة عضويا وكناية.

يتابع عزوز تعليقاته واصفا غير شاذلية من الممرضات.

عزوز: أما فضيلة نشهد ونعلم أنها بردوحه ما هي بردوحة.. منين أتجي خاطمه لابسه هاكه الكبوط البيض قاسمها نصفين ورقبتها شبرين أتجلي حياة هم وغم.

الطرابلسي: نلقاه أنها فضيلة أمفضله واخذه حقها وعندها الفاضل وين تخطم تسعفن تقول بكره.. نشهد أنها خير من سرعوفة ايناق.

عزوز: أسمع هالغرنوق شنو يقول! الساكت ناكت.. شورك يا بن عمي سارح أنياق.. إنا نقول قلة اللحم فيك مش بلاش.. ماكش بعيد

تسرب في النهار خمسين كيلو متر في جرّة البل.

المولدي: لا يا عم عزوز ما تغلطش صاحبنا: معلم لكن أصله بدوي أهله يربو في البل زي ما قتلو المرازيق عندنا والّا التوازين والهمامة.. تحب تقول ثقافته يبليه.

ما هي أبصاره عاد.. لا هو مش عارفني؟

الطرابلسي: عند لاذن يا عم عزوز.. الغد كله ما ينفر منها حد

الجزائري: واش راك تهدر على مليكه.. عامره بالزاف يا عم عزوز.

هاكي ماهيش ممرضة.. هاكي طبيبة واخذه شهادة من طولوز أنا نشدتها وقالت تعرف حتى لبلاد اللي أنا كنت فيها.

الجزائري: حال بحال.. كلهم أنس لا فرق بين طبيبة وممرضة.

لا في هاذي عندك حق هي تهز العقل.

صمّه: مانيش عارف غير كيف شفتهم أكل ووزنتهم وانت عين امغمضة والثانية ربع شبح؟! عجب هالعباثه ما يغبي عليه شيء.

وأنا باش سارح نهار كامل؟ والله ما تخطمه وحده منهم إلا وعيني وراءها لين تدرّق.. ربع هالتين اللي انت هازي عليها تفصل في كل وحده وتخيط.. القصيره والطويلة والبيضا والسمره والمليانه واللي لحمها غزلاني.. الشابه والكبيرة واللي عاطيه بالوجه واللي بالقفا.. هاذي صنعة عمكم.. النسى ولاّ غير النسى.

صمّه: وكيف لا؟ سلم مدرسة جانيت وسوزي ونيسه اليهودية.

عزوز: باش تقرع وتقول صحه للتريس.. مش كيفك طول عمرك سارح بالمعيز في جبل مطماطه.

صمَه: وشنو ينفع.. في النهاية رست ليك على خالتي امباركة.. وقاعد في دوّار من جماعة أولاد عيار شيرة طبرسق.

المولدي: عمك عزوز عاش أيامه طول وعرض.. دلّل عينه كيف ما اشتهى وراد.. والقلب في الدنيا.. عشر أيام مردوك ولا ستين دجاجه.

خليه إبرّد على قلبه.. اللي ما يلحقش العنب ايقول لقارص.

صمّه: كان دار في عمره حسنه.. استسلمت علي يديه ميري.. أو سيب ولده هامل في بلاده القوره.

- كان فيه ثمره ينشد علي واجيني.. كان ما هذا خوته برشه هاملين كيفه.. يمشو من ابلادهم شباب أمصنعين أمنعين ايحرسوا مع عزايز ايرفلوهم لوراق وعينك ما ريت عمي ما عاد يشبحوهم والديهم.
- لكن ولدك.. كبدك ما تخنبكش تمشي تشوفه كيف حاله؟!
- ما عندي باش انشوفه.. خلاص نفضت منه إيده سمعت عليه بعد ما ماتت أمه.. دارت بيه خالته اللي رباته غيرتله دينه ولي نصراني زيها.. وحتى اسمه بدّلاته.. سمّاته جان.. اسم شياطين.
- صمّه: جان! يحفظنا الله من الجنون.
- الجزائري: جان عند الفرنسيس اسم له رمزيته.. جان دارك.. جان جاك روسو.. كيف ما عندنا احنا العرب نسمو : خالد والاّ طارق

كذلك صلاح الدين من رموز التاريخ وقادة الحروب وناصر الآن وغيرهم.. جان جاك روسو من فلاسفة الثورة الفرنسية.. وجان دارك من رموز الحرية في عصور التنوير والنهضة.

- عزوز: أوه إييه: صاحبنا الجزائري هذا حاجة أخرى.
- المولدي: أنتم مش عارفين: المعراقي مصطفى هو من الأدباء والكتاب والصحافيين الجزائريين، أستاذ لمادة التاريخ الحديث في الجامعة؟!
- عزوز: وهنو عرفنا؟ هو قالك وأنت ما قلتناش.. سامحني يا أستاذ بالك غلطنا معاك
- الجزائري: ما كائن مشكل.. إحنا إخوة.. لا بأس عليك يا الخو.
- صمّه: حق.. ايقولو العلم خير من المال.. عمر ما سمعت لا جاك لا جان ولا عرفتهم.
- أنت غير أعرف حتى الدغباجي وعلى بن غداهم.. برشه عليك.. أنت رويس مربوط. منو لائم عليك.
- الطرابلسي: لا حظتو.. وهذا ثابت من خلال أدبيات الثورة الجزائرية، وتاريخها الذي تسجلها الحرب والمعارك الدامية، التي ما زالت محتدمة بين أبطال التحرير والجيوش الفرنسية. وأرى أنها قاربت على الانتهاء بالنصر المؤزر. إن هذه الثورة على الاستعمار هي ثورة شعبية بامتياز.. لم تكن ثورة الصفوة والنخب ولا الزعامات الفردية والأحزاب.. إنها ثورة شعب بكامله، وعلى اختلاف فيئاته،

شعب خرج من المدن والقرى والأرياف والتحق بالجبال مصمم على انتزاع حقه في الحرية والحياة على أرضه مهما بلغت التضحيات.

لقد أخبرنا هذا الرجل الذي أمامكم السيد المعزافي مصطفى.. إنه خرج من قاعة المحاضرات يرافقه جماعة من طلابه في الجامعة، وآخرون من أطر تسير دواليب الحكم الفرنسي في الجزائر موظفون محترمون، خرج التجار وأهل الحرف والأطباء والممرضون جنبا إلى جنب مع الفلاحين، وكان موعد اللقاء في الجبال التي تغطيها الغابات الكثيفة من أجل شن حرب العصابات على الوجود الفرنسي في الجزائر.. انتفضت الجزائر بكاملها في تلمسان ومستغاغ في وهران وشرشال والبليده والجزائر، شيب وشباب وحتى نساء في المدن والقرى، كانت الثورة عارمة عامة في باتنه وعنابه وسكبكرة وقسطنطينية وتيزي وزو وغرادية وتبسه وفي الصحراء البعيدة في ورقله، شعب الجزائر من حدودها في الشرق إلى حدودها في الغرب قام قومة رجل واحد يحارب القهر والظلم حربا لا هوادة فيها وصاحبكم هذا كما أخبرنا وغيره كثيرون من حملة المؤهلات العالية وشهادات التعليم على اختلاف فروعه كانوا جنودا يحاربون تحت إمرة قادة أبطال جزائريين تمرسو في الحرب كجنود دون رتب ولا شهادات مع الجيوش الفرنسية في الحربين الأولى والثانية العالميتين حاربوا في أوربا وإفريقيا وفي بلاد الشام وأخيرا في الهند الصينية، وهم الذين صنعوا مجد فرنسا، صاحبنا هذا وزملاء له من أصحاب مستويات عالية من الثقافة والعلم كانوا تحت إمرة أولئك الجنود والمجهولين في

جيوش فرنسا، ولم يستنكفوا من ذلك، كان الهدف تحرير الجزائر وقد أصبح النصر قاب قوسين.. كان هذا الوقت أثناء مفاوضات أفينان الثورة الجزائرية كما قلت لكم يا إخوتي ثورة شعبية قادها الشعب واشتركت فيها النخب والزعامات والأحزاب لكل منها دور ودور البطولة كان للشعب.

- عزوز: هاذي محاضرة أخرى زي محاضرة خونا: المعرافي .ر يت هالطرابلسي ما يطلع منه.. أيقولو التريس محاضر موش مناضر.. سامحوني كأني غلطت في حد.. خاطر صمه لا اسامحني لا انسامحه.

صمّه: حتى بتروح يا ودي ماكش أمبيض قلبك علي؟! سود قلبك! بنروح وما شغليني كان هالبردوحات فظيلة وشاذلية.

صمّه: مليكة؟ والطبيبة؟

لا مليكة متكبرة شوى ما هياش بعيدة من امباركه عندي.. والطبيبة رافعة نيفها . شاذلية وفضيلة ماذا بينا أناسبوا لجزائر وطرابلس ياخذهم وحدة وحدة.. الطرابلسي وحدة والجزائر المعرافي وحدة.

الجزئري: أنا معرّس وعندي جوز بنات ومرتي دكتورة معاي في الجامعة.

عزوز: أماله نعرسو لها الطرابلسي.. نعطوه فضيلة.

الطرابلسي: يا ريت أنحصل وحده تونسية سمحة من عقاب الأندلوسيات نشمو عليها ريحة الأصوليات والا حفيدات طارق بن

زياد.. لكن فضيلة يا ودي مخلاتها كبيرة ياسر.. برشه تقولو انتم

صمّه: شنو مخلاتها كبيرة؟!

عزوز: أنت مهو أدميغك صبعين والحق الطين.. هذا معنى بعيد عليك.. وقتلك من قبل صاحبك الطرابلسي ثقافته (يبليه) يعني سارح بل.. واعرف المخلة الكبره شن معناها.

صمّه: يعني شنى معناها مخلاتها كبيرة.. أنا مافهمشي.

وأنت من امتى تفهم.. المخلة اللي فيها حوائج السارح لما تبدأ كبيره.. معناها وراءه شيء كبير.. شنو المخلة يعملوها من قدام؟

آه تو فهمت.. فضيلة أمجديه من تالي.. والله الّا حق.

باهي اللي فهمت.. الطرابلسي يبي وحده غزلاني زي شاذلية.

المولدي: تفصلوا واتخيطوا منكم ليكم.. تاخذو وتعطو.. من قال لكم هم حاسات بيكم.. راهي كل وحده عندها (زوازو) شاده فيه.

عزوز: واحنا غير ملوحين ليهم.. والله هالطرابلسي لنقد ما يستاهل إلا أربعة والّا حتى خمسه.

صمة: خمسة!! بتعدي الحدود.. الراجل عنده الحق في أربعة بركة.

عزوز: أربعة رسميات..والخامسة ياخذها بعدما يصفى وحده.

الطرابلسي: أنا خاطري في الطبيبة.. كان تخطبها لي يا عم عزوز؟

عزوز: خليك منها.. حاسبه روحها وين رافعة نيفها أشرقالك

أستاذة.. لكن حتى أنت استاذ.

- لا أنا معلم.

- والمعلم أستاذ.. يا خي رسول.. رسول علم.

- وهي زي ما قلت وتحب: أندلسية.. وتكون قلعة الأندلس شيرة بنزرت.. خبيزتك والعسل.

- صمّه: مكتوب ما تندري عليه وين أطيح.. الشيء لمن يكتب.

- عزوز: حتى أنت حادف عينك وراءها.. غير كيل. يموت الحمار وشوقه في الحلوى.

- أنا عارفك ما تود لي خير.. اللي يكرهك يحلم لك الحلم الشين.

- احنا أنبصرو.. وانت البصارة ما تعرفهاش وتو سامحوني اكل.. غدو بكري ماشي للترينو.. ويا مبعدك يا تونس ويا ما أقربك يا باجه. تصبحو على خير جملة.. وربي أسمعنا على بعضنا الخير، وانت يا الخو المعرافي وأنت يا جيلاني.. والله ما عرفت اسمك إلا تو من صمّه.. سامحوني ياسر . وابعثو لي بريات وكان تقدرو زوروني في دوار أولاد عيار شيرة طبرسق.. أنشدو علي عزوز بن مهذب راجل امباركه لول أدلكم علي.. ويدلكم الله على الخير وتصبحو على خير.

